إلى كل مسلمة تبغي

السعادة

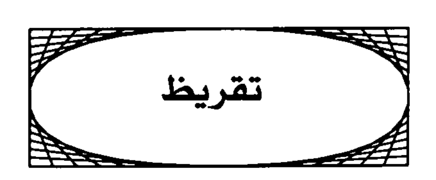
أم عبد الله عاطف





إلى كل مسلمة تبغي السعادة

أهدي هديتي



تقريظ

الحمد لله الذي جعل العلم أشرف الأعمال، وأمر نبيه بطلب الاستزادة منه في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤]، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد أعلم الناس بربه، وأكرمهم عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته المكرمين ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن كتاب «إلى كل مسلمة تبغي السعادة» هو باكورة عمل أختنا الداعية أم عبدالله، وهو عملٌ جيدٌ ونافع إن شاء الله، ولقد حرصت أختنا على الاشتغال بالعلم النافع والدعوة إلى الله تعالى بكل الوسائل الميسورة لها، سواء أكانت بالكلمة أو بالقلم أو غير ذلك، وما أحوج الأمة في هذا العصر إلى المرأة الداعية التي تباشر الدعوة في صفوف نساء المسلمين لتتعرف على ما يحتجن إليه، وتنظر إلى السلبيات الداخلية الناشئة عن الجهل فتعالجها. فجزاها الله خيراً وزادها الله علماً نافعاً.

ولقد حرصت أختنا على تحقيق شيء من حديث رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**»، ثم ذكر منها: «**علم ينتفع به**» وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: الآية ١٢٥]، كما أن الله تعالى أكرمها بأن نشأت في بيوت أهل العلم ما بين والدٍ إلى زوج فرغبت في أن تشارك في مسيرة الدعوة إلى الله تعالى فكان من نتاج ذلك هذا الكتاب المبارك الذي جمعت فيه مادةً علميةً متفرقة مع جهد

مشكور، ونشاط دؤوب، وقد عالجت فيه كثيراً من القضايا التي يحتاج الناس إلى معرفتها بأسلوب سهل ميسور يتناسب مع عموم الناس، ولقد راعت في معظم خطابها بعض الجوانب التي تخص المرأة المسلمة من عبادات ولباس وزينة وعادات وأعراف محلية مؤكدة على الالتزام بالعقيدة الصحيحة ومنهج السلف الصالح، وإن كان الخطاب يشمل في مجمله عموم الناس.

هذا وقد اطلعت على الكتاب كله فألفيتهُ نافعاً إن شاء الله، وإنني إذ أقدم لها ليسعدني أن أدعو الله تعالى أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع به المسلمين، وأن يكون بدايةً لجهودٍ مشكورة تتلوه إن شاء الله تعالى.

وصدق ربنا عزَّ وجلَّ القائل: ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: الآية ١١].

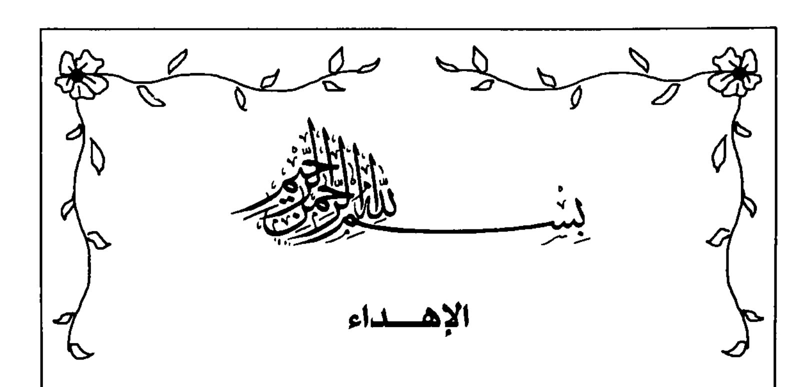
ولله در قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدرُ كل امرىءٍ ما كان يحسنهُ ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلمٍ تعش حياً به أبداً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دكتور/ عاطف التهامي فؤاد
دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه
(جامعة الأزهر)
مستشار بوزارة الأوقاف ـ الكويت
١٤٢٢/٩/١٥هـ



الإهــداء

. . . إلى والديّ الفاضلين: الذيّن أخذا بأيدينا إلى الفضيلة منذُ نعومة أظفارنا، فعمَّقا في نفوسنا حب الله وحب رسوله واتباع سنته. .

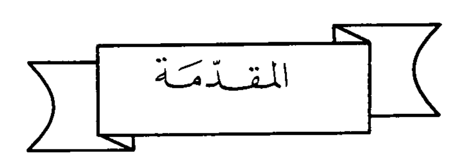
. . . إلى الزوج الوفي: الذي وجدت فيه عطف الأبوة. . . وحنان الأمومة. . وإخلاص الأخ ـ الذي يكاد يكون مفقوداً اليوم ـ. . . وصدق حب الأخت ونقاء حب الصديقة. . وطهر الحب في الله عزَّ وجلَّ.

. . . إلى هذا القلب الكبير والعطف المتدفق الذي وجدت فيه كل ما أحببت، فكانت حياتنا جنة وارفة السعادة بسبب عون كلٍ منا على طاعة الله.

. . . إلى أخواتي الثلاثة [ن، ز، إ] اللاتي تربيّن مثلي على حجاب الطُهر والنقاء وعشقْنَهُ مثلي، ومن ثم إلى كل مسلمة في كل مكان لا سيما مصر وعمان والجزيرة والكويت الحبيبة والخليج. .

. . . إلى من أحببتهن في الله وكل أخواتي في الله في كل مكان. .





إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليلهُ.. أشهد أنه حمل الرسالة وأدى الأمانة ونصح لأمته وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.. فاللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته، وصلي اللهم وسلم عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين دائماً وأبداً وصحابته البررة المكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا اللهم من أتباعهم وأحبابهم ما حيينا.

وبعد:

فإن من أجل النعم بين أيدينا هذا الكتاب العظيم الذي هو تنزيل رب العالمين على سيد المرسلين ليكون للعالمين نذيراً.

إنه القرآن الكريم الذي فيه نبأ من قبلنا ونبأ من يأتي بعدنا، وهوالشفاء لما في الصدور... النافع على مدى العصور والدهور.. لكل ذي لب سليم وعقل مُستنير.. ويكفي أنه لا تنقضي عجائبهُ!!! الذي ما انتهت الجنُ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ

أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢]، وإنه لمن فضل الله علينا أن جعلنا أهل سُنةٍ فرغبنا في اتباع سبيلها والسير على نهجها وحب إمامها ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجعل ذلك من تمام الإيمان، فكنا بذلك أفضل الأمم.. وليس ذلك إلا بالاتباع الصحيح لهذا الأساس القويم.

وكم هي حاجة الأمة لفهم القرآن ومعرفة سبيل الرحمٰن، واتباع خير الأنام ـ ﷺ ـ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم.

إذ أن هذا هو السبيل إلى السعادة الذي وضع ربنا مفتاحهُ بيميننا أن تكون مع الله في وفاق دائم، فتسير على الطريق الذي رسمه سبحانه لك، فتعادى من عاداه وتصاحب من وافق شرعه ورضاه. وأن تلزم العفة في مأكلك ومشربك.. وملبسك ومسكنك، وأن تكون طاهر القلب نظيف اليديّن، فتحفظ الرأس وما وعىٰ والبطن وما حوى..

وأن تزهد فيما عند الناس ليحبك الناس، وأن ترغب فيما عند ربك ليحبك ربك، فإن زلت بك القدم بعدما جاءك من البينات والهُدى، فاعلم أنك قد وضعت قدميّك على مدرجة الخطر وأنك قد سرت في طريقٍ أوله لك وآخره عليك.. ولن يزيدك السّيرُ فيه إلا ظلاماً، لأنها سُبلٌ متشعبة مُظلمة لا تزيد من يسلكها إلا انحرافاً عن طريق الهُدى والنور...

۞ وصدق الله حيث قال في محكم التنزيل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

۞ وروى عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «**خط لنا رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً خطاً ثم قال هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره، ثم قال هذه سُبلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها**» رواه الدارمي في مسنده بإسناد صحيح(١).

---

(١) الدارمي في المقدمة: ٢٠٢، حم٢/٤١٤٢، ٤٤٣٧، ابن ماجه/١١ في المقدمة.

❁ قال القُرطُبيُ في جامعه: وهذه السُّبُل تعمُ اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمّق في الجدل والخوض في الكلام. هذه كلها عُرضةٌ للزلل، ومظنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية [ج٤/ حـ٨/١٢٥، تفسير آية ١٥٣ /الأنعام].

❁ وذكر الطبري في كتاب آداب النفوس: أن رجلاً قال لابن مسعودٍ: ما الصراط المستقيم؟

قال: تركنا محمد - ﷺ - في أدناه وطرفُه في الجنة، وعن يمينه جَوَادّ (الطرق) وعن يساره جَوَادّ، وثمّ رجال يدعون مَنْ مر بهم فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهت به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا...﴾ الآية.

❁ وقال عبدالله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع، وعليكم بالعتيق. [أخرجه الدارمي في المقدمة /١٤٣].

فالهَرَب الهرب، والنجاة النجاة! والتمسُّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح.

قال سهل بن عبدالله التستري: عليكم بالاقتداء بالأثر والسُنة فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبيّ - ﷺ - والاقتداء به في جميع أحواله ذمّوهُ ونفروا عنه وتبرئوا منه وأذلّوه وأهانوه[١].

والآن انظر أخي المسلم وأختي المسلمة أي طريقٍ تختار!!!

ألم أقل لك إن الله قد وضع مفتاح سعادتك بيدك وما عليك، إلا أن تشمر عن ساعد الجد وتسلك هذا الطريق الذي عرفت أخباره وأدركت أسرارهُ فتقطع هذا السبيل مرحلة إثر مرحلة، فإن السالك إلى الله عزَّ وجلَّ

---

(١) القرطبي ج٤ حـ٨/١٢٥ - ١٢٧، تفسير سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

لا يعرف الملل ولا يدركه الكلل. لأنه منعطفٌ إلى ربه بقلبه فهو يسعى إلى ربه سبحانه وتعالى مهما أدركه الإعياء أو حَلَّ به التعب، فإن لذة السير إلى مولاه تُنسيه الشدائد في سبيل الرحيل إليه وتمنحه الشجاعة في طلب رضاه!!!

۞ ولذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الفوائد/٥٣: «اللذة تابعة للمحبة تقوى بقوتها وتضعُف بضعفها.. فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم.. والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به: فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم.

وكل لذةٍ ونعيم وسرور وبهجةٍ بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر، فكيف يؤثر من له عقلٌ لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد»!!!

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على طاعته وحسن عبادته، وأن يأخذ بنواصينا إلى طريقه المستقيم دائماً، وأن يعزنا بطاعته وحسن التوكل عليه سبحانه وتعالى في جميع أمورنا، وأن يرزقنا جمال الرضى بقضائه وقدره وصدق الإخلاص في القول والعمل مع حسن الاتباع لسنة نبينا محمد ﷺ.... وصحبه وآله الطيبين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبته

أم عبدالله عاطف





الدافع للموضوع

إن الدافع الحقيقي لكتابتي في هذا الموضوع هو توضيح قيمة لباس التقوى. ذلك اللباسُ الذي يغفل عنه الكثير من المسلمين بكل أسفٍ وهو في الحقيقة أهم من لباس الظاهر، بل إنه الأساس له، ولا تتم فائدة لباس الظاهر إلا به...

فالتي لا تعرف قيمة لباس التقوى ولم تُهذَبْ داخلياً بالتحلي بالعقيدة الإسلامية الصحيحة سيظل لباسُ الظاهر لا قيمة له، بل إن تعري الباطن سيظل يلاحقُها ويناقض ظاهرها وقولها وفعلها وسلوكها...

قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

كما أنه يستحيلُ وجود عارية تخلت عن لباس المسلمات، وهي تدَّعي أنها تتحلى بالعقيدة في داخلها، فباطن الإنسان ينبىءُ عن ظاهره وليس العكس في كثير من الأحيان.

لذا عزمت عزماً جاداً على إخراج كتاب يهتم بتوضيح معنى لباس الباطن، وارتباطه بالظاهر مع معالجة بعض القضايا التي تغفل عنها الكثيرات جهلاً أو عناداً وتكبراً، وذلك لما رأيته من سلوكٍ غير إسلامية من بعض المنتسبات للإسلام أو من بعض اللاتي فرض عليهن نوع التعليم أو العمل أن ترتدي جلباباً ومنديلاً أو حتى خماراً...

أو ممن حظيت بزوج متديّنٍ فأخذ بيدها من العُري الظاهري والباطني إلى ستر الظاهر فحسب وظل الباطن خرباً.

ولا شك أن هذه وتلك أساءت للإسلام وللعفيفات الطاهرات المختمرات عن عقيدة وامتثالٍ لأمر الله عزَّ وجلَّ ورسوله - ﷺ - اللاتي اقتدين بأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أجمعين.

فقمت بعون الله بقراءة الكتب التي تناولت هذه المواضيع - ولا شك أنني استفدتُ كثيراً جداً من هذا العمل - فالشغل بالعلم النافع دأب الكرام - أسأل الله أن يلحقني بركبهم...

فجمعت ما وفقني الله إليه وأضفت ما أكرمني سبحانه به، وحاولت جاهدة تقوية ما أستدل عليه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين وأهل العلم. مما ينفع المسلمين في ذلك.. أبتغي وجه الله ورضاه والنصح لكل مسلم: أباً كان أو زوجاً يريد تأسيس حياته على تقوى من الله.. أو شاباً ما زال يبحث عن العفاف والسعادة والطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

كما أقدمها نصيحة خالصة لكل مسلمة تبغي السعادة وتنشد الاستقرار. سواءاً كانت أماً أو زوجة ما زالت في بداية الحياة.. أو فتاة تبتغي نور الهُدى وسبيل الرشاد... والله أسأل أن يجعلنا من أهل هذه الآية: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

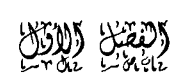
هذا ولقد لمست توفيق الله لي في معالجة بعض الأخطاء التي يقع فيها إخواني وأخواتي المسلمات، إما بسبب الجهل بحكم الشرع فيها أو لسوء فهم الحكمة المقصودة منها.

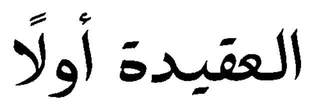
ساعدني في ذلك إقامتي مع زوجي في أكثر من سبع دولٍ عربية مسلمة وكل بلد له عاداته وتقاليده.. فأكسبتني الحياة بها خبرات كثيرة عن أحوال الناس هنا وهناك، كما رأيت عن قربٍ بعض هذه العادات والسلوكيات الخاطئة فقمت بتقديم العلاج عبر صفحات كتابي هذا، فإن أحسنت فمن الله تعالى وحده.. وإن فرطت وقصرت فمن نفسي والشيطان - أعوذ بالله تعالى منه .

وأسأل الله أن لا يحرمني الأجر وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل مع صدق النية.. إنه وليُ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على محمدٍ وعلى آله وصحبه والتابعين.







لباس التقوى

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].





المبحث الأول
للكون إله لا إله سواه

إن آيات وجود الله سبحانه ماثلة في كل ما يحيط بمختلف حواسنا، نشرها الله في الناس ليقرؤها فيعبدوه فيوحدوه فيفروا إليه...

يقول ابن القيم في مدارج السالكين ج٣/٣٥٦ ـ ٣٥٧:

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جلَّ جلاله ونعوته وأسمائه. فهي كلها تشير إلى الأسماء الحُسنى وحقائقها. وتنادي عليها، وتدل عليها، وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطلُ
تشيرُ بإثبات الصفات لربها ... فصامتُها يَهْدِي، ومن هو قائل

فلست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه. وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فما تدل عقلاً وحساً، وفطرةً ونظراً، واعتباراً.

لقد دعا الله سبحانه وتعالى عباده إلى الفكر فيه وفي مخلوقاته، ليكون ذلك الفكر دليلاً لهدايتهم وراحتهم...

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فيفكرون في الآيات التي بيّنها لهم، فيستدلون بها على توحيده، وصفات كماله، وصدق رسُله، والعلم بلقائه، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها، واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها...

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

فالفكر الصحيح، المؤيد بحياة القلوب، ونور البصيرة: يدل على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وأما الفكرُ المصحوبُ بموت القلوب وعمى البصيرة: فإنما يعطى صاحبه نفيُها وتعطيلها.

ويقول في كتابه التبيان:

.. وعُد بنا نتأمل الأرض من بسطها ودحاها؟ وأخرج ماءها ومرعاها وألقى عليها الرواسي الشامخات حتى لا تميل بأهلها؟ من جعلها قطعاً متلاصقة وجناتٍ وثمراتٍ تُسقى بماء واحد وتفضل بَعضها على بعضٍ في الأُكل؟

من أبدع فيها الجمال السافر، والمشهد الساحر، والانسجام الرائع والكمال الباهر؟

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لجينٍ شاخصات بأبصار هي الذهبُ السبيكُ
على قُضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريكُ

.. تأمل السماء... من رفعها سقفاً محفوظاً بلا عمدٍ ترونها؟؟ من خلقها مبرأة من كل خلل تتشامخ في ثباتٍ واستقرار مُزينةً بملايين نجومها؟ من جعل شمسها ضياءاً وقمرها نوراً؟ وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنيّن والحساب؟؟

۞ تأمل الإنسان مم خُلق؟ أليس ملخوقاً من قطرة ماء؟؟ من كونها لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة مشدودة بالعروق والأعصاب؟

مُجْمعةً بجلدٍ متّين مشتملٍ على ثلاثمائة وستين مفصلاً؟؟

۞ من جعل فيه تسعة أبوابٍ: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وبابٌ للكلام والطعام والشراب والنفس، وبابان لخروج الفضلات التي تؤذيه احتباسها.

۞ من جعل داخل باب السمع مُراً قاتلاً لئلا تلج فيه دابة تتصل بالدماغ فتؤذيه!!

وجعل داخل بابي البصر مالحاً، لئلا تذيب الحرارة الدائمة الشحم الذي فيه!! وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليستسيغ الطعام والشراب الذي يدخل فيّه!!

۞ ومن جعل له مصباحين من نورٍ كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه وفي أشرف عضو طليعةً له، وركب هذا النور في جزء صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة، ثم أظهر فيها صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال، والعالم العلوي والسُفْلي مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره.

فيا لك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مُريدُ الحق، كُنَّ هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصمت تجيب المناديا[1]

---

(١) التبيان في أقسام القرآن/٣٠٢ ـ ٣٠٥ بتصرف.

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فالله خالق كل شيء وموجد كل شيء من العدم، وهو مليك كل شيء لا إلٰه إلا هو سبحانه وتعالى.

وإنها الحقيقة التي أقر بها العُقلاء في كل أنحاء الوجود، كما أقربها المشركون من قبل، وأما المنكرون فشأنهم شأن من ينكر ضوء الشمس في وضح النهار، ما إنكارهم هذا إلا لمرضٍ فيهم عطل إعمال الفكر السليم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

ويذكر الدكتور كمال محمد عيسى في كتابه العقيدة الإسلامية[(١)]: أقوال بعض علماء الطبيعة فمثلاً:

يقول الدكتور واين أولت «عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية»: «إن ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إلٰه مُنظِمْ وليس على وجود مصادفة عمياء»[(٢)].

ويقول د.جون أدولف بوهار: «إن الإنسان يشاهد التنظيم والإبداع حيثما ولى وجهه في نواحي هذا الكون»[(٣)].

ولقد أسند القرآن الكريم لله جميع الحوادث الطبيعية المتولدة من أسبابها الكونية من باب إسناد الشيء إلى فاعله الأول بهدف التذكير بالله، وأنه خالق الكون وحده بسمائه وأرضه وجميع ما فيهما وما بينهما...

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢].

---

(١) العقيدة الإسلامية ص١١٩، ١٢٠.

(٢) كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» د.الدمرداش عبدالمجيد سرحان، ص١٣٢.

(٣) انظر: كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ص١٠١.

وفي القرآن الكريم (١٥٠) آية تتكلم عن الفقه الإسلامي، بينما يوجد (٧٥٠) آية تتكلم عن العلوم الكونية الدالة على قدرة الله ووحدانيته والإيمان بالمغيبات.. فلا حُجّة بعد للمنكرين المحلدين، وليس لهم أن يتساءلوا عن السبب لوجود المدبر وراء الطبيعة. فالمدبرُ هو مُسَبب الأسباب وما كان وجوده هو الأصل فلا يسأل عن سببه..

والسؤال عن سببه كالسؤال من خلق الله؟

وذلك محض الغرور والجهل وتطلع إلى معرفة كُنه الله، ومعرفة ذاته عزَّ وجلَّ وبذلك يقع الإنسان في متاهات الضلال والزيغ لأن العقول والطاقات محدودة، وإذا عجز الإنسان عن معرفة روحه التي يحيا بها بين جنبيه فكيف له بالتطلع إلى ذات خالقه العلي القدير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير...

أين منك الروح في جوهرها	هل تراها.. فترى كيف تزول
هذه الأنفاس هل تحصرُها	لا.. ولا تدري متى منك تزول
أين منك العقل والفهم إذا	غلب النوم فقل لي يا جهول

ولهذا فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك...

۞ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق اللَّهُ الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله**» [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ج١/٥١٣، رقم ٢١٢، باب: ٦٠].

وفي رواية أخرى عن أيضاً: «**فليستعذ بالله ولينته**» [ح١/٥١٤، رقم/٢١٤].

۞ وكان الصحابة رضوان الله عليهم يستعظمون ذلك لما وقر في قلوبهم من الإيمان وتعظيم الله سبحانه في قلوبهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ من أصحاب النبيّ - ﷺ - فسألوه إنا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به... قال: **«وقد وجدتموه»**!!! قالوا: نعم. قال: **«ذاك صريح الإيمان»** [م١/٢٠٩، ص٥١٢].

۞ قال الإمام النووي في شرح الحديث: أي استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان. فإن استعظامكم هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك. (انتهى).

وليس هذا حجراً على حُرية الفكر ولا تضيقاً على العقل، ولكن عصمةً له من التبدد والضياع، ولهذا كان التوجيه السليم إلى مجالات التفكير الإنساني المثمر.

فقيل تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا، وليسمع الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

۞ يقول د. سيسل هامان «عالم بيولوجي أمريكي»: إنني أؤمن بالله رب هذا الكون وربي. إن وجود الله في حياتي اليومية حقيقة لا مراء فيها.. حقيقة أقوى من الحقائق العلمية التي لا يتسرب إليها الشك، فأينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم رأيت الأدلة على التصميم والإبداع على القانون والنظام على وجود الخالق الأعلى، فليس مما لا يقبله العقل أن يكون هناك نظام وقوانين دون أن يكون وراءها مدبر أعلى ومبدع، وكلما وصل العالِمُ إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادي قائلاً: إن الله هو خالق كل شيء وليس الإنسان إلا مكتشفاً[1]!!!

وهكذا نرى أن العقيدة الصحيحة هي وحدها التي تحقق للإنسان السعادة والطمأنينة، لأنها تأخذ بناصيته دائماً إلى جادة الطريق المستقيم،

---

(١) «الله يتجلى في عصر العلم» ترجمة د. الدمرداش عبدالحميد سرحان ص١٤١ - ١٤٣.

وتلزمه السير فيه مرحلة بعد مرحلة وهو قرير العين مغتبط النفس، ولما لا وهو يسير إلى الجنة ولقاء الله. . .

وسيمضي عمالقة العلم قُدماً إلى قمم العلم وشواهقه يبدعون في كل يوم جديداً في وحدة وتماسك مع خواص الكون وقوانينه، ويكشف الله لهم من عجائبه في آياته المتعددة مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

فمن كرَّم الإنسان هذا التكريم؟؟

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد سبق التكريم لهم في شخص أبيهم آدم، حيث أُسجد له الملائكة المطهرون ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

فأي تكريم أفضل للإنسان من هيئة السويّة، واستعداداته الفطرية وتسخير للقوى الكونية. . وفوق ذلك كله تفضيل الله له على كثير من خلقه، بل وإعلان هذا التكريم وثيقة تعلنُ على سمعه الخالد كما سبق في الآيتين الكريمتين. . .

لذا فقد هُدى إلى صراطه من عَبدَهُ بحق ووالاه، وقد ضل من اتخذ معبوداً سواه. .

ويأمر الله تعالى نبيّه - ﷺ - أن يعلن بين الناس في استفهام إنكاري ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وهذا إبراهيم الخليل - ﷺ - يعلنها عَداوة لمعبودات قومه ويعلن

خضوعه لله رب العالمين فيقول عزَّ مِنْ قائلٍ عليماً في ذلك:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧].

ثم يستمر الخليل عليه السلام في إعلان التوحيد بذكر صفاته تعالى مقراً بتصرفه في شؤون البشر في أدقها من خلقٍ وهداية، وإطعامٍ وسقاية، ومرض وشفاء، وموت وحياة وعفو وغفران...

قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢].

فهلا انتهى الغافلون وانتهوا عن زيغهم عن الحق فالتزموا طريقه قبل فوات الأوان!! كي يسعدوا ويهنؤوا بعيشهم في الدنيا والآخرة..

وهلا استجابوا لداعي الفطرة السليمة التي غرسها الله في كل نسمة مُنذ خرجت للحياة، فإنها تعرف أن للكون إلٰه مدبر حكيم...

۞ فها هو الطفل الصغير إذا أهديت إليه شيئاً ما يحبهُ.. ماذا عساه أن يفعل؟ إنه على الفور ينظر إلى السماء قائلاً: الله.. الله.. إنه لجميل إذن هي الفطرة التي بداخل كل إنسان تشهد بوجود الله، بل وتشهد بأن الفضل والنعمة منه وله وحده.. تلك الفطرة التي لا يفسدها سوى الوسط الفاسد والاتجاه الباطل.

۞ روى الإمام أحمد في مسنده ج٣/٤٣٥:

قال ﷺ: **«كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها»**.

۞ وروى البيهقي في سُننه والترمذي وأحمد وغيرهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبيّ ـ ﷺ ـ بجارية سوداء أعجمية. فقال: يا رسول الله إن عليّ عتقَ رقبة مؤمنة. فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين الله؟**».

فأشارت إلى السماء بأصبعها السبابة.. فقال لها من أنا؟

فأشارت بأصبعها إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء.. أي: أنت رسول الله. فقال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**» [رواه البيهقي في السنن ح٧/٣٨٨، م٢/٢٩٠].

ومن الحديثين نجد أن من اعتقد اعتقاد أهل السُنة والسلف الصالح والأئمة من أهل العلم أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه.. فقد أصاب السُنة ولزم سبيل المؤمنين، ومن كذب بذلك ولم يعتقده كان مكذباً للرسول ﷺ متبعاً غير سبيل المؤمنين.

ويكون في الحقيقة معطلاً لصفات الرب سبحانه نافياً له، فلا يكون بذلك له إله يعبده ولا رب يسأله ويقصده.

وهذا قول الجهمية[١] والمعطلة[٢] ـ لعنهم الله تعالى ـ ولقد فطر الله العباد ـ عربَهم وعجمهم ـ على أنهم إذا دعوا الله توجهت قلوبهم إلى العُلو، ولا يقصدونه تحت أرجلهم.. حاشا لله..

وقد ثبت ذلك بالآيات في عدة مواطن من كتابه العزيز ومنها:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠].

۞ قال أحدُ الصالحين: ما قال عارفٌ قطُ: يا الله... إلا وجد في قلبه ـ قبل أن يتحرك لسانُه ـ معناً يطلبُ العلو، لا يلتفت يَمنةً ولا يسرة...

---

(١) (٢) الجهمية والمعطلة: فرقتان ضالتان عن الحق.

تنبيه: لقد وقع أهل الكلام وبعض الفرق في تفسير «الاستواء» بأنه الاستيلاء «معاذ الله» وهذا شطط وخطأ ظاهر، لأنهم نسبوا بذلك لله شريكاً وعطلوا صفة علوه سبحانه على خلقه علواً حقيقاً يليق به تعالى.

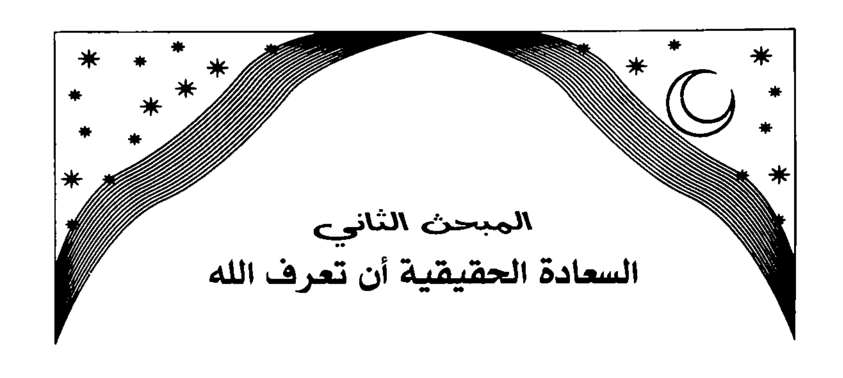
جاء في ترجمة الإمام اللغوي ابن الأعرابي: أن رجلاً قال أمامهُ مُفسراً الاستواء معناه: استولى.

فقال له الإمام: أُسْكت، العرب لا تقول للرجل: «استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد، فأيهما غلب قيل: استولى، والله تعالى لا مضاد له» وسنده عنه صحيح.

فنسأل المتأول: من هو المضاد لله تعالى حتى تمكن[1] الله تعالى من التغلب عليه والاستيلاء على ملكه منهُ؟!



(١) مختصر العلو، للحافظ شمس الدين الذهبي ص٣١.



إن معرفة الله تعالى هي حياة القلوب ومادة صفائها وسبيل سلامتها من جميع العللِ التي قد تعتريها، لذا يجب علينا معشر المكلفين أن نعرف الله تعالى معرفة سليمةً من أي خللٍ حتى نسعد ونهنأ بطاعته وتذوق حلاوتها.

قال ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلامِ ديناً وبمحمدٍ رسولاً»** [صحيح مسلم حديث رقم ٤٩].

ومعرفة الله تعالى تستلزم منا الإيمان به وبوجوده وبوحدانيته في ربوبيته، وأنه رب كل شيء وخالقه ومالك أمره، وكذا الإيمان بتفرده عزَّ وجلَّ بالألوهية وأنه المتفرد بالعبادة وحده، كما تستلزم منا الإيمان بجميع أسمائه وصفاته سبحانه، وكذا الإيمان بما أخبر به في كتابه، وصح عن رسوله الصادق الأمين ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة رضوان الله عليهم أجمعين.

۞ لقد كان السلف الصالح يؤمنون بما جاء من الله في كتاب الله، ويؤمنون بما وصف الله به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ ـ المبلغ عن ربه ـ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فأراحوا أنفسهم واستراحوا من العنت والشطط!!

فكانوا يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا

يلحدون في أسمائه وآياته بل يمرونها كما جاءت، لأنه سبحانه لا سميَّ له ولا كفؤ ولا ندَ له ولا يقاس بخلقه عزَّ شأنه، فإنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً. . .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السُنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

١ ـ فيجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً لا يخالطه أدنى شك أن الله واحدٌ أحد، فرد صمد، لم يلدْ ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

كما جاء في سورة الإخلاص وسميت الإخلاص لأنها أخلصت في صفات الله، ولأنها تخلص قارئها من الشرك وهي تعدل ثلث للقرآن، كما أخبر ﷺ والسورة مع وجازتها جمعت التوحيد كله ومعناها:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: أي الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل ولا شريك[1].

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: أي السيّد الذي كمل في سؤدده وشرفه وعظمته وفي جميع صفات الكمال، والذي تَصْمُدُ إليه الخلائق وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾: ليس له ولد ولا والد وفيه رَدٌّ على النصارى واليهود ومشركي العرب.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: أي ليس له مكافىء ولا مماثل ولا نظير.

٢ ـ إنه سبحانه الحيُ القيوم القائم على كل نفس ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا شريك له[2].

---

(١) اثبات وحدانيته عز وجل في ذاته وصفاته واسمائه وأفعاله.

(٢) الحي القيوم، العلي العظيم، إثبات الحياة التامة والعلو والمطلق والقيومية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله في آل عمران: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾.

٣ ـ أنه تبارك وتعالى العلي العظيم الأول والآخر والظاهر والباطن جمعاً بين علوِّه وقُربه وأزليته وأبديته (١).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «**..أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن، فليس دونك شيء اقض عنا الديْن واغننا من الفقر**» [رواه مسلم ٣٩/١٧، رقم ٦١ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان: ٥٨].

٤ ـ أنه تعالى أحاط علمه بجميع مخلوقاته لأنه خالقهم وخالق كل شيء ولا يخفى عليه منهم شيء.

❁ قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: ٢].

❁ وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) الأول والأخر والظاهر والباطن.

(٢) أنه تعالى عليم خبير أحاط بكل شيء وهو القدير الفعال لما يرد (العلم والقدرة والقوة والمشيئة والإرادة التامة).

۞ وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

٥ ـ أنه سبحانه هو السميع البصير الذي ليس كمثله شيء(١).

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾(٢)

٦ ـ ومن معرفته تعالى إثبات المشيئة والإرادة التامة والقوة كما يليق بذاته سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقوله عزَّ شأنه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

٧ ـ الإيمان والتصديق بأنه تعالى يحب أولياءه ويوادهم محبةً ومودةً تليق بجلاله وعظمته.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

(٢) قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)﴾ [البروج: ١٤].

۞ ومعنى الودود: من الود وهو خالص الحب: فهو سبحانه ودود يحب أهل طاعته، ويحب عبده المؤمن فيهديه للتوبة والمغفرة ثم يُحبه بعد ذلك أيضاً. وبالفوز من أحبه الله وقربه.

٨ ـ أنه عزَّ وجلَّ موصوفٌ بالرحمة والمغفرة ولا يستطيع أحدٌ مهما كان أن يحجب رحمة الله عن عباده، وهي عامة للجميع خاصة للمؤمنين.

لأنه تعالى يرزق الكافر مع كُفره ويستر العاص ويرزق جميع الخلائق رحمة منه وتكرماً وفضلاً، وخص المؤمنين برحمة خاصة ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

۞ قال ابن القيم: الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم كما قال ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

٩ ـ الإيمان والتصديق بأن الله معنا ولا يخفى عليه شيء من أحوالنا ولا يتنافى ذلك مع تمام علوه فوق عرشه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا يولد المراقبة في قلب العبد فينزجر عن المعصية ويستحي من الله تعالى. ولما انعدم ذلك أو ضعف نجد الجُرأة في اقتراف المعاصي والعياذ بالله.

وفي الحديث المتفق عليه: قوله ﷺ: «إن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله قبل وجهه فلا يبصقن قبل وجهه ولا عن يمينه وليبزقن عن يساره تحت رجله اليسرى......» [سنن أبي داود: ٤١٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

وقوله لنبيه موسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

١٠ ـ الإيمان والتصديق بأن لله تعالى وجهاً وعينين ويدين كل ذلك يليق بجلاله دون تكييف أو تشبيه أو تمثيل.

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣، ١٤].

وقوله عزَّ شأنه: ﴿... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ .. أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١٠].

١١ ـ ومن مقتضى معرفة الله الإيمان بأن القرآن كلامه وأنه تعالى كلم الأنبياء ولا يزال متكلماً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

فلا يزال سُبحانه وتعالى متكلماً وكلامه ليس ككلام البشر، بل كلام يليق بجلاله وعلو ذاته سبحانه، ولا يستطيع الأنس والجن الإيتاء بمثله ولا بأقل من آية منه، لأن كلام الله صفة من صفاته تعالى لا يشبهه فيها أحد أبداً.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧].

ونؤمن أن القرآن نزل من عند الله تعالى وأن الله حفظهُ من التبديل والتغيير والتحريف بخلاف التوراة والإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١١٤].

١١ - ومن معرفته سبحانه أن نؤمن بأنه على العرش استوى فنثبت استواءه وعلوه على جميع مخلوقاته.

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

وردت في سورة الأعراف، ويونس، والرعد، وطه، والفرقان، والسجدة، والحديد، أي في سبعة مواضع في كتاب الله، وكلها تثبت استواءه سبحانه على عرشه على ما يليق بجلاله وعلوه، وقد ثبت في الصحيحين أن العرش كان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وتكلف غير هذا شطط وضلال، بل نؤمن بما جاء عن الله على مُراد الله، وبما جاءت به السُنة المطهرة فسبحان الأول والآخر والظاهر والباطن العلي القدير.

١٢ ـ ومما يجب الإيمان به وإثباته، رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة كما جاء في القرآن والسُنة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وفي الحديث قوله ﷺ عن جرير بن عبدالله قال: كنا عن النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلةً يعني البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [صحيح البخاري: ٥٢١].

والصلاتان المشار إليهما في هذا الحديث هي صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما أثقل الصلوات على المنافقين فحافظوا عليها لا تحرموا أفضل العطاء، وهو لذة النظر إلى وجه الله تعالى.

١٣ ـ هذا ونؤمن أنه تعالى عفوٌ غفورٌ تواب ذو الرحمة التامة والعزة الكاملة.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى (عن نفسه): ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أخواتي وإخواني: إن رحمة الله واسعة وهو التواب الغفور يحب توبة عبده ويقبله إذا صدق في عودته وأوبته، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعاً فلا يسول لكم الشيطان أن لا توبة مع كثرة الذنوب، بل إن الله يفرح بتوبة عبده، والتوبة تجبُّ ما قبلها أي تمحو ما قبلها، وكذا الحج فإنه يمحو ما كان قبله، والإسلام يَجُبُّ ما قبله فمن ذا الذي يحول بينكم وبين التوبة ألا ترون أنه تعالى يرزق الكافر، وقد نسبوا لله الولد والصاحبة، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، ونسبوا لله الفقر، فلعنة الله على الظالمين.

ولو شاء الله لعاجلهم بالعقوبة والعذاب، لكنه رحمن رحيم حليم صبور عفو كريم، فاعبدوا الله بتحقيق أسمائه الحُسنى وصفاته العُلا تسعدوا.

قال ابن القيم رحمه الله:

وهو الصبورُ على أذى أعدائه ... شَتَمُوْهُ بل نسبُوهُ للبُهتانِ
قالوا له ولدٌ وليس يُعيدُنا ... شتماً وتكذيباً من الإنسانِ
هذا وذاك بعلمه وبسمْعِه ... لو شاء عاجَلَهُمْ بكل هوانِ
لكن يعافيهم ويرزُقهم وهم ... يُؤذُونَه بالشرك والكُفرانِ

هذا ونعلم أن لله سبحانهُ صفاتٍ غير هذه الصفات كالجلال والجمال والطيب والعزة والعظمة والكبرياء والقوة «وهي غير القُدرة، والوجه والنفس والعينين واليدين والقدم والمحبة والرضا والفرح والضحك والغضب والكراهة والعجب، وما إلى ذلك مما يليق بذاته القُدسية وعظمته وكبريائه والله تعالى أعلم.





المستحيل في حق الله تبارك وتعالى

يستحيل في حقه سبحانه وتعالى بالأدلة التفصيلية السابقة عِدةُ أمورٍ مقابلة للصفات الواجبة له تعالى وهي:

١ ـ يستحيل في حقه عزَّ وجلَّ الفناء والحدوث، ومماثلته تعالى للحوادث في الذات والصفات أو الأفعال.

٢ ـ يستحيل العدم ويستحيل في حقه أن يحتاج إلى موجد أو مُعين، ولا ولد ولا صاحبة.

٣ ـ كما يستحيل الموت والتعدد في الذات والصفات والأفعال، كأن يكون لغيره تأثير في شيء من الأشياء بطبعه أو بقوة مودعة فيه: فمثلاً «ليست النار مُحْرقةٌ بطبعها ولا بقوة خُلقت فيها» ولكنها تعمل مأمورة، تعمل بأمره سبحانه، وقد ظهر ذلك فيّما حدث مع إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكذلك الدواء ليس شافياً بذاته ولا بحذاقة الطبيب، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يأمره بذلك وهكذا.

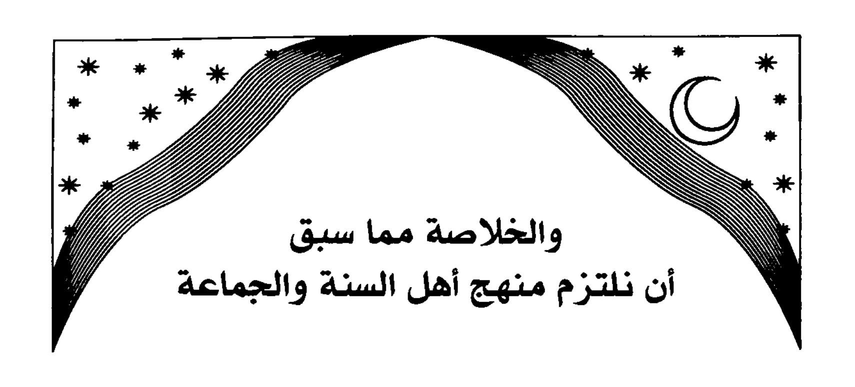
ويستحيل تعدد الصفات التي من جنس واحد كقُدرتين وعلميّن، أو أن يكون لأحدٍ صفة مثله عزَّ وجلَّ لأنه تعالى لا سميَّ له ولا ند ولا شريك، وذلك لقوله في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ

وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ. . .﴾ الآية.

٤ ـ كما يستحيل في حقه عزَّ وجلَّ الجهل بأي شيء أو ما يندرج تحت معناه من الظن والشك والوهم والغفلة والذهول والنسيان والظلم...

٥ ـ كما يستحيل أيضاً في حقه أي صفة من فات النقص كالعجز والكسل والصمم والعمى وما في معناها.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ونعوذ بالله ـ من جُرأة اليهود وأهل الكفر ومن سار على دربهم ـ من أن نقول على الله بغير علم، ونسأله الهُدى والثبات حتى الممات على التوحيد الخالص وهو راضٍ عنا.. آمين.





۞ وأن نعتقد في حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه فهو متفضل بالخلق والإيجاد والتكليف والإنعام والإحسان لا عن وجوب ولا إيجاب.

فإنه تعالى لا يجب عليه شيء مما ذكر، لأنه لا شيء قبله ولا شيء بعده وليس هناك أحد أعلى منه، فهو مالك الملك المتصرف فيه بتمام حكمته وقدرته، وهو الخالق للطاعة والمعصية والسعادة والعافية والشقاء والأمراض والفقر والغنى وما إلى ذلك إحساناً منه وعدلاً.

قال تعالى عن نفسه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

۞ ومن الجائز رؤيته سبحانه بالأبصار وذلك في جنة النعيم للأبرار وفي الموقف يوم الحشر للمؤمنين، وله تعالى أن يحجب هذه الرؤية عمن يشاء من أهل الموقف نسأل الله العافية والرحمة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

۞ ومن رحمته: إنزال الكُتب وإرسال الرسل مبينين للناس ما نُزل

إليهم. مبشرين أهل الطاعة بالجنة والنعيم، ومنذرين أهل المعصية بالنار والعذاب الأليم. وقد كان هذا كله..

يقول تعالى: في أول الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

لذا يجب على كل مكلفٍ أن يعتقد أن الله تعالى متصف بصفات الجلال والكمال والعدل التي لا تنبغي إلا له سبحانه وتليق بعظمته ووحدانيته الواردة في كتابه العزيز، وفي سنة نبيه ﷺ، وأنه تعالى مُنزهٌ عن كل نقص، وعن مشابهة الحوادث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1]. (انتهى كلام الشيخ السُبكي).

وبعد أن عرفنا ما يجب لله وما يجوز وما يستحيل على ذاته القدسية أحب أن أنبه على بعض الأقوال الشائعة:

١ ـ إذا أنعم الله على إنسانة بنعمة ما، فإننا نسمع بعض الناس ـ الذين لا يحبون الخير لأحد ـ يقولون: «الله يُعْطى الحلق للذي بلا أذان» وهذه مقولة خطأ لأن معناها في تصور هؤلاء أن الله سبحانه يضع الشيء في غير موضعه ـ وهذا مستحيل في حقه تعالى وهو أحكم الحاكمين...

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

٢ ـ إذا ابتلى الله إنساناً ما نراه يتبرم من ذلك قائلاً: «أف يا رب ما وجدت غيري تتشفى فيّ» أو تعمل فيّ كل هذا؟؟

ونعوذ بالله من هذا القول ومن سوء الأدب مع الله الذي نهى عن

---

(١) الدين الخالص ج ص٢٤ ـ ٢٧، للشيخ محمد خطاب السُبكي نقلته بإيجاز وتصرف.

التأفف مع الأبوين فكيف يصدر التأفف منه سبحانه وهو العدل الحكيم الغنى عن العالمين. . .

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

٣ ـ عندما تُخبر إحداهن عن شخصٍ مات وكان صغير السن نجدها تقول: «والله لهو صغير على الموت. . يا حرام!!!» أو «فلان الله افتكره «تذكره»».

وتقول أخرى: «الله يأخذ المليح ويترك العاطل!!».

وحاشا لله أن يكون ظالماً أو ناسياً، ثم يتذكر أو يأخذ المليح ويترك فلان العاطل وكان أولى بالأخذ. . فإن الله لا يضل ولا ينسى وكل شيء عنده بمقدار وهو الغني بذاته عن كل أحد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

وقال سبحانه: ﴿. . . وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

٤ ـ وأُخرى تقول إذا تزوجت أختُها الصغيرة قبلها مثلاً: «والله أنا عاتبة على الله!! كيف تتزوج هذه قبلي!! وهذا القول يدل على عدم الإيمان بالقضاء والقدر. وأن كل شيء عند الله بمقدار وهو العدل الحكيم، سبحانه وتعالى حيث سبقت رحمته غضبه وحلمه عقابه، وإذا أُشْربت النفوس من معين التوحيد الصافي، والعقيدة السليمة، لما ظننتِ بالله إلا خيراً أيتها المسلمة.

٥ ـ تقول بعض النساء: «فلانة ظلمت فلانة. . الله يظلمها في عينيها» ولا أدري كيف تتكلم بهذا الكلام من تدعي الفهم، وهي تصف الله بالظلم

والجور وقد قال عزَّ مِنْ قائلٍ عليماً: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال أيضاً: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧١].

٦ ـ كثير من الناس نسمعهم يقولون: «أنا معتمد على الله وعليك» أو «متوكل على الله وعليك..».

وهذا إن كان يعتقد أن المخلوق يملك الحل والربط أو النفع والضر وقد أشرك مع الله. فهذا يُخشى عليه إن لم يتب، والكثير من الناس يقولون هذا ومثله كثير، وإذا أردت إفهامهم تعبت وسمعت عجباً وشططاً، وبعضهم يستجيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾...﴾ [النساء: ١١٦].

٧ ـ إذا سألت عن إنسانة قالوا: «إنها نائمة تأكل أرزاً مع الملائكة!!!».

والملائكة لا تأكل أرزاً ولا خبزاً ولا غيره حيث خلقهم الله للعبادة والطاعة وامتثال أوامر الله، وقد خلقهم من النور لا يتزوجون وليسوا ذكوراً ولا إناثاً ولا يأكلون وبالتالي لا يتغوطون..

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

٨ ـ بعض الجهلة من الشباب إذا رأى الواحد منهم فتاة متبرجة جميلة ـ في نظره ـ قال: «البنت جميلة بشكل.. ربنا كان متفرغ لها تماماً...» نعوذ بالله من غضبه، وعقابه.

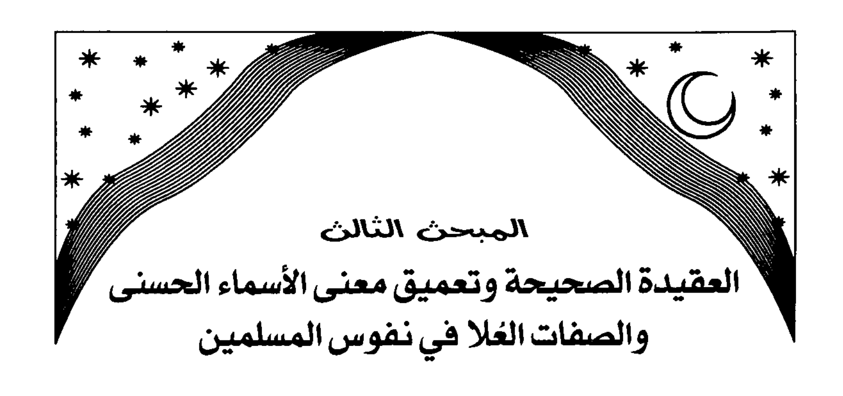
إنه نفس الفهم الكفري عند اليهود ـ لعنهم الله ـ الذين يقولون بمثل هذا... أن الله خلق كذا في كذا ثم استراح!!

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

٩ - كما نسمع بعض الناس يقول عندما يتحقق له أمر يُريدهُ «كَثَّر خير الله»... فمن هذا الذي يكثُر الخير لمن بيده ملكوت السماوات والأرض!؟؟





المبحث الثالث

العقيدة الصحيحة وتعميق معنى الأسماء الحسنى والصفات العُلا في نفوس المسلمين

۞ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

۞ وقال تعالى في أعظم آية في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

۞ وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

۞ وفي سورة الإخلاص مع وجازتها جمعت خلاصة الإيمان وصفاء التوحيد فيقول تعالى مُخبراً عن نفسه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

فالسورة العظيمة تعلن أن الله تعالى واحدٌ أحد.. ذاتهُ واحدة ليس كمثله شيء، بل إنه أعلى وأقدس من كل ذات.

كما أن السورة تُعلن حقيقة توحيد الأسماء والصفات فلا ينبغي لأحد

أن يتسمى بهذه الأسماء ولا يتصف بتلك الصفات إلا الله سبحانه، كما أنها تؤصِّل توحيد الربوبية والألوهية.

❁ فهو سبحانه أحدٌ: مُنزه عن التعدد والتركيب.. أحد في كل شيء.. كما أنه الصمدُ: الغني عن كل ما سواه.. المفتقر إليه كل ما عداه.. والسورة تقرر تنزيهه عزَّ وجلَّ عن الولد كما زعمت النصارى واليهود، لأن الولد يكون من جنس أبيه.. والله لا يجانسه أحد، كما أنه جلَّ وعلا لا يفتقر ولا يحتاج إلى من يُعينه. إذن فلا ند له، ولا شريك معه في ملكه..

كما أن السورة الكريمة في مجملها تقرر الوحدانية لله تعالى فهو الأول بلا ابتداء.. الآخر بلا انتهاء وذلك في قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي وليس شيء يماثله ـ تعالى وتقدس ـ في أي زمان أو مكانٍ حيث أنه الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيءٍ قدير.

فلله در القائل:

هــو أول هــو آخــرٌ هــو ظــاهــرٌ	هــو بــاطــنٌ لــيــس الــعــيــون تــراهُ
حــجــبــتــه أســرار الــجــلال فــدونــه	تــقــف الــظــنــون وتــخــرس الأفــواهُ
صــمــدٌ بــلا كــفء ولا كــيــفــيــة	أبــدا فــمــا الــنــظــراء والأشــبــاهُ
ســبــحــان مــن عــنــت الــوجــوه	لــوجــهــه ولــه ســجــود أوجــه وجــبــاهُ
مــا كــان يُــعْــبَــدُ مــن إلٰــه	غيره والكل تحت القهر وهو إلٰهُ

❁ ولما كان موضوع الإيمان بالأسماء والصفات شديد الصلة بالعقيدة سلباً وإيجاباً، حيث سلامة العقيدة أو فسادها فإننا نجد العلاقة بيْنهُ وبيْن العقيدة علاقة طردية، بمعنى كلما صفت العقيدة صفا الإيمان وخلص من الشوائب الشركية أو الفلسفات الكلامية، وكلما تهلهلت العقيدة وتشتت ضاع الإيمان بأسهل الوسائل الشيطانية..

❁ يقول الشيخ العلامة/ محمد الأمين الشنقيطي: «الله جلَّ وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وهذا حق ثابت لا شك فيه..

إلاَّ أن صفة رب السماوات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين».

فيا إخواني نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تتمسكوا بهذه الكلمات الثلاث:

١ ـ أن تنزهوا ربكم عن مشابهة صفات الخلق.

٢ ـ أن تؤمنوا بما وصف به نفسَهُ أو وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبْنِياً على أساس التنزيه على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٣ ـ وتقطعوا الطمع في إدراك الكيفية لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[١].

❁ وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

قائلاً: أي السيّدُ الذي قد كمل في سؤدده، الشريف الذي قد كَمُلَ في شرفه، العظيم الذي قد كمل في عظمته، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الغني الذي قد كمل في غناه، الجبار الذي قد كمل في جبروته، العليم الذي قد كمل في علمه، الحكيم الذي قد كمل في حكمته... فهو الله الذي قد كمل في كل أنواع الشرف والسؤدد، هذه صفته لا تنبغي إلا له.

❁ كما فسر الصمد بأنه الذي تصْمُد إليه الخليقة كلها، وتقصدهُ في جميع حاجاتها ومهماتها...

وهكذا فإثبات الأحَدِيّة لله تتضمن نفي المشاركة والمماثلة. وإثبات الصمدية لله بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحُسنى والصفات العُلى[٢].

ولهذا الفضل العظيم كانت لهذه السورة مع وجازتها فضل كبير، فقد

---

(١) رسالة للشيخ الشنقيطي رحمه الله «منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات» ص٤، ٢٦.

(٢) العقيدة الإسلامية، د.كمال محمد عيسى ١٦٦ ـ ١٦٨.

ثبت في الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن في الفضل والثواب.

❁ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«أيعجز أحدكم أن يقرأ ثُلُثَ القرآن في ليلة؟**

فشق ذلك عليهم.

وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟

فقال: **«الله الواحد الصمد ثلث القرآن»**[1].

❁ **ومما قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ** فيما يجب في فهم آيات الصفات: قوله: «معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء؛ ويسعُنا من ذلك ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

❁ والآن إخواتي هل أسماء الله تعالى تسعة وتسعون اسماً فقط؟

❁ عن أبي هريرة قال: لله تسعة وتسعون اسماً ـ مائة إلا واحداً ـ لا يحفظُها أحدٌ إلا دخلَ الجنة، وهو وترٌ يحبُ الوتر» [مج١١/٢١٨، رقم ٦٤١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ...﴾ [الأعراف: ١٨٠].

❁ يقول ابن القيّم، وكذا ابن كثير في تفسيره للآية:

إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحدُ بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملكٌ

(١) فقرة من رسالة للشيخ «رسالة التعاليم/ الأصل العاشر».

مُقربٌ، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح:

«**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً**، فقيل: يا رسول ألا نتعلمها، فقال: «**بلى ينبغي لمن يسمعها أن يتعلمها**»».

ويتضح من الحديث أن الأسماء الحُسنى ليست محددة بهذا العدد كما أنها تنقسم إلى:

أ ـ قسم سمى الله به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل في كتابه «أو علمته أحداً من خلقك!!».

ب ـ قسم أنزله في كتابه فتعرف به إلى عباده، وهذا كثيرٌ في القرآن.

جـ ـ قسم أستأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه حتى الملائكة المقربين.

۞ ما رواه مسلم عن عائشة قالت فقدت رسول الله ﷺ لَيْلَةً من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبك وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» [م٤/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، رقم الحديث /٢٢٢].

ونجد ذلك في قول رسول الله ﷺ: «... **لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**...»[1] [م٤/٤٥٠، رقم ٢٢٢].

وفي حديث الشفاعة الطويل: «... **ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر الله له**

---

(١) في رواية الترمذي في حديث الشافعة: «... ثم يَفْتَحُ الله عليّ من محامِدِه وحُسْنِ الثناء عليه شيئاً لم يَفْتَحهُ على أحدٍ قبلي، ثم يقال يا محمد ارفع رأسك...» الحديث رقم ٢٣٥٨، ج٧/١٢١ ـ ١٢٦، باب ما جاء في الشفاعة.

ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فانطلقُ حتى أستأذن على ربي فَيُؤذَنُ لي، فإذا رأيتُ ربي وقعت ساجداً، فيدَعُني ما شاء الله، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يُسْمَع، واشفع تُشفَع، فأرفع رأسي، فأحمدُه بتحميد يُعَلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي ـ مثله ـ ثم أشفعُ، فيحدُ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حَبسَهُ القرآن ووجبَ عليه الخلود» [رواه البخاري في كتاب التفسير ح٨/١٠، رقم ٤٤٧٦].

وهكذا نجد مما سبق أنه يجب علينا معشر المسلمين أن نحقق مدلول هذه الأسماء الحُسنى في أنفسنا ونؤمن بها إيماناً جازماً وأنها حق. فعندما نعلم علم اليقين أن الله رب كل شيءٍ ومليكُه فإننا لا نتوجه إلى سواه أبداً في أي أمرٍ من أمورنا، لأننا نعلم أنه الرزاق والمعطي والوهاب والغني والمانع والحكيم والعدل والشافي والحليم والعليم والقدير... إلخ.

وإذا أيقنا أنه وحده الشافي وليس الطبيب إلا رجلٌ يُجْري الله على يديه الدواء المناسب بإذن الله لجأنا إليه وحدهُ سبحانه وتعلقت قلوبنا به وحده حصل لنا ما نريد، وأثابنا الله على صدق الإيمان والدعاء، وإذا تعلقت قلوبنا بالخالق الرازق فطلبنا منه وحده الرزق والسعة، كان لنا ذلك ولم نذل أنفسنا لمخلوق أو نركع إلا لله، وإذا ألمت بنا فاقة أو نزل بلاء فتوجهنا للقادر وحده على كشف الضر حصل لنا ما نريد وسخر الله لنا من عباده من حيث لانحتسب، وإذا آمنا بأن كل شيء عنده بمقدار وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن عشنا في راحة وطمأنينة وسعادة.. وهكذا مع الأخذ بالأسباب لأن الله خالق الأسباب والمسببات.

أما هؤلاء الذين قَصُر تفكيرهم ونَظرهم، واعتقدوا أن مجرد حفظ هذه الأسماء دون تدبر في معناها، وتحقيق لها في أنفسهم فلا ينفعهم ذلك، إذ كيف يدعون حفظها وسلوكهم يضاد ذلك. فنراهم يقصدون غير الله في أمورهم ويسألون سواه ويخافون سلطان غيره ويعظمون مِنْ خلقه من لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.. ولا يقتصر الأمر

على هذا بل ينذرون لغير الله ويذبحون لغير الله ويسألونهم الشفاء والنجاح والغنى وتيسير الأمور وأنى لهم ذلك.

قال تعالى محذراً من الشرك في الدعاء والتوجه لغيره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

نسأل الله العصمة من الشرك في القول والعمل والقصد والاعتقاد، ونسأله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا في الدنيا والآخرة، وأن يرزقنا سلامة التوحيد والمعتقد مع حسن الاتباع لنبينا ﷺ وصحابته وآله أهل التقوى.

❁ قال الإمام أبو حنيفة: الفقهُ الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم، ولأن يفقه الرجلُ كيف يعبدُ ربه خيرٌ له من أن يجمع العلم الكثير...

قال أبو مُطيع: «الحكم بن عبدالله» قلت: أخبرني عن أفضل الفقه. قال: تعلم الرجل الإيمان، والشرائع والسُنن والحدود واختلاف الأئمة، وذكر مسائل «الإيمان» ثم ذكر مسائل «القدر»[1].

هذا ولنعلم أن الله جلَّ وعلا بعث محمداً بالهُدى ودين الحق: ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه، وسراجاً مُنيراً، فعرفهم بالله الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل إن هذا خلاصةُ الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلٰهية.

فيا من تبغون السعادة إذا أردتم السلامة والأمان فهلموا معنا نُبْحِرُ بسفينة النجاة في بحر العقيدة السليمة الذي أوله شاطىء الاستقامة على طاعة الله وآخره رضوان الله...

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تمية ج٥/٤٧.

۞ ولله در وصية المصطفى ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: «يا غلام.. إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت: فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبهُ الله لك، وإن اجتمعوا على أنْ يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف...» [رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح].

فهذه وصية يجب أن تكتب بماء الذهب وتكون منهجاً للتربية السليمة.. ولعل المربين وأصحاب الحل والعقد يضعونها موضع الاهتمام، فترى ثمرة ذلك جيلاً يستغني بالله عن كل ما سواه ولا يخاف إلا الله، ولا يسأل ولا يرجوا إلا الله العلي العظيم...

فيا أختي ويا أخي في الله:

تورع عن سؤال الخَلْقِ طُراً	وسل رباً كريماً ذاهبات
ودع زهوات دنياك اللواتي	تراها لا محالة ذاهبات





المبحث الرابع

العبادة

۞ تعريفها العام:

۞ يطلق لفظ العبادة على كل عملٍ أو قولٍ يؤديه المسلم قاصداً به وجه الله. «العبادة: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(١).

۞ وقيل: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعلهُ لله عبادةً، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مُشرك مصادمٌ لما بعث الله به رسوله من قوله: «قل الله أعبد مخلصاً له ديني»(٢).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾ [الحج: ٧٧].

وقال عزَّ مِنْ قائلٍ عليماً: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فقدم السعي في طلب الرزق على الجهاد وكله جهاد، لأن السعي

---

(١) فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، ص١٢٩.

(٢) تعريف العبادة، مجموعة الفتاوى ج١٠/١٤٩.

على الأهل عبادة، وتفقد حال الأهل والأولاد ومراقبتهم وتوجيههم نحو الأفضل في التربية عبادة.

وكم هي رحمة الله تعالى بعباده إذ جعل كل أمر يصدُر منهم حتى تكلم العادات اليومية من مأكلٍ وشربٍ وخروجٍ ودخولٍ وسعي في عملٍ مباح، بل وحتى في المناكحة ومداعبة للأطفال... إلخ. مصدراً للثواب متى ابتغى العبد به وجه الله تعالى حيث لم يعد مجرد عادة، بل تحول إلى عبادة يثاب عليها..

۞ وفي السُنة ما يبين ذلك ويوضحه:

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعودُني عام حَجَّة الوداع من وَجَع اشْتَدَّ بي، فقلتُ: إني قد بلغ بي مِنَ الوجعِ، وأنا ذُو مالٍ، ولا يرثُني إلاّ ابنةُ أفأتصدَّقُ بثُلثي مالي؟

قال: لا. فقلت: بالشَّطرِ؟ فقال: لا. ثم قال: الثُّلثُ والثلثُ كبير ـ أو كثير ـ إنك أن تذر ورثتك أغنياءَ خيرُ من أن تُذرهم عالةً يتكفَّفون الناس.

«**إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلا أُجِزت عليها حتى ما تَجعَلُ في فيَ امرأتك**» [بخ١/١٦٥، رقم ٥٦] وفي رواية:

فقلتُ: يا رسول الله، أُخلّف بعدَ أصحابي؟

قال: إنك لن تُخلَّف فتَعملَ عملاً صالحاً إلا ازددت به درجةً ورفعةً...» [رواه البخاري ج٣/١٩٦، رقم ١٢٩٥].

۞ وقد تصدُر من الإنسان المسلم بعض الفعال اليسيرة، إلا أنهُ لا يحرم الأجر عليها إن فعلها بنية خالصة لله.

فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يُصْبِحُ كل يوم على كل سُلامى من ابن آدم صدقة**»، ثم قال: «**إماطتُك الأذى عن الطريق صدقة**

وتسليمك على الناس صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة ونهيُك عن المنكر صدقة ومباضعتُك أهلك صدقة»!!!

قال: قلنا يا رسول الله أيقضي الرجل شهوته وتكون له صدقة!! قال: **«نعم أرأيت لو جعل تلك الشهوة فيمّا حرم الله عليه ألم يكن عليه وزر؟»** قلنا: بلى. قال: **«فإنه إذا جعلها فيما أحل الله عزَّ وجلَّ فهي صدقة»** [رواه الإمام أحمد في مسنده ج٥/١٧٨].

وكذلك تبسمك في وجه أخيك صدقة والكلمة الطيبة صدقة، وجميع أعمال البر والخير صدقة، ورصيد يضاف لك في الرصيد الرباني الذي تصل فيه الأرباح عشرة أضعاف، بل سبعمائة إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء...

ويجمع ذلك كله حديث لرسول الله ﷺ رواه البخاري: **«تبسُمُك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيُك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرُك للرجل الرديء البصر لك صدقة»**.

وهكذا يحول الإسلام العبد المؤمن ربانياً في كل أعماله، قرآنياً في كل تصرفاته وفعاله متى قصد بها وجه مولاه وتجرد عن الأهواء، وأعلن لدار الفناء واللاهثين وراء حُطامها أنْ «إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين».

وحتى إذا زلت قدمه في المعصية ـ وهي ضريبةٌ لازمة ـ لأن الإنسان ما سُميّ إنساناً إلا لكثيرة نسيانه ـ وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ـ فإن الله يفتح له باب الرجاء والتوبة ـ ويبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها!!

فمن تاب من المذنبين وآمن وعمل صالحاً؟ فإن الله يقبلهم ويبدل سيئاتهم حسنات... وينقي صحائف أعمالهم...

❁ يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٤، ١١٥].

❁ المفهوم الخاص للعبادة:

لقد فرض الله على عباده عباداتٍ مخصوصة، قولية وفعلية وبدنيّة ومالية ظاهرة وباطنة مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد في سبيله وحجاب للمرأة...

وحدد هيئات هذه العبادات وأوقاتها ومقاديرها وأماكنها، وما يجب لها حتى تكون تامة مقبولة.

فمتى أداها المسلم بنيّةٍ سليمة وقصدِ لله كانت عبادة مقبولة [بخ١/١٥، رقم ١، بخ١/١٦٤، رقم ٥٤].

قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى.. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتهُ إلى دُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [متفق عليه].

❁ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

ومن هنا يتبين العلاقة الوثيقة بين العمل والنيّة وصدق الإخلاص والتوجه لله في كل كبير وصغيرِ من العمل حتى تكون عبادة يثاب على فعلها..

❁ والعبادة في القرآن تأتي على معنيين هما:

أ ـ معنى الطاعة:

كما يُفهم من قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فكلمة العبادة في الآية تعني الطاعة والانقياد والتبعية للشيطان، والآية الأولى والثانية تقرران حقيقة مهمة حيث تقول في شمول وعموم لبنيّ آدم: خالفوا الشيطان ولا تطيعوه لأنه عدو لكم منذ أعلن العداوة لأبيكم آدم وذريته من بعده، وتوعدهم بالغواية والفقر والفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ...﴾ وسُرعان ما يتبرأ من أتباعه بعد إغراقهم في الضلال ووحل الشهوات فيسخر منهم قائلاً: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هل نسينا استكباره عن السجود لآدام وأنه عدو مُضلّ مبين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

أليس مما يدعوا إلى العجب ويبعث على الحيّرة والدهشة من أمر الإنسان العاقل ـ الذي فضل على سائر المخلوقات ـ أن يطيع عدوه ويوالي من يخدعه ويضله!!

إنه ليس من العقل في شيءٍ أن يتبعوا الشيطان فيما أمرهم وقد أضل خلقاً كثيراً قبلهم وأوردهم الهلاك، ويتركوا عبادة الله ـ خالقهم ورازقهم ومن بيده ملكوت السماوات والأرض ـ وهي الطريق المستقيم الموصلة إلى النجاة والسعادة في جنة النعيم المقيم!!

ألا ينظر أولئك لحالهم من التشتت والضياع في الدنيا والخزي والفضيحة يوم القيامة حيث يأمر بهم فينعزلوا عن المؤمنين، بل وينادي عليهم بأنهم مجرمون...

قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦١].

ويا حسرة على العباد فكم اليوم في الأرض من معبودات وقع في

شراكها كثير من البشر لا تكاد تعرف لهم هوية..

فما أكثر من عبدوا شهواتهم وأهوائهم وانقادوا لها طواعية فوقعوا إثر اللذات الأرضية صرعى بعد أن ذَبُلَ في نفوسهم العنصر الروحي، وخَبتْ في قلوبهم أنوار الإيمان واليقين، وهذه وتلك تقود البشرية إما إلى بهيمية مدمرة تنطلق بغرائزها العارمة وشهواتها الهائجة في صراعاتٍ تعصف بالمجتمع والفرد فتمزقه كل ممزق.

إن الإنسان حينما يتعلق بالأسباب المادية من مالٍ وجاهٍ وشهوة وهوى، وأبالسة شرٍ وإخوان سوءٍ يؤثرها بمشاعر الحب والإجلال ويخُصُها بمشاعر التضرع والدعاء شرقية كانت أو غربية. ويتناسى رب الأسباب والمسببات ومالك الأرض والسماوات، عندئذٍ تتقاذفُه رياح الشرك وتعصف به في وادٍ سحيق، فيستغرق في الأرضيات عبداً لنفسه، ذليلاً لشهواته، سجيناً لهواه، مفتوناً باللذة والمتاع الرخيص، وعندها ينزل عن مستوى الإنسانية إلى أقل من مستوى الحيوانية.

۞ قال تعالى مصوراً لحال هؤلاء: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

۞ ومن الضلال المقيت الذي يهز توحيد الألوهية ويصيب أصحابه بخطر الارتكاس في حظيرة الشرك والضلال ـ اتباع السادة والكُبراء ـ في معصية الله من تحليل وتحريم حسبما تقتضي نفوسهم المريضة..

۞ ومن الضلالات أيضاً قبول تخرصات المنجمين وأباطيل الكهنة والدجالين والعرافين...

۞ وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك قائلاً: «**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهُ بما يقول فقد كفر بما نُزل على محمدٍ ﷺ**» [حم رقم ٩١٧١].

۞ ويا لروعة القرآن وهو يصور موقف هؤلاء جميعاً يوم الحشر هم وشركائهم الذين عبدوهم واتبعوهم بتقديم النذور، أو تلقي الشرائع والحكم

بغير ما أنزل الله. وغير ذلك، وقد تسمّرُوا في مكانهم وتبرأ الشركاء من شركائهم وأيقنوا بالضياع ولم يُغن عنهم كذبهم...

۞ يقول عزَّ وجلَّ مصوراً ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ...﴾ [يونس: ٢٨].

يا له من موقف صعب، كله ذل وحيّرة ونكد!!

إنها ضريبة الإشراك بالله، بسبب التوجه لغير الله بأي لون من ألوان الشرك والغيّ والضلال، لأنه راجع إلى فسادٍ في العقيدة وفساد في التصور، بل وفساد في الحياة كلها.

ولما لا وهو ارتكاسٌ في حمأة الجاهلية وسقوط في متاهات المادية التي حذر منها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، بل وجميع الأنبياء من قبله فهذا هودٌ عليه السلام يعلن التبرأ من شرك قومه... فيقول: «**إني أُشهِدُ الله واشهدوا أني بريء مما تشركون..**».

۞ وهذا إبراهيم عليه السلام يتبرأ من معبودات قومه وأبيه فيقول: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

۞ وهذا سيد الخلق أجمعين عليه الصلاة وأتم التسليم يُعلنُ تبرأه متحدياً قومه فيقول: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ...﴾.

وهكذا لا بد من تنقية العقيدة وصفاء التوجه كي نسعد في الدنيا والآخرة إن شاء الله رب العالمين.

ب ـ المعنى الثاني للعبادة: معنى التأله:

والعبادة بهذا المعنى تشمل أمرين حسبما يدل القرآن الكريم:

الأول: الاعتراف اليقينيّ بأن للكون إلٰهاً واحداً قائماً على كل نفسٍ بما كسبت. فهو يألهُه ويوحده ويفرده بجميع أنواع العبادات والطاعات، فلا يدعو غيره ولا يلجأ في أي أمرٍ من أمور حياته إلى غيره.

الثاني: القيام بما أمر الله به من العبادات من صلاة وصيام وحج ونُسكٍ وزكاة... وما إلى ذلك من الوسائل الموصلة إلى حبه ومرضاته، كما أمر سبحانه وتبعاً لسُنة رسوله ﷺ.

قال تعالى: آمراً نبيّه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦].

أن يخاطب قومه بذلك زجراً لهم ـ حيث استمروا على عبادة غيره سبحانه بعد ظهور كل الدلائل العقلية والنقلية على وحدانية الله، وأنه إلٰه العالم كله الموصوف بصفات الكمال والجلال والعظمة والكبرياء وحده.

ولهذا فإنه يمكننا القول بأن جميع أنواع العبادة تبدأ بالإسلام فالإيمان فالإحسان وهي مراتب الدين، فالدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، والذبح والنذر والائتمار بأمر الله والانتهاء عما نهى عنه والوقوف عند حدوده وعدم تعديها وغير ذلك من صنوف العبادة. لا ينبغي أن يصرف منها شيء لغير الله تعالى ولا يجب التقرب بها إلا للواحد الأحد سبحانه وتعالى.

وهكذا نجد أن العبد لا ينفك عن مراقبة ربه لحظة وإلا هلك مع الهالكين.

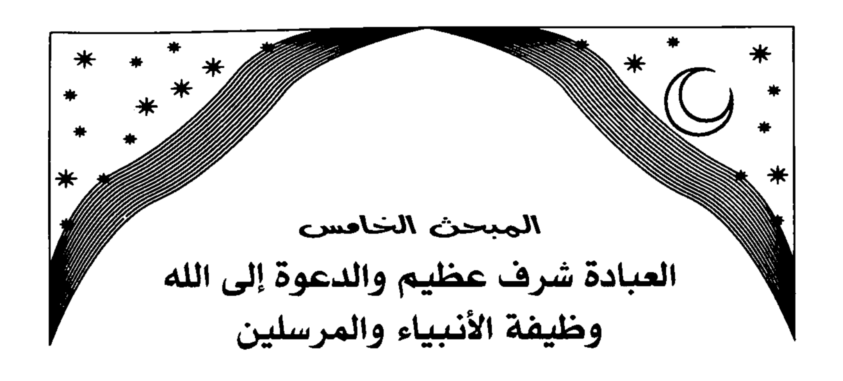
بل يظل فزعاً إلى ربه في كل أمرٍ من أمور حياته لا ينظر إلى غيره ولا يتعلق بأسباب لا تنفع ولا تضر فإن الأمر كله لله.

ليظل متنعماً في ظلال العبودية الحقة التي تضفي على قلبه الطمأنينة وحياته الاستقرار ولعمله حلاوة ولذة يجدها في حلاوة الإيمان نعم «ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً...» [م/الإيمان رقم ٤٩].

وعن مسلم أيضاً: «من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة» [م/الإمارة/ رقم **٣٤٩٦**].

فاللهم لك الحمد على الإسلام، ولك الحمد على القرآن، ولك الحمد أن أرسلت إلينا خير الأنام عليه الصلاة والسلام.





المبحث الخامس

العبادة شرف عظيم والدعوة إلى الله وظيفة الأنبياء والمرسلين

لما كانت العبادة هي أشرف ما يقوم به العبد نحو ربه وخالقه كانت هي وظيفة الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يلتذ بها سوى من عايشها سليمة نقية وعرج في مقاماتها سمواً وعُلواً.

فما هي هذه المقامات وما تلك الدرجات؟؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العبودية[1]:

«إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف سواه، وإذا تم له الإخلاص لله عزَّ وجلَّ ـ وهذا لا يتأتى إلا بعد الزُهدِ ـ ولا زهد إلا بتقوى ولا تقوى إلا بمتابعة الأمر والنهي.

ويجب الحب لله والخوف والرجاء منه فإن الحب يُلقي العبد في السيّر إلى محبوبه، وعلى قدر ضعف الحب وقوته يكون السيّر إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذه الأمور كلها تجعل العبد عبداً لله وحدهُ لا لغيره».

---

(١) انظر كتاب العبودية لابن تيمية ٥٦.

والباعث على الحب ولزومه للقلب هو أمران:

۞ **أولهما**: كثرة الذكر للمحبوب يجعل القلب متعلق به، ولهذا أمر الله تعالى عباده بالذكر فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

۞ **الثاني**: مطالعة آلائه ونعمائه، والتفكر فيها لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ...﴾.

وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ...﴾ والآيات في ذلك كثيرة تفوق الحصر.

كما يقول أيضاً في نفس الكتاب(١):

وحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحبُ، وبغضِ ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.

ومعلومٌ أن الحب يحركُ إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كان العبدُ قادراً عليها حصلها...

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، وبمقدار ترك العبد لأوامر الله وأوامر رسوله كان ذلك دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» [متفق عليه].

---

(١) ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

وقال ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار**» [رواه الشيخان عن أنس رضي الله عنه].

اقرؤوا إن شئتم قوله عزَّ وجلَّ ممتدحاً المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٦٥].

ويقول ابن القيم رحمه الله: في كتابه مفتاح دار السعادة[1]: إن مقام العبودية أفضل درجات العبد...

ونقصد بالعبودية هنا العبودية التي صدرت بمحض الحب وتمام الذل للمحبوب، فكانت منه اختيارية ولم تكن إكراهاً واضطراراً.

ويتجلى ذلك المقام في تفضيله النبيّ عليه الصلاة والسلام على أن يكون ملكاً نبيّاً... بل اختار أن يكون عبداً نبياً...

فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته:

ففي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾، ولم يقل برسوله ولا بنبيّه إشارة منه سبحانه إلى أنه ﷺ نال هذا الشرف لقيامه المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه.

وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾...﴾.

وفي مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ...﴾.

ومن أجل هذا خلق الله الخلق لعبادته وهي الغاية منهم فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾!!

---

(١) مفتاح دار السعادة /٦ ـ ٧.

ومعلومٌ أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء!!

حيث إن دار البقاء دارُ لذةٍ ونعيم لا دار ابتلاء وامتحانٍ وتكليف، وقد اقتضت حكمته سبحانه وبحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وبيّنهُ ليشكروه، فمنهم من ظهرت عليه نعمته وفضلهُ ويعرف أنه قد حُبّى بالإنعام وخُصَّ دون غيره بالإكرام.

ولو تساوى الناس جميعاً في النعمة والعافية لم يَعْرف أحد منهم قدر هذه النعمة عليه ولم يبذل شكرها.

لأن الأمر أصبح عادياً، ولكن من أعظم أسباب شكر النعمة أن يرى الإنسان غيره في ضد حاله من الكمال والفلاح...

فللّه در القائل:

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثُريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صَيَّرْتَ أحمد لي نبيا

ولقد حقق الصحابة والسلف الصالح مقام العبودية الحقة لله، فكانوا محسنين، ومرتبة الإحسان أولى مراتب العبادة، فكانوا يعبدون الله كأنهم يرونه سبحانه.

أولئك قومٌ أحسن الله فعلهم وأبدلهم من حسن فعلهم الخُلدا
فيا طالب الحوراء في خدرها وطالباً ذاك على قدرها
انهض بجد لا تكن وانيا وجاهد النفس على صبرها
وقم إذا الليل بدا وجهه وصُم نهاراً فهو من مهرها

وقبلهم الأنبياء والمرسلين من لدن آدم حتى خاتم النبيين فكل واحدٍ منهم ارتقى عُلواً في مدارج العبادة بحبٍ ويقين وصدق وإخلاص، فكانوا بحق عباد الله المخلصين وقد مدحهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

۞ العبودية والخلافة في الأرض كما حققها أبو البشر:

خلق الله الخلق جميعاً على الفطرة النقية من أول آدم إلى آخر نسمة، والفطرة هي الإسلام دين التوحيد.

وآدم هو أبو البشر خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه وكرمه، وأسجد له ملائكته وهيأة للخلافة في الأرض وإعمارها قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وكما خلق الله آدم من طين خلق زوجه حواء من ضلعه الأيمن ليسكن إليها ويأنس بها.. ثم تكون منهما الذرية البشرية.

وقد ذَكَّرَ اللَّهُ بني آدم ببدأ خلقة أبيهم من تراب ومن طين، فحمإ مسنون ثم من صلصال كالفخار كي لا يغفلوا عن أصل خلقتهم، وليعرفوا أنهم لا قيمة ولا كرامة لهم، إلا إذا حققوا العبودية لله والتزموا منهج الله في حياتهم كي يسعدوا، وأن يسعى كل واحد منهم إذا زلت به القدم عن طريق الجادة والصواب أن يسارع للعودة إلى مرضاته وطاعته لتتم له السعادة ويبلغ الشرف، حيث لا شرف إلا مع القيام بحق العبودية لله..

إذن فتكريم آدم وشرفه كان منذ نفخ الله فيه من روحه وأعده للعبادة ورباه على التوحيد وعلمه الإسلام، فدان لله به وتتابع النسل على الفطرة جيلاً بعد جيل، ولكن الشيطان الذي حسد آدم واستكبر عن السجود له ناصبه وذريته العداء، وقد حذر الله آدم وذريته منه، فقال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٣، ٧٤].

وقال تعالى مُذكراً بني آدم عداوة إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الله سبحانه أراد أن يتخذ من آدم

وذريته عباداً يواليهم ويودهم ويحبُهم ويحبونه، فمحبتهم له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم. ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنيّة إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم فأنزلهم داراً أمرهم فيها ونهاهم، فقاموا بأمره ونهيّه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حُبه إياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البرُّ الرحيم»[1].

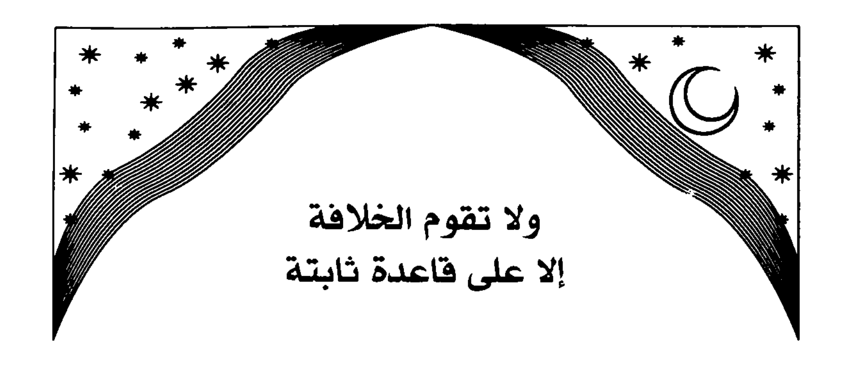
فالغاية إذن شرف عظيم.. إنها الخلافة لآدم وذريته من بعده وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن هذه الخلافة منضبطة وفي نطاق مُحدد.

كما بيّن ربُ العزة فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.



(١) مفتاح دار السعادة /٧.



ولا تقوم الخلافة إلا على قاعدة ثابتة

لما اختار الله آدم وذريته من بعده لإعمار الأرض والخلافة فيها، جعل لهم منهاجاً واضحاً لا يزيغون عنه.

فأمرهم بأوامر ونهاهم عن نواهي، وأنذرهم إن هم خالفوه وبشرهم إذا أطاعوه.

وبهذا يكون طريق سعيهم إليه تبارك وتعالى واضحاً لا غموض فيه، وما عليهم إلا أن يشمروا عن ساعد الجد ويقطعوا الطريق مرحلة إثر مرحلة لأنها والله إما جنةٌ ونعيم أبداً.. أو نارٌ تلظى أبداً... نعوذ بالله من غضبه وعذابه..

ولأهمية السلعة، ولغلاء الثمن كان لا بد من التذكير الدائم بأهمية الخلافة عبر الأعوام والدهور...

فقال تعالى مذكراً البشرية في شخص داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

لقد جمعت الآية الكريمة بين البشارة والأمر والنهي والإنذار والتهديد، إنها مسؤولية كبيرة، إنها أمانة الدعوة وإقامة دين الله قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهكذا ختمت الآية الأولى بالإنذار بالعذاب الشديد لمن نسي يوم الحساب.. وهي دعوة لكي يراجع كل عبدٍ نفسه ولا ينسى يوم الحساب فيعاود الثبات على طريق الحق ويلتزم منهج الله تبعاً لسُنة رسوله وعبده ومصطفاه ﷺ.

وهي مسؤولية كبيرة لا يُعفى منها أحد، لا الراعي ولا الرعيّة قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦].

أما المرسلين فلقد أدوا الأمانة ونصحوا الأمم وتركوهم على الخير دون أدنى تقصير، ولكن المشكلة تكمن في المرسَلِ إليهم وكل إنسان مسؤول عن نفسه وما يعول..

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [آخر الأنعام].

فهي مسؤولية لا يُعفى منها أحد كما يقول ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالحاكم راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته**» [رواه البخاري].

والغاية من الخلق واستخلافهم هي عبادة الله وإعمار الأرض بتوحيده كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

والأمر واضح وضوح الشمس في وسط النهار فإن من عَبَد الله حق عبادته وسار تبعاً لمنهجه فهو السعيد الموفق في الدنيا والآخرة والقاعدة التي

يمكن للعبد أن يضعها منهجاً له وقاعدة أساسية ينطلق منها هي قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآيات السابقة.

وهكذا الطاعة تولد السعادة والراحة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، كما أن المعصية تولد الشقاء والحسرة والنكد في الدنيا والآخرة. ويوم القيامة يُعْرضُ المشهد لهؤلاء وأولئك في صمتٍ رهيب.. يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥ ـ ١٠٨].

إنها النهاية.. بل إنها البداية حيث يُجزى كل إنسان ذكراً أو أنثى بما سعى. فمن كان سعيُهُ وحياته في طاعة ربه فهنيئاً له الخلود والنعيم المقيم في الجنة وإن كان غير ذلك.. كانت الأخرى.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ولا شك أن كل عاقل لا يرضى عن الجنة بديلاً، ولا يرغب عنها إلا السفيهُ الخامل الجاهل، فإن الجنة كما وصفها خالقها سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ

ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

يقول ابن عباس رضي الله عنه: «إن للحسنة ضياءاً في الوجه ونوراً في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق. وإن للسيئة ظُلمة في الوجه وسواداً في القلب ووهناً في البدن وضيقاً في الرزق».

وقد وصف الله نبيّه وأصحابه بأنهم أهل الطاعات وأن أثرها يبدو في مُحياهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان الإمام مالك رحمه الله يوصي تلميذه الشافعي رحمه الله قائلاً: يا غلام إني أرى أن الله قد ألقى عليك نوراً أو في قلبك نوراً فلا تُطفئهُ بظلمة المعصية...

ومن قوله أيضاً: «العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من شاء.. تزيده الطاعة وتنقصه المعصية!!».

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: إن في الدنيا جنة.. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة..

وكان يقول في سجنه: «ماذا يصنع فيّ أعدائي.. إن جنتي في صدري لا تفارقُني.. إن سَجْني خلوة، وقتلي شهادة وإني لفي سياحة!!!

وهذا مصداق قول الحق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩].

إن السعادة النفسية والطمأنينة القلبية تخضع للقاعدة الأصلية حيث الطاعة تولد السعادة والطمأنينة وسعة الصدر وانشراحه، وعلى العكس فإن

المعصية تولد الحسرة والحيّرة وتجرع المرارة والكبت والعذاب. وكلاهما له تأثير على سلوك الفرد وتقاسيم وجهه وحركة أعضائه.

ولذلك شُهِدَ لقائمي الليل بنور وجوههم لأنهم خلوا بربهم فأفاض عليهم نوراً من عنده ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

يقول أحد الصالحين: «إني لأذنب الذنب فأرى ذلك في سلوك زوجتي ودابتي».

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

بل إن للذنوب أثرها على الفرد وعلى المجتمعات، وكلما زاد الفساد وكثرت المعاصي ازداد الفساد براً وبحراً وجواً..

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

فبقدر البعد عن منهج الله عزَّ وجلَّ للفرد والجماعة والأمة والدولة كان مقدار الفساد، وكلما زادت زاوية الانحراف عن منهج الله زاد حجم الفساد والله المستعان.

فهل فتشنا عن مكمن الداء وسارعنا إلى اختيار الدواء.

يقول أحد الحكماء: إن السمع والبصر والشَّم كالطاقات تنظر منها النفس. فالقلب هو كالملك فإذا صلح الراعي صَلُحتْ الرعيّة، وإذا فسد فسدت الرعية، وإنما يحصل صلاحُه بسلامته من الأمراض الباطنية كالغل والحقد والحسد والشح والبخل والكبر والسُخرية والرياء والسُمعة، والمكر والمرض والحرص والطمع وعدم الرضا بالمقدور...

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهل قام الخَلقُ بما ينبغي لربهم وخالقهم؟!

لقد خلق الله البشر من لدن آدم وحتى يرث الله الأرض ومن عليها

ليعبدوه ويوحدوه وأمرهم بذلك، وكذلك الجن وأكد على ذلك وخَصَّهُما بالتذكير والتنبيّه للغاية من خلقهما ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾..﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومع أن جميع الخلائق لله عابدون موحدون ساجدون سواءٌ في سماواته أو في أرضه.. إلا إن المشكلة تمكن في ذلك الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

بل إن الأرض وما فيها والسماوات أتوا طائعين ساجدين لربهم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١].

بل إن الطيور لتشدوا بالتسبيح لله، والأشجار تتمايل أغصانُها يميناً وشمالاً سُجداً لله.

وكلها تُقِرُ بالوحدانية والطاعة لله.. أليس في ذلك عبرة لمعتبر وآية لمدكر!!

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠].

فيا عجباً لابن آدم الذي سُخر له كل ذلك وفضل على سائر المخلوقات كيف يعصي ربه؟ وكيف ينحرف عن منهج الله، كيف يعصي من بيده ملكوت السماوات والأرض؟

كيف يعصي من يرزقه ويشفيّه وينجيّه من كل ضائقة؟ كيف يقابل نعمة الصحة والمال والبنين و. . . و. . . بالكفر والعصيان؟ وقد قال عزَّ من قائلٍ عليماً: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾؟؟؟

ولكنها الحقيقة ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

فكم من القُطْعان البشرية قد استهوتهم الشياطين تسوقهم سوق البهائم فغرقوا في الدَّنايا وتلطخوا بقذارة الفواحش والمنكرات ونتن المعاصي والمخالفات.

يقول أمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه: «من أراد غنى بلا مال وهيبة بلا سلطان، وعزاً بلا عشيرة.. فليتق الله.. فإن الله يأبى أن يذل إلا من عصاه»!!

فيا أختي المسلمة ويا أخي المسلم يا من أسْرَفْتُم على أنفسكم باقتراف المعاصي والذنوب هلموا إلى التوبة وإلى رحمة الله ورضوانه كي يبدل الله سيئاتكم حسنات وتكونوا من أوليائه ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

فهل نسارع إلى التوبة وإلى رحمة الله ورضوانه.. فهيا أُختي وهيّا أخي و﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٣ ـ ١٥].

فأطوي صفحة الماضي وابدأ خائفاً منيباً عابداً وتبرأ من الشركاء ومن قُرناء السوء، وانظر بعقلك في عاقبة الأمور تربح وتسعد، والأمر لا يحتمل

التسويف فالآجال قصيرة والزاد قليل والطريق طويل فالمسارعة المسارعة، والمسابقة المسابقة والتنافس التنافس.

ولا تشتغل بما ضُمِنَ لك وقسم لك عمّا خُلقت له ولتكُنْ الآخرة هي غايتك والدنيا وسيلةٌ تزرع فيها خيراً لتحصد خيراً، يوم يفرح المؤمنون بحصادهم ويخسر الكافرون دنياهم وآخرتهم...

قال الله تعالى مُخاطباً عباده في الحث على عبادته:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

وقال أيضاً: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

وعندما يخاطبهم مُذكِراً لهم بحقيقة الدنيا يقول:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وعندما أمرهم بأخذ الأسباب من الدنيا قال لهم:

«فامشوا... فسيروا... فانتشروا...».

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [تبارك: ١٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٢].

نعم إن الأمر يحتاج إلى السير والتؤدة والتعقل والتفكير في مصير هؤلاء... هل أخذوا معهم شيئاً!!

فالرزاق هو الله، يرزق البرَّ والفاجر والحيوان والطير في السماء والحشرات في جحرها، وقد هداها سبيل أخذ أسباب الحصول على الرزق، ولو شاء لرزقها في مكانها، ولكن تمام الإيمان يقتضي الإيمان الكامل بالرازق مع أخذ الأسباب وعدم إهمالها.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

فالله الذي ألهم النمل جَمْعَ الحب وتخزينه في الجحْر، ألهمها القيام بتكسير الحبوب وتفتيتها، حتى لا تنبت أو تفسد بالتخزين وغيرها وغيرها آيات وآيات تدل على قدرته سبحانه وعظمته، فيا عجباً لمن لا يتأخر عن دوامه اليومي بُغيَة تحصيل الراتب الشهري في حين يتكاسل عن الصلاة ويؤخرها عن وقتها...

أو من تسوف في ارتداء الحجاب لأنها صغيرة.. وهل الموت يزور كبار السن فقط... ولا يهبط مَلكُ الموتِ إلا عند العجائز؟؟ أسأل الله صلاح أحوالنا جميعاً.

لقد علمت وما الإسراف من خُلقي   أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلبهُ ولو   قعدت أتاني ليس يعييني

والعاقل الفَطِنُ هو الذي يجعل حياته كلها عبادة حتى طلبه للرزق، فيستعفف في طلبه ويتحرى أن يكون حلالاً ومن مصدرٍ حلال. حتى يبارك له فيه. يوضح ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

وقد حارب الإسلام البطالة والاتكالية والطمع وحض على العمل الشريف ورغب فيه، وبيّن أنه قسيم الجهاد والطاعة، وأن أطيب الكسب كسب الرجل من عمل يده...

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

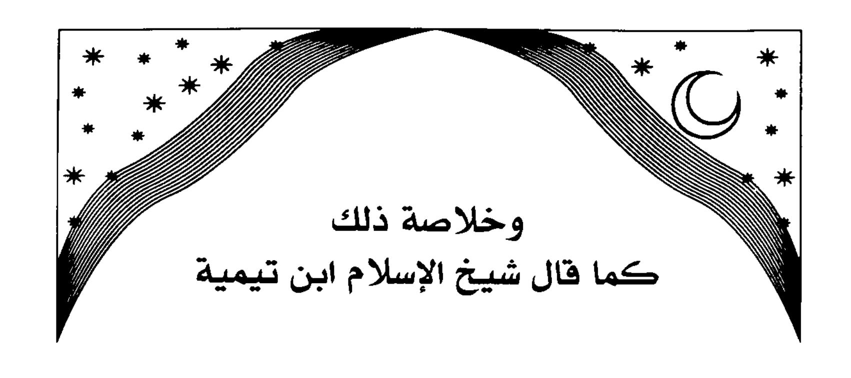
وفي الحديث الذي رواه البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [ج٤/٣٥٥، رقم ٢٠٧٢].

وهكذا يتضح عند كل عاقل فطِنٍ أنه من تمام إيمان العبد صدق التوكل على الله مع أخذ الأسباب وعدم إهمالها، وقد فهم ذلك كل من حقق عبادة الله بحق حتى الحشرات تلكم المخلوقات الضعيفة، فهذه نملة تأمر أخواتها بالتنحي عن طريق سليمان وجنوده حتى لا يهلكوا.

قال تعالى: ﴿... قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فما أحوج بني آدم إلى هذا الفهم وهذا الأدب الجم في النصيحة..





وخلاصة ذلك
كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية

أن «هذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة ولا يكون تركها محموداً في حال أحد، وإن ارتقى مقامُه».

«وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خيرٌ محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن قال أن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها: فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط. وإنما يخرج عنها كافر أو منافق».

وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله على من فرق بين الخاصة والعامة في التوكل: ما خُلاصتهُ: «فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته وهذا أهم الأمور إليه».

ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع، لأن هذين يجمعان الدين كله.

ولهذا قال أحد السلف: «إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كُنت رديف النبي ﷺ فقال: «**يا مُعاذ أتدري ما حق الله على العباد؟**» قلت: الله ورسوله أعلم؟ قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**».

قال: «**أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**».

قلت: الله ورسوله أعلم!! قال: «**حقهم عليه أن لا يعذبهم**».

والعبادة هي الغاية التي خلق الله تعالى لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه..

كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، وبها أرسل الرسل، وأنزل الكتب.

وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته.

فالحبُ الخليّ عن ذل.. والذل الخليّ عن حب لا يكون عبادة... وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله وحده، وهي وإن كانت مَنفعتُها للعبد، والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشدَّ فرحاً بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في أرضٍ دويةٍ مهلكة إذا نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته»[1] انتهى كلامه يرحمه الله.

والآن أذكركم بنموذجٍ من النماذج المخلصة في عبادتها، بل والتي

---

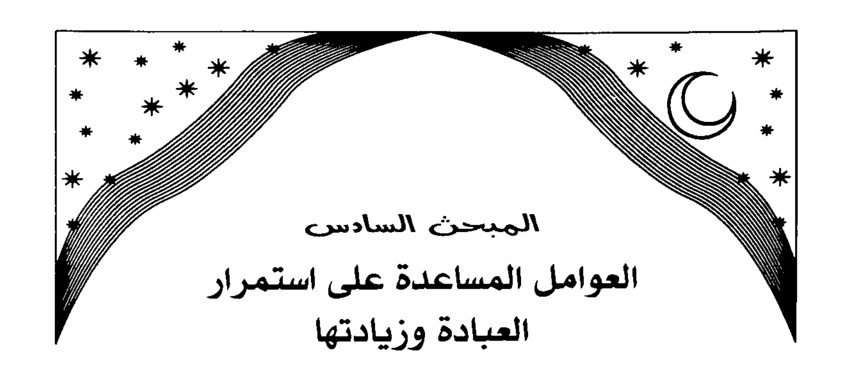
(١) الفتاوى ج١٠/١٦ ـ ٢٠.

حققت التوحيد بجميع أقسامه، وقد تعجبون إذا عرفتم أنه هدهد.. واحدٌ من الطيور في مملكة سليمان عليه السلام أنكر على مَلِكة سبأ وقومها عبادتهم لغير الله سبحانه، واستنكر ذلك أيّما استنكارٍ، بل وصدع بالمعتقد الصحيح يقصُ الله لنا ذلك فيقول:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٦].

فما أحوجنا أن نقف مع هذه الآيات وقفاتٍ ووقفات فقد نتعظ من هذا الطائر ومن فهمه وسلامة معتقده، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.





من المعلوم أن العبادة تزيد وتنقص حسب سعي العبد طلباً لها أو تفريطاً فيها، سواء كانت في الواجبات أو غيرها فرضاً كانت أو سُنة أو كليهما معاً.

والسعيدُ من لم يعرف التوانيْ ولا الكسل في الوصول إلى محبوبه سبحانه وتعالى، والشقي من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني؟!

ومن العوامل التي تبْعث على صلاح العبادة وزيادتها أمور كثيرة.

١ ـ تذكر الموت وما أدراك ما الموت!!!!

إنه مصير كل مخلوق، لا يشك أحدٌ في ذلك لأنه أمرٌ مشاهد ومتكرر، ولا يبقى سوى الحي القيوم.

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

وفي الحديث المتفق عليه: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» رواه الشيخان.

ومن ثَمْ كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول لغيّره واعظاً: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك!!!».

۞ وكان أحدُ الصالحين يقول: «العاقل المُصيبُ: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها...

والعاقلُ المصيبُ: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخلهُ وأرضى خالقهُ قبل أن يلقاه...».

وقال عمر بن عبدالعزيز لأحد عُلمائه: عظني!!!

فقال له: لست أول خليفة يموت! قال: زدني.

قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر رضي الله عنه لذلك..

وكان يقول لنفسه: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك!!

إن تذكر هادم اللذات يزهد في الدنيا ويبعث على حُب الآخرة ويحفز على التزود لها بالأعمال الصالحة لأنها زاد العبد إلى خالقه، ولها ثمرة الخشوع والخشية والخوف والرجاء في السر والعلانية لأن العبد مؤمنٌ أن «لكل أجل كتاب».

والموت هو نهاية الحياة الدنيا لكل مخلوق فمنهم من تكون دنياه أياماً وآخر شهوراً وغيره سنوات، وآخر يرد إلى أرذل العمر وقد يفرح أنه عَمَّر مائة عام أو أكثر، نعوذ بالله أن نرد إلى أرذل العُمر.. لقد مات الأنبياء والرسُل عليهم الصلاة والسلام ومات الصالحون، وهلك الطغاة والكافرون ولا زالت رحى الموت تتلقفُ من هؤلاء وأولئك.

لقد رحل الحبيب محمد ﷺ وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء والمرسلين ورثاه ربه قائلاً له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

لو كانت الدنيا تدوم لواحدٍ لكان رسول الله فيها مخلداً

سُئل حكيمٌ: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟؟

فقال: لأنه ذاق منها ما لم يذق الشاب!!

لقد أعد الصالحون السابقون للموت عُدته، وزرعوا خيراً حيث ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

فما بالنا نحن وقد غرقنا في الملذات وجرفتنا أمواج الدنيا المتلاطمة وتركتنا في وسط اليم... تتلقفنا مخاوف البحر وظُلمة الليل البهيم، السلف الصالح بشر ونحن بشر وكانت لهم دنياهم ولنا نحن دُنيانا، ولكن ليت لنا يوماً واحداً من دنياهم!!

يقول يوسف عليه السلام وهو يناجي ربه سبحانه بعد أن أنجاه الله من السجن وفرج كربه ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

يوسف التقي النقي بن التقي بن التقي يدعو بدعوة جامعة: «أولها الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب الواحد الأحد، ثم إظهار الافتقار إليه سبحانه فاعلان البراءة من موالاة غيّره، ومن ثم حُسن الخاتمة.. وطلب الوفاة على الإسلام حيث إنها أجل الغايات وفيها الاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء».

فهنيئاً لهؤلاء الكرام البررة وهنيئاً لكل من زرع خيراً ليجني خيراً فاليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل.

يقول الحبيب ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك،**

وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شُغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» [رواه البيهقي والحاكم].

والعمر أخيتي هو حياتك فإذا مر يوم لا يعود ويتلوه آخر وآخر وشهر ثم شهر وعام ثم عام ثم ماذا؟؟

والعمر عُمران: عمر بمقاييس البشر منذ ولدت حتى تموتي، وآخر عند ربك مقاس بمقدار الطاعة وفعل الخيرات والإقبال على الله.. فربُ من لها من العمر ثلاثين عاماً خير عند الله ممن عاشت مائة وعشرين عاماً!!

۞ يذكر صاحب العقيدة الطحاوية (أن):

الموت صفة وجودية، وهو شيءٌ مخلوقٌ، وحقيقة لا ينكرها أحد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ ولا يوصف العدم بكونه مخلوقاً..

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه: «**يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبشٍ أملحٍ، فيذبح بين الجنة والنار. ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهلَ النار خلود فلا موت...**» [وأخرج الإمام أحمد نحوه حم٢/٤٢٣].

والموت وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبهُ عيناً.

۞ كما ورد في العمل الصالح: «أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح في أقبح صورة...» أو كما ورد في الحديث الطويل عن البراء[١].

۞ كما أن الأعمال توزن في ميزان: لقوله في الحديث المتفق عليه «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمٰن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [رواه الشيخان].

---

(١) البراء بنُ عازب.

❁ وقوله ﷺ عن ساقي عبدالله بن مسعود: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أُحُد**» [حم١/٤٥٠].

❁ وفي الحديث الصحيح: «**تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان...**».

ومثل ذلك كثير. وأن الله سبحانه ينشيء من الموت صورة كبشٍ يذبح كما ينشيء من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب عليها، والله تعالى ينشيء من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها، كما يُنْشِيءُ سبحانهُ من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً وكل ذلك ممكن ومقدور من الرب سبحانه وتعالى.

وهذه كلها أدلة على أن الموت وإن كان عرضاً فإن الله يقلبهُ عيناً، والله على كل شيءٍ قدير ولا يعجزهُ أمر شيء.

فاجتهدي أختي واجتهد أخي أن تكون صحائف عملك نقية ولا تدنسها بالمعاصي والذنوب، واعمل فيما يُحيي قلبك في الدنيا وفي الآخرة، ولا تُمِتْ قلبك بالمعصية وتذل نفسك بها.

ولله در عبدالله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذُلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانها!!

وها هي كلمة أخيرة عن الموت وحقيقته:

لقد جهل الكثير حقيقة الموت واعتبروه عدماً ونهاية وراحةً بعد كدر الدنيا وأنه لا حساب ولا جنة ولا نار.. وهذه مُصيبة عُظمى وقع فيها الكثير من الجهلة ومن منكري البعث والحساب.. نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى والزيغ بعد الرشاد..

ولكن الموت حياة برزخية عجيبة لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ، ولو

كان الموت عدماً وهو النهاية، كما يزعمون لما كانت جنة ولا نار ولا نعيمٌ في القبر ولا عذاب، نعوذ بالله من عذاب القبر وعذاب النار، فلقد كان ﷺ دائماً يستعيذ من عذاب القبر دُبر كل صلاة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ يَدْعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» [بخ٣.٢٨٤، رقم ١٣٧٧].

والموت بداية الآخرة وهو النُقلةُ إلى الحياة البرزخية والموت ينقلنا إلى الحياة في القبر، فينعم أهل الإيمان والتقوى كما سيأتي، ويعذب أهل الكفر والإلحاد وكذا أهل المعاصي كلٌ حسب عمله وما اقترف من إثم وجُرم.

والسعيد من كان آخر كلامه من الدنيا لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله، وإن للموت سكرات يخففها الله على العبد المؤمن على حسب درجة إيمانه، وكم هي شديدة على أهل المعاصي والذنوب وأشد منها على أهل الكفر والإلحاد، نعوذ بالله من سوء الخاتمة، وكل ميتٍ يشعرُ ويعرف ما ينتظره عند قبض روحه كما سيأتي: في نعيم القبر وعذابه، فتذكر جيداً أن كل لذات الدنيا لا تساوي أول ليلة في القبر فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً.

تالله لو عاش الفتى في دهره ... ألفاً من الأعوام مالك أَمْرِه
متمتعاً فيها بكل نفيسةٍ متلذذاً ... فيها بنُعمى عصره
لا يعتريه السُقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بفكره
ما كان هذا كله في أن يفي ... بمبيت أول ليلةٍ في قبره

فمن أراد السعادة الحقيقية في دنياه وآخرته فعليه بتقوى الله في السر والعلانية والطاعة تكسو العبد قوة في عافيته وصحته، والذنب يورثهُ المرض والقلق والذل والفقر والوهن..

يقول ابن القيم رحمه الله:

الذنب بمنزلة شُرب السُم، والتوبة ترياقهُ ودواءُه، والطاعة هي الصحة والعافية. وصحة وعافية مستمرة، خيرٌ من صحة يتخللها مرضٌ وشرب سُم..

فاللهم اعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا واختم بالصالحات أعمالنا... آمين.

٢ ـ تذكر القبر ونعيمه وعذابه:

القبر ذلك الواعظ الصامت.. إنه مكان إقامة الميت وفيه يُنعم أو يُعذب... والميت وحده يعرف ذلك عند قبض روحه. فإن قبضها المَلَكُ بخفة ويُسرٍ فذلك المؤمن، وإذا كانت بمشقة وعذابٍ فتلك بداية الألم والعذاب، وإذا جاء الأجل لا يمكن لمحبوب أن يطلب التأخر لحبيبه ولا العجلة لعدوه، فالآجال محسوبة والأنفاس معدودة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبيّ ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحد، فجلس ﷺ وجلسنا حوله وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكت به في الأرض. فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ عن الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيضُ الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوطٌ من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.

قال: فتخرج تسيلُ كما تسيل القطرة من فيّ السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مِسْكٍ وجُدِتْ على

وجه الأرض، قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعُه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي به إلى السماء السابعة. فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أُعيدُهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى...

قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقول له: من ربُك؟ فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه.. لا أدري فيقول: ربي الله، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: دينيّ الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عِلْمُك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقتهُ، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً من الجنة.

قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسحُ له في قبره مَدُّ بصره.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسنُ الثياب طيبُ الرائحة.

فيقول: أبشر بالذي يَسُرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي...

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجه معهم المسوح «ثوب خشن» فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السَفُود[1] من الصوف المبلول، فيأخذها. فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له...

ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السُفلى، فتطرحُ رُوحه طرحاً ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعادُ روحه في جسده ويأتيه ملكانِ فيجلسانه فيقولان له: من ربُك؟ فيقول: هاه هاه.. لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه.. لا أدري.

فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعُه ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه قبيح الثياب مُنْتِنُ الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة» [أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٤/٢٨٧ ـ ٢٨٨ ورواه غيره][2].

وهكذا تتضح الصورة ويتجلى المشهد لكل فريق فماذا تنتظري يا أمة الله ولما التسويف يا عبدالله. ألا فتعوذوا معي من عذاب القبر وعذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات وأسألوا الله الثبات على التوحيد وذكر الله

---

(١) السفود: (الحديدة التي يشوي بها اللحم).

(٢) والحديث رواه أبو داود والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وابن حبان.

وطاعته وإياكم وقسوة القلوب فإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي.

فيا من أسا فيما مضى ثم اعترف — كُن محسناً فيما بقي تلقى الشرف
واسمع كلام الله في تنزيله — «إن تنتهوا يُغْفر لكم ما قد سلف»

ووقفة بتأمل أمام القبر للعظة والاعتبار كفيلةٌ بصلاح العبد إذا أراد الاعتبار ولزوم سبيل الأخيار!!!

فالقبر موطن العُظماء والحقراء والحكماء والسفهاء، وهو منزل الصالحين السعداء والطالحين الأشقياء.. الجو حوله عجيب التأثير في النفس حيث الهدوء والسكون يرفرف على فضائه الرهبة والخوف تنتشر بين أرجائه.. ولِما لا وهو محل السؤال والمناقشة والتوفيق والتثبيت، ثم هو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حُفر النار!!

لو رأى أحدنا ميتاً له بعد أيام قليلة من دفنه لاستوحش من قُربه بعد أُنسه به في الدنيا، ولرأى الإنسان بيتاً عجيباً تجول فيه الهوام وتخترق هذه الأوصال كميات من الدود، ولنفرت وفزعت من تغير الريح وبلاء الأكفان!!!

ولسألت أين الجمال؟ وأين المهابة؟ وأين طيب الرائحة؟ بل أين داره؟ وأين حاله؟ وأين منصبه؟

ولا زال القبر واعظاً مع أنه صامت لا يملك العبارات المنمقة والأشعار الموزونة.. ولكن يعرف لغةً هي أشد في التأثير من جميع أنواع اللغات كلها، ومنظراً أعمق وعظاً من كل عبارات الوعاظ والحكماء... وهذا الترابُ الصامت له صوتٌ لا يسمعه ولا يعي مدلوله إلا من وقف أمامه متأملاً وهو يضم الحبيب والصديق والرفيق والأب والأم والابن والبنت والجار وكذا العدو.. الكل توسد التراب!!

هذه الحُفرة الضيقة التي لا أنيس فيها ولا جليس ولا صديق ولا خليل.. إلا العمل الصالح فإنه خير أنيسٍ لصاحبه في قبره، وهو مزيل وحشته ومخفف وحدته وغُربته...

كان عطاء رحمه الله تعالى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة، ثم قال غداً عطاءٌ في القبور!!

وكان عمر بن عبدالعزيز إذا نظر إلى القبور بكى ثم قال: هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم.. أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثُلات واستحكم فيهم البِلى وأصابتهم الهوام في أبدانهم....

أخرج الترمذي في جامعه أن رسول الله قال: «**قد كُنتُ نهيتكُمْ عَنْ زيارة القُبور، فَقَدْ أُذِنِ لمحمدٍ في زيارة قبر أَمِّهِ، فزوروها، فإنها تُذكرُ الآخرة**» [ت٤/١٥٩، رقم ١٠٦٠].

نعم إن القبر واعظٌ صامت وزيارة القبور تزهدُ في الدنيا وترغب في الآخرة.. فما عند الله خيرٌ وأبقى.

فالإنسان إذا تخيل أنه واحدٌ من هؤلاء الموتى أصحاب الجثث الهامدة والأجساد البالية والعظام النخرة والأشلاء الممزقة والأوصال المقطعة، وأيقن بهذه الحقيقة لما حرص على الدنيا واستكثر منها إلا من العمل الصالح والمسارعة إلى الخيرات... ليكون عمله الصالح أنيسه ويخرج من الدنيا بخير زاد للآخرة فيُقْبل على الله سعيداً فيأخذ كتابه بيمينه وينادي سعيداً ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

ولله دَرُّ ابن المبارك رحمه الله إذ يقول[1]:

وطارت الصحف في الأيدي منشدةً ... فيها السرائر والأخبار تطلعُ

فكيف سهوك والأنباءُ واقعةٌ ... عما قليل، ولا تدري بما تقعُ

أَمن الجنانِ وفوزٌ لا انقطاع له ... أم في الجحيم فلا تُبْقَى ولا تدعُ

تهوى بساكنها طوراً وترفعهم ... إذا رجوا مخرجاً من غمها قُمعوا

طال البكاء فلم يُرحم تضرُّعهم ... فيها ولا رُقيةٌ تُغنى ولا جزعُ

لينفع العلمُ قبل الموت عَالِمهُ ... قد سأل قوم بها الرُّجعى فما رجعوا

(١) العقيدة الطحاوية ص٤٦٩.

هذا «واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبهُ منه، قُبِر أو لم يُقبر، أكلته السِباع أو احترق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء، أو صُلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقْبور»(١).

وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعَدُه بالغداةِ والعشيّ، وإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقالُ: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله يوم القيامة**» [بخ٣/٢٨٦، رقم/١٣٧٩].

ولي كلمة أخيرة عن عذاب القبر ونعيمُه وأنه حق، واضرب مثالاً تقريباً: وهو أمر يحدث لنا جميعاً في النوم «الرؤيا الطيبة: مثلاً ترى أهلك وأحبابك في مناسبات طيبة فهذا عاد من الحج وأثرُ الطاعة على محياه، وهذا نجح بتفوق، وهذا تزوج وهذه عادت من سفرها والكل سعيدٌ مسرور طيب النفس، كل هذا يراه الإنسان في منامه وهي لحظات لا تعدوا الدقيقة الواحدة أو أقل، ومع ذلك تستيقظي من نومك في غاية الراحة والسرور وبدنُك مستريح ووجهك يعلوه البشر والسعادة. . .

وعلى العكس تماماً:

الحُلم السيء: ترى في المنام هذا الحبيب مات وتبكي، وهذا تشاجر معك وهذه نالت منك وحرب ضارية في المنام تحدث فتقومي باكية حزينة، حتى كأنك تعيشين واقعاً وأن الذي رأيت ليس مجرد حُلم وتظلي في قلق ووجهك حزين وجسدك منهك ومتعب. . .

فهذا مثل يقرب ما يحدث والله أعلم ونحن نؤمن بما جاء عن الله، وأخبر به نبيّهُ ﷺ ونسأله رحمته ورضوانه والثبات على الحق. . آمين.

---

(١) العقيدة الطحاوية ص٤٥١.

٣ ـ البعث والنشور وثمرة الإيمان بهما:

إن المسلم المتذكر للبعث والنشور وما يكون بعدهما من أهوالٍ وشدائد يكون محاسباً لنفسه دائماً. ومن ثم يُلزمُها الصلاح والانقياد إلى سبيل الهُدى والرشاد مهما لقيَ من مكاره وقابله من ابتلاءات، لأنه واثق من لذة الوصول إلى رضى مولاه سبحانه وتعالى.

والبعث والنشور حق لا ينكره إلا ملحد كافر أو منافق زائغ، ولقد ساق الله لنا نماذج على ذلك عبر آيات القرآن الكريم.

قال تعالى في سورة البقرة/٢٨: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وقال في سورة الروم/١٩، ٢٧: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد وردت آيات كثيرة تؤكد على البعث وترد على مُنكريه ومنها:

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

وفي الحديث عند مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون»**. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً، قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيت، **«ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان**

شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجبُ الذَنَبِ ومنه يُركبُ الخلق يوم القيامة».

وعن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» [بخ في الدعوات/٦٣١٢، ٦٣١٤].

بل وجاءت صوراً حسية لإحياء أصناف من المخلوقات بعد إماتتها وذلك لترسيخ الإيمان بالبعث والنشور في نفوس العباد ومن هذه الصور كما وردت في كتاب الله:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [٥٥، ٥٦].

فهؤلاء سبعون رجلاً ممن اختارهم موسى عليه السلام. صعقوا فماتوا ثم أحياهم الله فقاموا وعاشوا ثانية وبنو إسرايل ينظرون لعلهم يعتبرون!!

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [٧٢، ٧٣].

وهذا دليل ثان لحيوان وإنسان يموتان ثم يحيهما الله ثم يموتان.

فذبح البقرة وتخليها عن الحياة ثم ضربُ القتيل بعضوٍ منها فتدب فيه الحياة ويتكلم مخبراً عمن قتله.. ثم يموت بعد ذلك، وهذا حصل أمام بني إسرائيل أيضاً.

٢ ـ وقوله أيضاً في نفس السورة/٢٤٣:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ

ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾.

ذكر ابن عباس رضي الله عنه أنهم كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، ثم أتوا أرضاً غيرها فأماتهم الله ثم أحياهم.

وهذا أيضاً دليل حسي وحدثٌ مشاهد أمام بني إسرائيل ولكنهم كعادتهم لا يشكرون ولا يؤمنون!!

٣ ـ وقوله تعالى في سورة البقرة أيضاً/٢٥٩، ٢٦٠:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

❁ ذكر الشيخ عبدالرحمٰن بن سعدي رحمهُ الله تعالى أن:

«هذان دليلان عظيمان محسوسان في الدنيا قبل الآخرة على البعث والجزاء واحدٌ أجراه الله على يد رجلٍ شاكٍ في البعث كما تدل الآية.

والآخر على يد خليله إبراهيم كما أجرى الله دليل التوحيد السابق على يده».

والأول رجلٌ من بني إسرائيل قال مقالته لما رأى خراب بيت المقدس فجعلهُ الله آية هو وطعامه الذي لم يتغير، وكذا حماره وعودة الحياة له وهو ينظر ذلك في نفسه وفي حماره.

والقصة كلها دليل على وحدانية الله وقدرته على البعث والجزاء، وكذلك القصة مع إبراهيم الخليل الذي لم يتخلل أدنى شك إلى قلبه في

قدرة الله على إعادة الحياة، ولكنه أراد أن يرى دليل القدرة ويُري من معه كذلك ليكون ذلك أبلغ في التأثير في النفس.

ففرق إبراهيم عليه السلام أجزاءهن (الطيور الأربعة) على الجبال التي حوله ودعاهنُ بأسمائهن فأقبلن إليه أي مُسْرعات، أي طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وفي تمزقهن جميعاً وجعلهن على رؤوس الجبال ليكون ذلك ظاهراً علناً يشاهد من قريب ومن بعيد...

وفي سورة الكهف وردت أدلة على البعث للإنسان والحيوان أيضاً:

وقصة أهل الكهف مشهورة يعلمها العامة والخاصة والكبير والصغير قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟

ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾﴾ [١١ ـ ٢٥].

وقوله تعالى في نفس السورة ٦٠، ٦١:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾﴾.

فهذا حوتٌ مشويٌ تعود له الحياة فيشق طريقه في البحر سرباً بإذن الله!! وهكذا تعددت الأدلة والبراهين والآيات لعدة أصناف من إنسان وحيوان وطيرٍ وغير ذلك، وكلها دليل على قدرة الله ووحدانيته وأن البعث والخلق والإماتة لا يقدر عليها إلا الواحد الأحد...

وما النوم والاستيقاظ بالنسبة لكلٍ منا إلا دليل متكرر وبرهان على البعث والنشور، وأنه لا يعجز رب العالمين شيئاً.

يقول عزَّ وجلَّ في سورة الزمر/٤٢:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ان عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال سعيد بن جُبير: إن الله يقبضُ أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح

الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف (فيُمسِكُ التي قضى عليها الموت ويُرسلُ الأُخرى) أي: يعيدها.

وقال عمر: النوم أخو الموت.

وروى مرفوعاً من حديث جابر بن عبدالله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: **«لا، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها»** [أخرجه الدارقطني].

وقال القشيري أبو نصر: «فيُمسك التي قضى عليها الموت ويرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمى» فإذا قبض الله الروح في حالتين في حالة النوم وفي حالة الموت، فما قبضهُ في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسهُ عن التصرف فكأنه شيء مقبوض، وما قبضهُ في حالة الموت فهو يُمْسكه ولا يرسلهُ إلى يوم القيامة...» [ج١٥، القرطبيُّ ٢٣٢ ـ ٢٣٣].

وكان ﷺ يقول: **«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليُسمّ الله فإنه لا يعلم ما خلفه بعد على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن، وليقل سبحانك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»** [رواه الترمذي وابن ماجه ومثله عند البخاري].

وعلى كل حال فالآية تنبيه على عظيم قدرته سبحانه وتعالى وانفراده بالألوهية، وأنه يفعل ما يشاء، ويحيي ويميت، ولا يقدر على ذلك سواه. وفي ذلك آياتٌ لقوم يتفكرون. [القُرطبيُّ ٢٣٥/١٥].

هذا ولا يكون البعث والنشور إلا بعد النفخ في الصور أو الناقور وذلك لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٦٩].

قال ابن عباس ومجاهد: «الناقور»: الصور.

وعرفه مجاهد فقال: وهو كهيئة القرن.

وفي الحديث عند أحمد في مسنده: «قوله ﷺ: **«كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟»** فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: **«قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ـ على الله توكلنا!!!»**.

وقد تكلم العلماء في عدد النفخات فقيل: اثنتان وقيل ثلاث وقيل أربع وليس يعنينا عدد النفخات فالله تعالى أعلم.

ويكون النفخ في شيءٍ من علمه تعالى ويكون أشد مما نسمع من الصواعق والرعد والانفجارات وغيرها ثم يكون هذا اليوم.. يوم القيامة ألف عامٍ مما تعدون» [مختصر ابن كثير ج٣/٥٦٨، **٢٢٩**].

وعلى كل حالٍ فيجب علينا التزود لسفر الآخرة وخير الزاد التقوى...

وعظ أحد السلف جلساءه فقال:

أما ترون أن أحدكم إذا أراد السفر استعد له؟ ولا سيّما بالزاد؟ قالوا: نعم، قال: فسفر الآخرة أبعد مما تسافرون...

وسُئل إبراهيم بن أدهم ـ رضي الله عنه ـ لما زهدت في الدنيا؟

فقال: لثلاث:

الأول: رأيت الطريق طويلاً وليس معي زاد!!

والثاني: رأيت القبر موحشاً وليس معي مؤنس!!

والثالث: رأيت الجبار قاضياً وليس معي حُجة ولا من يدافع عني.

وأفضل ما يتقرب به العبد إلى مولاه الذكر والدعاء والعمل الصالح.

روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي والدارمي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: **«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ**

ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» [حم٢/٢٥١، بخ١/١٥ ـ ٣٥].

فعليكم إخواني وأخواتي بمجالس الذكر فقد قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وبها تحدث الطمأنينة والسكينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

وعليكم بالاجتهاد في العبادات من فرائض وواجبات ونوافل وغير ذلك من أبواب الخير والبر. واجتنبوا المعاصي والسيئات، ووطنوا أنفسكم مع ما يحب ربكم ويرضاه لكم، والتزموا منهج نبيكم ﷺ تفوزوا وتفلحوا إن شاء الله.

ولله دَرُّ القائل:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكن ... لها أمدٌ وللأمد انقضاءُ
فيُمْسِكُها إذا ما شاء ربي ... ويُرسلها إذا نفذ القضاءُ

فعليكم بالدعاء وصدق اللجوء إلى الله ليتوب عليكم ويقبلكم ويبدل سيئاتكم حسنات إنه كريم العطاء، يحب التوابين ويحب المتطهرين.

٤ ـ الحشر:

ذكر الحشر في مواطن كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى لا يكون هناك أدنى شك أو ريبة عند كل عاقلٍ لبيب في كون ذلك لا محالة وتقوم الحجة على المنكرين والغافلين.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

ويصور الحق تبارك وتعالى مشهد الحشر للمتقين والمجرمين فيقول تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

❁ ويصف حال المجرمين والمهانة التي حلت بهم فيقول تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٩٧].

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشرُ الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً**»، قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعضٍ؟

قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشدُ من أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ**» [متفق عليه بخ١٤/١٧٦، م رقم ٢١٩٤].

❁ وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشرُ الكافر على وجهه يوم القيامة؟

قال: «**أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»؟

قال قتادة: بلى وعزة ربنا. [متفق عليه بخ١٤/١٧٠].

ولقد أطلت في هذا الموضوع لأنه من الأمور المهمة، ولأن كثيراً من الناس - بكل أسف - يكذب البعث أو ينكره أو يستبعده إما جحوداً وكفراً، وإما جهلاً وكبراً، نعوذ بالله من غضب الله، فأنت أختي تجدين الكثيرات إذا نصحتيها بترك معصية معينة قالت لك: «يا أختِ احييني اليوم وأميتني بُكرْة» ومعناها: (أي الجملة) كلها خطأ في خطأ.

فلا يملك أحدٌ لأحدِ الإحياء ولا الإماتة، ولكن الأمر لله وحده، وإذا كانت تقولها تعني اتركيني أعيش أيامي كما أحب فغداً أموت وينتهي الأمر، فهذا هو التكذيب بالبعث. فلنتقي الله في أقوالنا وأفعالنا واعتقادنا.

اللهم اهدنا ويسر الهُدى لنا، واصلح بالنا وأقوالنا وأعمالنا واعتقادنا. . . آمين.

وأختم كلامي بذكر هذه الآيات من سورة الحج [٥ ـ ٧]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

أما عن صفة أرض المحشر فهي كما ورد في الحديث الشريف:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يحشرُ الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء كقرصة النَقِيّ ليس فيها علمٌ لأحد**» [أخرجه مسلم رقم/٢١٥٠].

۞ وأما عن حال الناس في ذلك الموقف فتصوره الآيات الكريمات [الحج: ١، ٢]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

۞ وفي الحديث الشريف عند مسلم وأحمد:

عن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**تدنو الشَّمسُ يوم القيامة على قدر ميلٍ ويزادُ في حرِّها كذا وكذا يغلى منها الهوام، كما يغلى القدور يغرقون فيها على قدرِ خطاياهم. . منهم من يبلغ إلى كعبيه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ومنهم من يبلغ إلى وسطِه ومن من يلجمهُ العرق**» [أخرجه الإمام أحمد/٢١١٦٢، م/٥١٠٨].

وهكذا صورت الآيات والأحاديث أحوال ذلك الموقف وأحوال الخلائق فيه نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ولنتذكر قول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة: ٢٨١: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

وفي الحديث القدسي فيما يرويه ﷺ عن ربه عزَّ وجلَّ:

من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» [أخرجه مسلم وأحمد في مسنده].

فإذا كُنا لا نتحمل الزحام وختم الجوازات وانتظار الأمتعة يوم السفر في الصيف، وهي وإن طالت فترة وجيزة فكيف بيوم الحشر فلنتق الله حتى ننال التكريم في الدنيا والآخرة، ولنحرص على أخذ صحائف أعمالنا باليمين جعلني الله وإياكم من أهل اليمين...

❁ ولله در كلام ابن القيّم إذ يقول:

أما والله لو علم الأنام ... لما خلقوا لما هجعوا وناموا
لقد خلقوا لأمرٍ لو رأته ... عيون قلوبهم ساحوا وهاموا
ممات ثم حشرٌ ثم نشرٌ ... وتوبيخ وأهوالٌ عظامُ
ليوم الحشر قد عملت أُناس ... فصلوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نُهينا ... كأهل الكهف أيقاظٌ نيامُ

ولا شك أن الإيمان بالبعث والنشور والحشر والوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ للحساب كل ذلك يدعو إلى الزهد في الدنيا وشهواتها، ويرغب في الآخرة والعمل لها، ويجعل العبد مؤمناً ربانياً في جميع أحواله سرها وعلانيتها فيكون عف اللسان عفيف النفس حسن الخلق، راغباً فيما عند ربه، زاهداً فيما عند الناس..

ينظر إلى زاده فإذا هو قليل فيجتهد في لزوم الطريق المستقيم لينال

رضى ربه ومولاه، فإذا وُفق لذلك طَهُر باطنهُ وسطع نور الإيمان على وجهه، فالجمال جمال الطاعة، وما القبح إلا قبح المعصية.. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، وصلى الله على الحبيب محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٥ ـ تذكر الحساب ويوم الحساب!!

ما من شك في أن كل إنسان منا مر عليه موقفٌ حُوسب فيه وعوقب منذ الصغر وحتى الكبر، لارتكابه خطأ أو تقصيراً في واجب مدرسي أو إهمالٍ لأمر مهم طلبه منه أحد أبويه.. وهكذا.

والذي يحصل منه تقصيرٌ في عمله ووظيفته يخشى لحظة العقاب والمحاسبة من رئيسه وفضيحته أمام زملائه، وكل واحد من هؤلاء جرب مرارة الموقف وألم وقع العقوبة على نفسه مشاعره أو بدنه أو ماله، وقد لا ينسى نظرات إخوانه وزملائه له في ذلك الموقف مُدة طويلة.

أليس هذا يحملنا على أن نقوم بواجبنا نحو خالقنا ورازقنا كما أمرنا حتى لا نفضح على رؤوس الخلائق. أما نستحي من الله سبحانه الذي وهبنا كل هذه النعم التي نعجز عن عدها وحصرها.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

❁ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يُجمعُ له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً... وإما بشماله إن كان شقياً».

نعم في هذا اليوم العصيب ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: ١٣، ١٤].

﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وفي الحديث المتفق عليه عند البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يُحاسبُ يوم القيامة إلا هَلَك**» فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العَرْضُ وليس أحدٌ يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذب**» [بخ١٤/١٩٣، م/٢٢٠٥].

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل: عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟**» [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمهُ ربه ليس بينه وبينه تَرجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرةٍ**» [رواه البخاري ح١٧/٢٥٥].

❁ **وهكذا نرى أن الحساب حق، والوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ لا بد منه حتى توفي كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون.**

❁ **وقد عرف العلماء الحساب بأنه**: توقيفُ اللّه عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم اعتقاداً أو قولاً أو فعلاً من خيرٍ أو شر(١).

❁ **وفي هذا الموقف العصيب الشديد تأتي كل نفس معها شهودها**

---

(١) العقيدة الإسلامية، د. كمال محمد عيسى ٣٩٧.

وهم كما ذكر بعض أهل العلم أحد عشر شاهداً في الإنسان ستة منها لا تنفك عنه بل هي من أعضاء جسده والأخرى تتبعه وتشهد.

وكما ذكر الشيخ محمود السبكي في الدين لخالص/١٠٢ ـ ١٠٧.

۞ **أما الشاهد الأول والثاني**: (الحفظة الكرام) ففي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١].

قال مجاهد: السائق والشهيد ملكان.

وعن عثمان بن عفان أنه قال وهو على المنبر: «وجاءت كلُ نفسٍ معها سائقٌ وشهيدُ، سائق: ملك يسوقها إلى أمر الله، وشهيدٌ: يشهد عليها بعملها» [ذكره القرطبي في تفسير سورة ق ج٩/١٤].

۞ **الشاهد الثالث: «الأرض»**.

﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة: ٤].

قيل: أي تخبر الأرض بما عُمِلَ عليها من خيرٍ أو شرٍ يومئذ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ قال: «أتدرون» ما أخبارها؟؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عَمِل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا، وكذا.

قال: (فهذه أخبارها) [رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع باب ٢٤٢٩/٧ وقال حسن صحيح].

۞ **الشاهدان الرابع والخامس الليل والنهار**:

عن معاوية بن قُرة عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وأنا عليك غداً شهيد فاعمل خيراً فيّ أشهد لك غداً وأنى لو قد مضيتُ لن تراني أبداً ويقول الليل مثل ذلك»** [ذكره صاحب التدوين في أخبار قزوين ج٢/٩٣].

❁ الشاهد السادس وهو المال:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن هذا المال خَضِرٌ حُلوٌ، ونعم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وأنه مَنْ يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة»** [أخرجه مسلم باب: التحذير من الاغترار بزينة الدنيا].

❁ **أما الشهود الستة التي في الإنسان فهي: «الألسنة والأيدي والأرجل والسمع والبصر والجلود»** كما جاء في كتاب الله تعالى.

قال عزَّ شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

فلنتقي الله تعالى ولنحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب والكيّسُ من دان نفسه واتهمها بالتقصير دائماً. فاليوم عملٌ ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، والغافل من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، وليعلم كل منا أن أمورنا سرها وعلنها لا تخفى على الله.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ... ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبن الله عنك بغافلٍ ولا ... أن ما تخفي عَليه يغيبُ

ولنُدرك ذلك جيداً فنصل ما بيننا وبين الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولنحرص على لزوم منهج الرسول ﷺ، وإن كان عند أحد مظلمة لأحدٍ من العباد فليتحللها منه في الدنيا قبل يوم الحساب حيث لا شيء سوى الحسنات والسيئات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عِرضه أو شيءٍ منه فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم. إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه**» [أخرجه البخاري والترمذي وأحمد].

وصدق صاحب النونية[1] حيث قال: في وصف يوم الحساب!!

يوم القيامة لو علمت بهوله	لفررت من أهلٍ ومن أوطانِ
يومٌ تشققت السماء لهوله	وتشيب فيه مفارق الولدان
يومٌ عبوسٌ قمطريرٌ شرهُ	في الخلق منتشرٌ عظيم الشانِ

٦ ـ ومن العوامل المساعدة على استمرار العبادة وزيادتها عند العبد المسلم تذكرهُ للميزان:

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وقوله عزَّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٦ ـ ١١].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذكرت النار فبكيتُ فقال رسول الله ﷺ: «**وما يبكيكِ؟**» قلت: ذكرت النار فبكيت!! فهل

---

(١) صاحبة النونية: القحطاني ومعروفة بنونية القحطاني وسُميت نونية لأن جميع أبياتها تختم بالنون وهو ما يسمى بالقافية في الشعر.

تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً**».

«عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه، أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز» [أخرجه أبو داود].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ ـ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمٰن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» [متفق عليه].

مما تقدم نعلم أن جميع الأعمال للعباد ستوزن بميزان العدل حتى يظهر العدل الإلٰهي في عفوه وتجاوزه عن الآثام للموحدين، وفي عدله في عذاب الكافرين والمنافقين والملحدين.

وقد ذكر الشيخ السُبكي في كتابه الدين الخالص [ح١٠٧/١]: «أن الميزان له كفتان ولسان ـ كالميزان العادي ـ» توزن فيه أعمال من يحاسبهم الله، والصنج مثقال الذر وما دون الذرة ومثقال الخردلة مصداقاً لقول الحق في الآيات سالفة الذكر.

وذكر ذلك شارح العقيدة الطحاوية وغيرهم من العلماء.

وإذا كنا معشر البشر قد استعملنا مثل هذه الموازيين الدقيقة في صناعة الأدوية وغيرها، فإن هذا دليل قوي على أن الميزان حق، وأن الأعمال ستوزنُ والعباد وصحفهم كما دلت الآيات والأحاديث على ذلك[١].

---

(١) وقد قمت بتحضير بعض المواد الدوائية (بعض المضادات الحيوية) في إحدى شركات الأدوية واستعملت هذه الموازين الحساسة في وزن كل قرص أو عبوة كبسولة قبل كبسها وتعبئتها. وكذا مواد التحضير كل على حدة وبعضها وزنه دون الملي جرام، ولا زال العلم في تقدم، ولا يسعُني إلا أن أقول حقاً إن الله على كل شيءٍ قدير، وإذا كان علماء الطبيعة توصلوا إلى وزن الغازات وقدروا أوزانها وكُتلة كل غاز، وأن الهليوم وهو أخف الغازات وزناً وكذا الأوزان الذرية للعناصر، فهل بقي لمن عنده ذرة عقل أن يشك في قدرة الله على وزن ما شاء؟ سبحانك إنك على كل شيءٍ قدير.

قال تعالى: (عن الكافرين) في سورة [الكهف: ١٠٦]:

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وفي الحديث الصحيح عند البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وعند الإمام أحمد ج١/٤٥٠ عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريحُ تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**ممَّ تضحكون**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد**».

وصدق الله القائل في سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن مسعود: هذه أحكمُ آية في القرآن.

وعن أنس رضي الله عنه: أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وأبو بكر الصدِّيق يأكل، فأمسك!

وقال: يا رسول الله، وإنا لنُرى ما عملنا من خير وشرّ، قال: ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذر الشر، ويُدّخر لكم مثاقيل ذرّ الخير، حتى تعطوه يوم القيامة».

قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وكان ﷺ يسمي هذه الآية الجامعة الفاذة، وروي عن كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمدٍ آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصُحف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[1].

---

(١) تفسير سورة الزلزلة/ القرطبي.

صدق ربُنا وبلغتْ رُسُله وإنا على ذلك من الشاهدين، اللهم ثقل موازيينا وارحمنا واغفر لنا واسترنا في الدنيا والآخرة[1].

٧ ـ الصراط وما أدراك ما الصراط!!!

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

ذكر جمعٌ من المفسرين أن المعنى:

أنه ما منكم من أحدٍ من برٍّ أو فاجر إلا وسيمُر على النار، المؤمن للعبور (أي على الصراط)، والكافر للقرار.

وهذا أمرُ الورود قضاءً لازماً لا يمكن خُلفه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: ننجي من جهنم ـ المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي: نتركهم في جهنم قعوداً على الركب [ذكره الطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم].

قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سُئل: أين الناسُ يوم تُبدلُ الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: «**هم في الظُلمة دون الجسر**»[2] [رواه مسلم ح١/١٧٣].

والصراط كحد السيف، دَحْضٌ[3]، مزلة[4]، وهو جسر على جهنم

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن مسعود قال: «الصراط على جهنم مثل حدّ السيف. فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم. ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلّم سلّم» جامع البيان للطبري تفسير سورة مريم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[5].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية /٤٧٢ ـ ٤٧٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٣) الدحض: الزلق.

(٤) المزلة: الحاملة على السقوط والوقوع لانزلاقها.

(٥) الدين الخالص ج ١٠٩/١ ـ ١١٠.

قال: **على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، فمنهم مَنْ نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً: من نوره في إبهامه يتقِدُ مرة ويطفأ مرة»**[1] [أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير].

قال الشيخ السُبكي في الدين الخالص [ج١/١١][2]:

الصراط: هو جسرٌ ممدود على ظهر جهنم يمر عليه الأولون والآخرون كلٌ بحسب عمله، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح العاصف، وناس كالجواد، وناسٌ هرولة، وناس حَبْواً، وناس زحفاً، وناس يتساقطون في النار. وعلى جوانبه كلاليب - لا يعلم عددها إلا الله - تخطف بعض الخلائق.

فيا أيُها الناسي ليوم رحيله إلى متى ... أنت سائر مع طول الأمل!!
إنا لنفرحُ بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يُدْنى من الأجلِ
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً ... فإنما الربح والخُسران في العملِ

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: كيف يفرح بالدُنيا من يومُه يهدم شهره وشهره يهدم سنته، وسنتهُ تهدم عُمره.. كيف يفرح من يقوده عُمره إلى أجله؟؟؟ وحياته إلى موته!!

ويقول أحد الصالحين مُنشداً ومذكراً:

نجد سروراً بالهلال إذا بدا ... وما هو إلا السيف للحتف يُنتَضى[3]
إذا قيل تم الشهر فهو كناية ... وترجمةٌ عن شطر عُمرٍ قد انقضى
نسيرُ إلى الآجال في كل لحظةٍ ... وأعمارنا تطوى وهُنَّ مراحلُ
ترحلْ من الدُنيا بزاد من التُقى ... فعمرك أيامٌ وهن قلائلُ

(١) تفسير القرطبي والطبري وابن كثير/ سورة مريم.
(٢) تفسير ابن كثير وتفسير سورة الحديد.
(٣) يُنْتُضى: انتضى السيف إذا أخرجه من غمده ليقتل به.

٨ ـ والحوض ـ الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته ـ حق:

إنه حوض نبينا محمدٍ ﷺ وطوله مسيرةُ شهرٍ، مربع الشكل، له ميزابان يصبان فيه من الكوثر بالجنة.

أي: أن حوض رسول الله ﷺ يستمد ماءه من نهر الكوثر بالجنة ـ ذلك النهر الذي وعد الله نبيه إياه تكرماً وفضلاً ـ.

وقد نص كثيرٌ من أحاديثه ﷺ على ذلك:

عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «حوضي مسيرةُ شهرٍ، وزواياه سواء، ومائه أبيض من اللبن، وريحُه أطيب من المسك، وكيزانُه كنجوم السماء، من يشرب منه فلا يظمأ أبداً» [رواه الشيخان بخ١١/٤٧٢، م١٥/٥٥].

والذي يجب علينا هو الاعتقاد بأن للنبيّ ﷺ حوضاً يستمد ماءه من نهر الكوثر، وهذا من الإيمان بالغيب الذي أخبرنا به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من غير زيادةٍ ولا نقصان، ويشرب من هذا الحوض كل موحدٍ صادق التوحيد والله تعالى أعلم.

ذكر الشيخ الدكتور صالح الفوزان في العقيدة الواسطية [ص٩٧]:

قال: «وفي عَرصات القيامة الحوض المورود للنبيّ ﷺ ماؤه أشدُ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آنيتهُ عدد نجوم السماء، طوله شهر وعرضهُ شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

وعليه علماء السلف والخلف أنه ـ يعني الحوض ـ يكون في عرصات الموقف قبل الصراط فيشرب منه أهل التوحيد والإيمان، ويزاد عنه أهل الكفر والضلال والزيغ والمبتدعة في دين الله، فيكون ذلك أول مكافأة للمؤمنين في ذلك الموقف الشديد.

ولله دَرُ صاحب النونية حيث يقول:

وصراطنا حقٌ وحوض نبينا صدقٌ   لــه عــددُ الــنــجــوم أوانِ
يُسقى بها السُنيُّ أعذب شربةٍ   ويــزاد كــل مــخــالــفٍ فــتّــانِ

عن المغيرة قال سمعتُ أبا وائلٍ «عن عبدالله رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: أنا فَرَطُكم على الحوض، وليُرفعَنَّ رجال منكم ثم ليُخْتلَجُنَّ دُوني، فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» [رواه البخاري ح١١/٤٧٢، كتاب الرقاق حديث رقم ٦٥٧٦].

والخلاصة من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوضٌ عظيم، وموردٌ كريمٌ، يُمدُّ من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشدُ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضُه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر.

والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يخْتلج عنه، ويمنع منه أقوامٌ قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يتجاوزون الصراط، انتهى شرح العقيدة الطحاوية/٢٥١.

٩ ـ الكوثر نهر بالجنة عظيمٌ:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ سورة الكوثر وهي مكية.

ما هو وصف ذلك النهر؟

أخرج البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لما عُرج بالنبيِّ ﷺ إلى السماء قال: أتيت على نهرٍ حافتاهُ قِبابُ اللؤلؤ مُجوَّف، فقلتُ ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثر» [بخ٨/٦٠٣، رقم ٤٩٦٤، كتاب التفسير وعند الترمذي ج٣/٣٢٩ ـ باب صفة طير الجنة].

«أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟

قال: هو نهر في الجنة أعطانيهُ ربي، لَهوَ أشدُ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها كأعناق الجُوز.

قال عمرٌ: يا رسول الله، إنها لناعمة.. قال: أُكَلَتُهَا أَنْعمُ منها يا عمر».

فمن منا لا يتوق إلى الكوثر وإلى الشُرب منه بيد سيد المرسلين ﷺ، اللهم إنا نسألك شربةً منه لا نظمأ بعدها، فاحرصي أختي وليحرص كلٌ منا على هذا الخير ويبذل أسباب نيلَه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلُ أمتي يدخلون الجنة إلا من أَبى!!**

قالوا يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**» [رواه البخاري في كتاب الاعتصام - باب الاقتداء بسنته ﷺ].

وبهذا يكون نهر الكوثر عطاءً من الله لرسوله ومكافأة.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: **إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ قال هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهرٌ أعطانيهُ ربي عزَّ وجلَّ في الجنة، عليه خير كثير، يَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيتهُ عدد الكواكب، يختلجُ العبد منهم، فأقول يا رب، إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**» [حم٣/١٠٢، ومثله عند مسلم].

١٠ ـ والشفاعة التي ادخرها لهم حق:

قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٤٤﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

تعريف الشفاعة:

هي لغة: الوسيلة والطلب.

وعُرفاً: سؤال الخيّر للغير.

وتكون من الله لمن شاء من عباده ومن الأنبياء والعلماء العاملين والشهداء والصالحين.. والله أعلم.

والآيات السابقة تقرر أن الشفاعة لله جميعاً ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ وأنه لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الله تعالى.

وأما مقام الشفاعة الذي هو المقام المحمود الخاص بسيّد الخلق أجمعين - عليه الصلاة والسلام - فهو حق ويجب الإيمان به.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: سُئل النبيّ ﷺ عن المقام المحمود في الآية. فقال: «**هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه**» [أخرجه الترمذي ج٤/١٣٧ (التحفة)].

قال ابن جرير الطبري في تفسيره: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه رسول الله ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وقال الواحدي في أسباب النزول: إجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء.

وأهل السُنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعات كلها لثبوت أدلتها وأنها لا تتحقق إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ويجمع الشرطين قول الحق تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وأول من يدخل الجنة محمد ﷺ، ثم يشفع بإذن الله في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء من أول آدم حتى عيسى عليهم السلام عن الشفاعة حتى تنتهي إليه ﷺ، ثم يشفع في أهل الجنة أن يدخلوها بعد الفراغ من الحساب. وهاتان الشفاعتان خاصتان به عليه الصلاة والسلام، ثم يشفع فيمن استحق النار ـ وهذه الشفاعة له ولسائر النبين والصديقين وغيرهم فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها[1]. ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها» [العقيدة الواسطية، صالح الفوزان ص١٠٠ ـ ١٠١].

وعلى هذا فيجب على المكلفِ أن يعتقد أن النبيّ ﷺ شافع مقبول الشفاعة، وأنه أول شافعٍ وأول مشفعٍ وأول من يقضي بين أمته، وهو أول من يجوز على الصراطَ وأول من تفَتح له الجنة وهو سيد ولد آدم على الإطلاق.

عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ قال: «**أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافعٍ وأول مُشفعٍ**» [أخرجه مسلم].

في حديث الشفاعة الطويل المعروف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم، فدفع إليه منها الذراع، وكانت تُعجبُه، فنهس منها نهسة، ثم قال: **أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لِمَ ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ فيقول بعض الناس لبعضٍ: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يَشفع لكم إلى ربكم؟**».

فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، ثم نوح، حتى يبلغوا عيسى فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك

---

(١) يعني من الموحدين.

ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر فأشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح اللَّهُ عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي.

فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سلْ تُعطه، اشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شُركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: **والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرى**» [أخرجه أحمد ح٢/٤٣٥ مثله عند الشيخين].

وشفاعة النبيّ ﷺ متعددة وهي أنواع:

۞ فمنها: الشفاعة الأولى والعظمى الخاصة به ﷺ وهي شفاعته لإدخال قومٍ من أمته الجنة بغير حساب.

قال سعيدُ بن المسيب: «أن أبا هريرة حدَّثهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**يدخل الجنة من أمتي زمرةٌ هم سبعون ألفا تضيءُ وجوهُهم إضاءة القمر ليلة البدر**». وقال أبو هريرة: فقام عُكاشة بن محصن الأسديُّ يرفع نمرةً عليه فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عُكاشة» [بخ١١/٤١٣ ـ ٤١٤ كتاب الرقاق رقم ٦٥٤٢].

۞ ومنها شفاعته ﷺ في أقوامٍ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع ﷺ فيهم فيدخلوا الجنة.

۞ ومنها شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم «هم درجات عند الله...». (١)

۞ ومنها الشفاعة في قوم من أمته موحدين فيخرجون من النار بعد القضاء الذي كتب الله عليهم وهم أهل الكبائر من أمته.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» [رواه الإمام أحمد وله شواهد وهو صحيح].

ومنها شفاعته لقوم من المؤمنين عامة ولمن يسأل له الوسيلة بعد إجابة المؤذن ليؤذن لهم في دخول الجنة.

وفي الحديث عند مسلم (وهو حديث الشفاعة الطويل).

عن أنس وذكر الحديث حتى قال: ..... فيقالُ: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسْمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إلٰه إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إلٰه إلا الله» [أخرجه مسلم].

ومنها شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب والله تعالى أعلم.

ومنها شفاعته وشفاعة الملائكة وشفاعة المؤمنين والشهداء، وكل ذلك قد ورد فيه دليل.

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال: «فيقول الله تعالى شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» [أخرجه مسلم ح١/١١٥ ـ ١١٦، حم٣/٩٤].

أخواتي الكريمات وبعد هذا العرض أسأل الله أن يرزقنا العلم النافع ويهدينا للعمل الصالح والتزام شرعه، وأن نكون من أهل التوحيد الخالص لله تعالى، وأن نلتزم سُنة نبيه ﷺ، حتى ننال الشفاعة ونزحزح عن النار فنفوز.

ولله درُّ كلام ابن الجوزي عندما ناجى ربه قائلاً:

يا كثير العفو عمن كثُر الذنبُ لديه جاءك المذنب يرجو الصفح من جُرم يديه
أنـا ضـيـفٌ وجـزاء الـضـيـف إحـسـانٌ إلـيـه

١١ ـ تذكر النار... التي وقودها الناس والحجارة:

اتفق أهل السُنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وهذه النار التي وعدها الله الكافرين والملحدين والمشركين الظالمين والمغضوب عليهم والضالين حق، وهي دار عذابهم المقيم وقرارهم وخلودهم أبد الآبدين.

مخلوقة الآن وفيها الزقوم والغِسْلين والمهلِ ومقامع من حديد، ثيابهم فيها قُطعت من نار وشرابهم من نار وطعامهم نار يُصْهر به ما في بطونهم والجلود، لا ينتظرون بعد سخط الله عليهم خيراً أبداً، فليس بعد النار خير.. وكل بلاء دون النار عافية، وكل نعيمٍ دون الجنة حقير!!!

قال تعالى مصوراً حالتهم السيئة في دار البوار:

۞ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢].

۞ وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

۞ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [التحريم: ٦، ٧].

وهذه صورة أخرى لما هم فيه من الخزي والمهانة والعذاب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

فكثيرة هي الآيات التي تصور النار وحال أهلها، نعوذ بالله منها وكذلك جاءت الأحاديث الكثيرة في ذلك ومنها:

ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: **«ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»** قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال: **«فإنها فُضِّلت بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»**.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدُنيا لأفسدت على أهل الدُنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»** [أخرجه أحمد والنسائي والحاكم والترمذي وقال صحيح].

وعن النعمان بن بشير أن النبيّ ﷺ قال: **«إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماعه كما يغلي المِرْجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وأنه لأهونهم عذاباً»** [أخرجه مسلم ح٨٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربِّ آكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين نفسٌ في الصيف، فأشدُ ما تجدون من الحرّ، وأشد ما تجدون من الزمهرير»** [رواه البخاري ج٦/٣٣٠/٣٢٦٠].

هذا ولنعلم أنه لا يخلد في النار موحدٌ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله خالصة بها نفسه مهما ارتكب من كبيرة، بل يعذب فيها القدر الذي قضاه الله عليه فيها، ثم يخرج منها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة].

ولقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾.

وهؤلاء يخرجون من جهنم بأمر الله، ثم شفاعة النبيّ ﷺ فيغمسون في نهر الحياة، ثم يدخلون الجنة ويعرفون بالجهنميين.

عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودّوا فيُلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها صفراء ملتوية؟!**» [أخرجه البخاري ح١/٥٥، م٣/٣٥ ـ باب إخراج الموحدين من النار].

ولقد أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام أن أكثر أهل النار النساء، فلماذا هُن أكثر أهلها؟

عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قُمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدِّ[1] محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أُمِرَ بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء!!!**» [رواه الشيخان بخ١٤/٢٠٩، م حديث رقم ٢٠٩٦].

وأما لماذا هُن أكثرُ أهلها فالجواب في هذا الحديث الشريف:

عن عبدالله بن عُمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكُن أكثر أهل النار!**» قالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أغلب لذي لُبٍ منكن**».

قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟

قال: «**أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل. فهذا نقصان**

---

(١) أي الأغنياء.

العقل، وتمكث الليالي وما تُصلي، وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين» [رواه مسلم ح١/١٣٢، ص٧٦، ورواه الحميدي في مسنده ح٥١/١، حديث رقم **٩٢**].

فيا أختي المسلمة عليك بحسن الخلق والتحلي بالصبر والتجمل بالحكمة، والله يهديني وإياكن لما يحبه ويرضاه من القول والفعل والعمل.

قال عمر رضي الله عنه: «أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد».

وقال الحسن البصري: والله ما صدق عبدٌ بالنار قطُ إلا ضاقت عليه الأرض بما رحُبتْ، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها».

وسُئل سعيدُ بن جُبير: لما لم تضحك قط؟؟

قال: كيف أضحك وجهنم قد سُعرت، والأغلال قد نُصبتْ والزبانية قد أُعدتْ!!!

ويقول صاحب النونية واصفاً ذلك الموقف:

والجنة العُليا ونار جهنم	داران للخصمين دائمتان
يوم يجيء المتقون لربهم	وفداً على نُجبٍ من العقيانِ
ويسير فيه المجرمون إلى لظى	يتلمظون تلمظ العطشانِ
ودخول بعض المسلمين جهنماً	بكبائر الآثام والطُغيانِ
والله يرحمهم بصحة عقْدهم[1]	ويبدلوا من خوفهم بأمانِ
وشفيعهم عند الخروج محمدٌ	وطهورهم في شاطىء الحيوانِ
حتى إذا طهروا هنالك أُدخلوا	جنات عدنٍ وهي خير جنانِ
«فالله يجمعنا وإياهم بها	في غير تعذيبٍ وغير هوانِ»

اللهمْ آمين.. آمين.

---

(١) عقدهم: معتقدهم.

وللنار أسماءٌ منها: دار البوار، ودار القرار، ودار الخزيّ. وجهنم: يقول العربُ: بئرٍ جهّنام أي: بعيدةٌ قعرهُ!!

والنار، والجحيم، والسعير، سقر، الحُطمة، نار الله الموقدة، ونارٌ مؤصدة، والمشأمة، والساهرة، الهاوية، لظى، السموم واليحموم (لأنها شديدة السواد فكل ما فيها أسود)، ودار الخُلد.

فلنتأمل معنى هذه الأسماء والتي تحمل من الهول والعظائم ما لا نحتمله، فإذا كُنا نتأذى من يسير النار في الدنيا فكيف بنار الآخرة أعاذني الله وإياكم منها.

ويرحم الله إبراهيم العجلي حيث قال:

وأنت تأذى من حسيس بعوضةٍ فللنارُ أشقى ساكتين وأوجع

وقال آخر:

وفي جهنم ماءٌ ما تجرعهُ حلقٌ فأبقى له في البطن أمعاء

فلنتذكر جميعاً أن النار ـ كل نار الدُنيا ـ مجرد جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة. ونارُ الدُنيا تشملُ جميع أنواع النيران المستخدمة في البيوت والمطابخ العامة والخاصة، ونيران المصانع باختلاف أنواعها تلكم النيران التي تستخدم لصهر المعادن وإذابة الحديد والنحاس والذهب والزجاج وصناعتها، وتحليل العديد من المواد الكيماوية وتصنيعها في الأفران العالية، وهذه المصانع العملاقة لتصنيع الحديد والصُلب وصناعة المعدات الحربية والطائرات وما إلى ذلك من نيران المخابز وحتى نيران البراكين، أضف إلى ذلك كله نيران الحروب والدمار والمتفجرات وقنابل النابالم والانشطارية والعنقودية وغيرها، وحرائق النفط وغير ذلك، وكلها عبارة عن حمم جهنم ومع ذلك فجميعُها في كل بقاع الدُنيا ما هو إلا جزء واحد من نار الآخرة فاللهم سَلِّم سَلِّم، اللهم حرم أجسامنا وبشرتنا وأعضاء أبداننا على النار برحمتك يا أرحم الراحمين.

لما ماتت النوار امرأة الفرزدق (الشاعر) وكان يحبها وقف على قبرها حزيناً وقد اتعظ بالموت فأنشأ يقول:

أخافُ وراء القبرِ بان لم يُعافني ربي ... أشد من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسوَّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من ... مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يُساق إلى نار الجحيم مُسربلاً ... سرابيل قطران لباساً محرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ... يذوبون من حرِّ الصديد تمزقا

ونحن متى نتعظ!! ومتى ننتهي من غفلتنا وقد أزفت الآزفة...

وأذكركم بحادثة حدثت في مصنع للحديد والصُلب وهي حقيقة وليس خيالاً عندما كان العُمال يقومون بتنظيف أبراج الصَّهرِ من الداخل قام أحدُ العُمال ظناً منه أن الجميع قد خرج منها بعد تنظيفها، فأدار آلات الصهر وإذا بأحدِ العُمال ما زال في أحد هذه الأبراج، فنزلت عليه كمية من الحديد المذاب فذاب فيها تماماً، وتنتقل الخلطة بعد ذلك للتشكيل والتصنيع، فلما تبيّن زملاؤه ذلك أسفوا أشد الأسف لما حدث!! ولكن الخلطة استبعدت لاحتوائها على شوائب ذلك الرجل المذاب فيها!!

فهذه نار من نار الدنيا فعلت هذا فكيف بنار جهنم.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرحمن: ٤٣ ـ ٤٥].

اللهم لا بشيءٍ من نعمك نكذب أبداً..

فاحذري أختي أن تكوني مع أهل الخزي والكفر والعناد في النار واستمعي إلى تهديد الله لهم ووعيده إياهم حيث يقول:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت: ٢٧، ٢٨].

«اللهم إنا نسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار..»
آمين.. آمين.

١٢ ـ الجنة نعم الثواب للمتقين:

والرغبة في الجنة من أهم العوامل المساعدة على استمرار العبادة وزيادتها، لأنه كلما كان الهدف عالياً وسامياً كانت الهمة عاليةً، والجهد والمثابرة في تحقيقه في أعلى درجة، وليس دون الجنة خيرٌ وكل بلاءٍ دون النار خيرٌ وعافية.

جاء ذكر الجنة في آيات كثيرة جداً في كتاب الله تعالى وذلك من باب الترغيب والتشويق إليها، ولما أُعد للمتقين فيها من ألوان النعيم والسرور.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٨ ـ ٧٣].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ٩، ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: ١٩].

ولا تزال الآيات كثيرة في ذكر الجنة وأهلها، ولا يتسع المقام لجميعها ونكتفي بما ذُكر، فلعل الله ينفع بها.

وقد بوبت كتب الحديث أبواباً في الجنة وصفتها ووصفت أحوال أهلها، وهي كثيرة أيضاً ونختار منها الآتي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطُها المسك الإذخر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتُرابُها الزعفران. من يدْخُلها ينْعُم ولا يبؤس، ويخلّد ولا يموت، ولا تُبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم**» [أخرجه أحمد، الترمذي وابن حبان والدارمي والبزار].

وعن أسامة بن زيد أن النبيّ ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**ألا مشمر للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها هي وربُ الكعبة نورٌ يتلألأ وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مُطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحُلَلُ كثيرة في مقامٍ أبداً في حبرة ونضرة في دور عالية سليمة بهية**»، قالوا: نحن المشمرونَ لها يا رسول الله. قال: «**قولوا إن شاء الله**»، ثم ذكر الجهاد وحض عليه، [أخرجه ابن ماجه ج٢/٣٠٦ وغيره].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً**» [أخرجه البخاري في صفة الجنة].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً. فيقولون وأنتم والله قد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً**» [رواه مسلم رقم/٢١٧٨].

ألا وإن فوق ذلك النعيم كله منحة عظيمة يعطاها أهل الجنة، ألا وهي رؤية الله عزَّ وجلَّ وحلول رضوانه عليهم.

لما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: «للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة». قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه.. فيقولون: ما هو؟**

ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجيرنا من النار؟! فيكشف الحجابُ فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة».

وصدق ربُنا حيث يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقد أجمع الصحابة والتابعون وأهل السُنةِ والحديث على ثبوت رؤية الله في الآخرة للمؤمنين بغير إحاطةٍ ولا كيفية، وهذه الرؤية يُحرم منها الكافرون لأنهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله لم يستحقوا رحمته عزَّ وجلَّ، وما الله بظلامٍ للعبيد.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٧].

قال الحسن بن الفضل: كما حجبهم في الدُنيا عن توحيده حجبهم في العُقبى عن رؤيته!!

وقال مالك بن أنس: لما حَجب أعداءه فلم يروه، تجلى لأوليائه حتى رأوه.

وقال ابن القيم رحم الله الجميع: إن نعيم القلب والروح بإزالة الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشُرب، والتمتع بالحور العين فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم.

ولهذا جمع الله سُبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى الجنة، والزيادة رؤية وجهه الكريم في جنات عدنٍ، وجمع لأعدائه بين العذابين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم، ووحشة الحجاب وألمهُ أشد من ألم العذاب» انتهى كلامه.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً**» [أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ـ باب صفة الجنة والنار ح٤٢٢/١١ رقم ٦٥٤٩].

وللجنة أسماءٌ طيبة كثيرة نذكر منها:

الجنةُ: البُستانُ ومنه الجنَّاتُ والعرب تسمى النخيلَ (جنة) الفردوس وهي أعلى الجنة، وجنةٌ عالية، جنة الخلدِ، جنات النعيم، جنات عدن، جنة المأوى، دارُ السلام.

❁ أختي المؤمنة ألم تتشوقي للجنة بعد هذا العرض المختصر لها... ألم تَتُقْ نفسك إليها.. أما تريدينها الآن!! فهلمي واطرحي الكسل والتسويف ولا تضيعي وقتك الذي هو حياتك فيما لا ينفع فإن سلعة الله غالية. فاجتهدي في تحصيل المهر ودفع الثمن.. إنها الجنة...

ومن الأمور التي حث عليها نبينا ﷺ العباد لتكون بلاغاً لهم إلى الجنة حَسن الخلق وسلامة الصدر، وعدم الغش لأحدِ من عباد الله، وكثرة الاستغفار والذكر وحُسن التبعل.

عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المراءَ وإن كان محقاً، وببيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنة لمنْ حَسُنَ خُلقه**» [رواه أبو داود في الأدب ص٢٥٣، رقم ٤٨٠٠/ج٤].

وربضُ الجنة: فِناؤها، والمراء: الجدال.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليُدرك بحسنِ خُلقه درجة الصائم القائم**» [رواه أبو داود ج٤، كتاب الأدب ص٢٥٢، رقم ٤٧٩٨].

وقوله ﷺ: «**إن استطعت أن تُصبح وليس في قلبك غشٌ لأحدٍ من المسلمين فافعل**» [**أخرجه الترمذي في كتاب العلم ج٥/٤٦**، رقم ٢٦٧٨].

ولقد كان ﷺ المثال الفريد في العفو والصفح وسلامة الصدر فما أحوجنا أن نتعلم منه ذلك الأدب الجم وهذا الخلق الرفيع.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيّ ﷺ إذا قام من الليل يتهجد يقول: «**اللهم لك الحمدُ أنت نور السماوات والأرض ومن فيها، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت الحق ووعدك الحق والنبيون حق ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت، وإليك أنبت وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إلٰه إلا أنت**» [رواه البخاري ج١١/١٢٠، رقم ٦٣١٧، كتاب الدعوات].

فاللهم صلي وسلم على مُعلِّم الناس الخير الذي أوتي جوامع الكلم..

لعلنا نتعلم من هديه ﷺ ونتأسى به فهذه الدعوات جمعت تحقيق التوحيد بأنواعه وتقديس الرب سبحانه وإعلان الولاء له والحب فيه والبغض فيه، وأنه تعالى أحاط بكل شيءٍ علماً، وأن أمر العباد كلهم بيده تعالى لأنه الإلٰه الواحد. كما لا يخفى ما للذكر من شأن بين العبادات وفي تنقية ساحة المؤمن من الذنوب والمعاصي مع أنه أيسر العبادة وأوسعها.

روى الإمام أحمد والترمذي أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الحمد لله وسُبحان الله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر تُساقط ذنوب العبد كما يتساقط ورق الشجر**» [حم٣/١٥٢، ت٤/٥٤٤٠، رقم ٣٥٣٣].

فاحرصي أُختي على أن يظل لسانك رطباً بذكر الله واتق الله في

زوجك وأطيعي الله فيه كي تنالي ثواب الله العظيم وهو الجنة.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأةٍ ماتت، وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة**» [رواه الترمذي وقال حديث حسن].

وإليكم هذه الملاحظة الهامة:

لقد اقترن الإيمان بالعمل الصالح في جميع الآيات القُرآنية التي تحدثت عن المؤمنين، لأن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد، حيث لا ينفع الإيمان بدون عملٍ صالح والعملُ الصالح بدون إيمان.

قال تعالى في صدر سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [١ ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال تعالى في سورة الفُرقان بعد الكلام عن عباد الرحمٰن وكيف ارتبط إيمانهم بسلوكهم وعملهم. جاء الكلام عن التائب من الذنوب، وكيف ارتبطت التوبة بالإيمان بالعمل الصالح التي هو ترجمة لصدق التوبة. فقال عزَّ من قائلٍ عليماً: ﴿... إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ۝٧١﴾ [٧٠ ـ ٧١].

نعم إنها الجنة لمن اقترن إيمانهُ بعمله الصالح الموافق لما شرع الله، وافق منهج الله ورسوله ليجمع بين الإخلاص والمتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١﴾ [البروج: ١١].

❁ وجمعت ذلك كله سورة العصر ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

فمن يُرد مُلك الجنان	فليدع عنه التواني
وليصل صوماً بصوم	إن هذا العيش فاني
إنما العيش جوار اللَّـ	ـه في دار الأماني!!

❁ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه، وقد كان ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفسٍ لا تشبع، ودعاءٍ لا يُسْمع، وقلبٍ لا يخشع**» [الفتاوى ج١٠/٢٧١ ـ ٢٧٢].

وقال ابن القيّم: قلبُ المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله فإذا لاحظ جلاله هابه وعَظّمه. وإذا لاحظ جماله أحبهُ واشتاق إليه» [الفوائد/١٨٠].

وقال أيضاً: «من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان. ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبرّ واللُطف، ومنهم من يعرفه بالقهر والمُلك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته.

وأعَمُ هؤلاء معرفةً من عرفه من كلامه فإنه يعرفهُ رباً قد اجتمعتْ له صفاتُ الكمال ونعوت الجلال مُنزهٌ عن المثال بريء من النقائص والعيوب، له كل اسمْ حسن وكل وصف كمال، فعّالٌ لما يريد، فوق كل شيء وقادر على كل شيء ومقيم لكل شيء آمرٌ ناه متكلمٌ بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء وأرحم الراحمين وأقدرُ القادرين وأحكم

الحاكمين... فالقرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه» [ص١٨٠].

۞ يقول تعالى ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٢ ـ ١٣٤].

وهذا سؤال يطرح كثيراً: إذا كانت الجنة عرضها كعرض السماوات والأرض... فأين النار؟؟

قال ابن جرير الطبري: قال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما الكرسيُ في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرض»** [رواه أبو داود والحديث صحيح].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمٰن ـ إلا كخردلة في يد أحدكم» ولله المثلُ الأعلى وليس كمثله شيء. [شرح العقيدة الطحاوية/٣١٢ ـ ٣١٤].

وعندما أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي يدعوه للإسلام ويبشره بجنة عرضها السماوات والأرض. أرسل النجاشي إليه ﷺ قائلاً: إذا كانت الجنة عرضها كعرض السماوات والأرض؟ فأين النار؟

فقال ﷺ: **«فأين الليلُ إذا جاء النهار!! والجنةُ أعلى عليين والنار أسفل سافلين»**، أو كما قال ﷺ: **«مثل السماوات والأرض في عرش الرحمن كمثل دراهم ألقيت في فلاة، ومثل الكرسي كدراهم ألقيت في اليم»**. [ص٣١٤].

فسبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على حمى الشوك والمحمي من الإبر
لم نبلغ العُشر من معشار رحمته ... ولا العُشيّر ولا عشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركهُ ... سبحانه من مليكٍ نافذ القدر
سبحان من هو أُنسي إذ خلوتُ به ... في جوف ليلى وفي الظلماء والسحر



المبحث السابع
معوقات العبادة

لما كان للعبادة عوامل مساعدة تدفع إلى صلاحها وزيادتها والإخلاص فيها، كان لها أيضاً معوقات تقف دون المُضي فيها، أو تحول دون الزيادة فيها بل يكون النقصان، ثم التخاذل حتى يفضي الأمر إلى تركها عياذاً بالله أو أن تؤدي مشوبة بالرياء والسمعة والكسل، ثم التحلل من السُنة والتمسك بالبدع فيكون الضلال والضياع.

وأهم تلك المعوقات: ١ ـ اتباع الشيطان:

ذلك الجنيُّ المتمرد.. ناري الخلقة والطبع، عداؤه للإنسان قديم والحرب بينهما سجال، وجذور تلك العداوة ترجع إلى آدم أبو البشر عليه السلام وليست وليدة اليوم!!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٥].

إنه الحسد والكِبْر.. كيف يسجد ذلك الإبليس لآدم أو البشر؟! وكيف يُكرم آدم المخلوق من طين على سائر المخلوقات؟.. كيف؟

ورسمت الآيات في نسقٍ جميل قصة ما حدث.. ولكن هل يهدأ إبليس ويكف عن عدائه لآدم وذريته؟ وكيف يحدث ذلك وآدم هو سبب طرده وشقائه.. إنها نار الحسد التي لا تهدأ ففكر في الانتقام لنفسه فطلب الأنظار..

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾... قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ هكذا أخذ الإجابة سريعاً فاشتاط غضباً وقرر الانتقام.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٨].

وهكذا أخبر سُبحانه وتعالى أن الشيطان سيقعد لابن آدم على كل طريق توصل إلى الله، وهو فاعلٌ ذلك لا محالة.. ولكن هيهات ثم هيهات إنما سيغوى من ذرية آدم أهل الأهواء والبدع وأصحاب الشهوات مرضى القلوب الذين رضوا بالحياة الدُنيا واطمأنوا بها، ولا سلطان له البتة على أهل التوحيد الخالص أهل الإيمان الراسخ أهل السُنة والجماعة لأنهم حزب الله...

❁ قال جمهور المفسرين والنُحاة: «قول إبليس اللعين: لأقعدن لهم صراطك المستقيم»... كأنه قال: لألزمَنّه، ولأرصُدَنّه، ولأعوِّجنهُ.. ونحو ذلك».

قال ابن عباس: «دينك الواضح»، وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله»، وقال جابر: «هو الإسلام»، وقال مجاهد: «هو الحق» وجميع العبارات بمعنى واحدٍ، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وفي ذلك يقول ﷺ: **«إن الشيطان قعد لابن آدم بأطراقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسْلم وتذر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتَذَر أرضك وسماءك؟ وإنما مثلُ المهاجر كالفرس في الطُول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال فقال:**

تقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاهُ مجاهد» [رواه أحمد ح٣/٤٨٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي من قِبل الدُنيا»، وقول آخر: «**أشككُهم في الآخرة**»، وقال مجاهد: «من حيث يبصرون».

وقال الحسن البصري: «من قِبَل الآخرة: تكذيباً بالبعث والجنة والنار».

وقوله: «ومن خلفهم» قال ابن عباس: «**أرغبهُم في دُنياهم**».

وفي قول آخر: «من قبل الآخرة».

قال أبو صالح: «أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم».

وقال الحسن: «من قِبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم».

«وعن أيمانهم» قال ابن عباس: «أشبه عليهم أمر دينهم».

وقال أيضاً: «من قِبل حسناتهم».

وقال أبو صالح: «الحق أشككهم فيه».

وقال الحسن: «وعن شمائلهم: السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم».

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ولم يقل من فوقهم لأنه يعلم أن الله من فوقهم».

قال الشعبي: «فالله أنزل الرحمة عليهم من فوقهم».

وقال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجهة غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله..».

۞ وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثلٌ لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه.

ويقول ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان:

«إن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يَهمُّ بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه».

ففي الصحيح عن النبيّ ﷺ: «**إن شيطاناً تفلّت عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليَّ صلاتي...**» الحديث.

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر».

۞ وقال منصور عن مجاهد رحمه الله: «ما من رُفقةٍ تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليسُ مثل عِدَّتهم» [رواه ابن أبي حاتم في تفسيره].

وهو بالرصد، لا سيّما عند قراءة القُرآن، لذا أمر الله تعالى العبد أن يحاربهُ ويقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يأخذ في السيّر.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩].

وهكذا نجد أن كيد الشيطان متشعب الأهداف وله مع كل طريق إلى الله ألف حيلة وأُمنيّة وكيد ودهاء، ولقد سهل له الوصول إلى تلك الطرق أمران بدأ بهما وزينهما لكثير من الناس ألا وهما العُري والفاحشة...

وتعالوا بنا لنسمع ذلك من خلال كلام الله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧].

فانظروا كيف أن الله سبحانه يأمُرنا بالسِتر والحياء ولزوم العفة...

والفطرة السليمة تنادي بذلك، ولكن الشيطان وجنوده يدعون للعُري والفُحش والرذيلة وهي دعوة مسعورة جُنِدَ لها أبواقٌ كثيرة ووجدت رواجاً كبيراً في سوق اللحوم البشرية الرخيصة.

وكثيرون هم الذين يتحللون من عُرى الإسلام جملة واحدة وينساقون بكل بهيمية مع الشيطان لما لديهم من خواءٍ روحي وفراغ قلبي يصفهم الحق تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وهذا ما يريده الشيطان من الغافلين عُريٌ وتفسخ وانحلال وتردي دون مستوى البهائم حتى غدت اللحوم البشرية أرخص اللحوم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ورحم الله صاحب الظلال إذ يقول في تفسير الآية: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

فهناك تلازمٌ بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى وكلاهما لباس. هذا يستر عورات القلب ويزينه وذاك يستر عورات الجسم ويزينه وهما متلازمان.

فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عُري الجسد والحياء منه.

ومن لا يستحي من الله ولا يتقه لا يُهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العُري.. العُري من الحياء والتقوى، العُري من اللباس وكشف السوأة!

إن ستر الجسد حياءً ليس مجرد اصطلاح وعُرف بيئي، كما يزعم أصحاب الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم وفق الخطة اليهودية البشعة. إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر وأَقْدرهم على تنفيذها بما سخر لهم من مُقدرات وأرزاق.

والله يُذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عُرف البهائم!

ولذلك يقول في آخر الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم والدعوة السافرة لهم إلى العُري الجسدي باسم الزينة والحضارة والمدنية وبين الخطة اليهودية، الصهيونية لتدمير إنسانيتهم والتعجيل بأغلالهم.

والزينة الإنسانية هي زينة السِترِ، بينما الزينة «الحيوانية» هي زينة العُري.. ولكن الآدميين في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!

۞ إن بيوت الأزياء ومُصمْميها وأساتذة التجميل ودكاكينها لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيقُ منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك: إن هذه الأرباب تُصْدِرُ أوامرها، فتطيعها القُطْعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مُزرية.. ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء؟ ودكاكين التجميل؟ ووراء سُعار العُري والتكشف!!

ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص والمجلات والصُحف التي تقود هذه الحملة المسعورة.. وبعضُها يبلغ من هذا إلى حد أن تُصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلاً للدعارة!!

والذي يقبع وراء هذا كله ـ وفي العالم كله ـ يهود.. يهود، أهدافهم في تلهية العالم بهذا السُعار، إشاعة الانحلال النفسي والخلقي وإفساد الفطرة وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل! والتي تحقق لهم أهدافاً اقتصادية[١]...

---

(١) تفسير الظلال، ج٣، ص١٢٧٨ إلى ١٢٧٩ ـ ١٢٨٤.

وصدق الحق إذ يقول في محكم تنزيله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

ويقول تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

أختي المسلمة وبعد هذا العرض ليختر كل منا طريقه.. والعاقل من طلب طريق الله وسبيل نبيّه ﷺ وألزم نفسه السيّر على ذلك.. والغافل يستمر مع شيطان هواه والنهاية الهاوية.. نعوذ بالله من غضب الله وسخطه وأليم عقابه.

٢ ـ حُبُّ الدنيا وحُب النساء واتباع الشهوات!!

وهذه المعوقات ثلاث أيضاً تحول بين العبد وبين سيّره إلى مولاه، أو على الأقل تعرقل سيّره وتكثر تعثره وسقطاته.

يقول تعالى ذكره: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

ولقد بيّن سبحانه وتعالى ـ في آيات كثيرة ـ قيمة الدُنيا في الميزان الرباني فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

وقال عزَّ شأنه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ!!!﴾ [الرعد: ٢٦].

وأما عن قيمتها وقدرها في السُنة النبوية فكما صورها الحبيب ﷺ

قال ﷺ مخاطباً الأنصار وقد سرهم مجيءُ أبو عبيدة من البحرين ومعه مال من الجزية: «. . .**فأبشروا وأملوا ما يسُرُكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطتْ على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها. . وتهلككُم كما أهلكتهم**» [أخرجه مسلم في كتاب الزهد م١٨/٩٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول العبدُ مالي. . مالي. . إنما له من ماله ثلاث. . ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأقنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**» [م١٨/٩٤].

وبين عليه صلوات الله وسلامه حقيقة الدُنيا فقال: «**الدُنيا سجن المؤمن وجنةُ الكافر**» [رواه مسلم في الزهد م١٨/٩٣].

وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ مَرَّ بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كَنَفَتَيه، فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «**إيكم يحب أن هذا له بدرهم!!**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنعُ به. . قال: «**أتحبون أنه لكم**»، قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه لأنه أسكُ فكيف وهو ميت!! فقال: «**فوالله للدُنيا أهون على الله من هذا عليكم**» [رواه مسلم في الزهد].

وهكذا يضرب ﷺ لهم الأمثلة ولا سيّما الأمثلة العملية والتي من شأنها التأثير في النفس ودوام تذكرها ليكون ذلك أبلغ في التذكرة.

وأما عن قيمة الدُنيا في ميزان السلف الصالح فكانت وسيلة للزرع للآخرة، وما كانت إلا معبراً وممراً إلى دار السلام.

فهذا علي رضي الله عنه: «ارتحلت الدُنيا مُدبرة، وارتحلت الآخرة مُقبلة، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من

أبناء الدُنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل» [البخاري في الرقاق ـ باب في الأمل وطوله خ١١/٢٣٩].

ولقد خط لهم الرسول ﷺ ماهية الدُنيا وكيف يكونون فيها، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: **«كُنْ في الدُنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»**.

وكان ابن عمرَ يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» [أخرجه البخاري في الرقاق ـ باب كن في الدنيا كأنك غريب.. ج١١/٢٣٧، رقم ٦٤١٦].

ولقد حقق الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ذلك في أنفسهم وترجموه عملياً في حياتهم، ولنذكر مثالاً منهم.

وليكن علي رضي الله عنه حيث يصفه ضرار الصدائي وقد جلس إلى معاوية رضي الله عنهم أجمعين، وذلك بعد استشهاد علي رضي الله عنه.

فقال ضرار واصفاً علياً وكان صديقاً له: «لقد كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً ويحكم عدلاً، ويتفجر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدُنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير العَبْرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبُه من اللباس ما قصُر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا، لا نكادُ نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف في عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وقد مَثُلَ في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململَ السليم، ويبكي بكاء الحزين، يقول: يا دنيا غُري غيري، أإليّ تعرضت؟ أم إليّ تشوفت، هيهات هيهات.. لقد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق!!

فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك..

ثم قال: فكيف حزنك عليه يا ضرار؟؟

قال: حزنُ من ذُبح واحدها في حجرها.

فإذا كان هذا حالَ علي فكيف بحال رسول الله ﷺ وزهده الذي لا يخفى على أحد..

والدنيا وسيلة عند عباد الرحمٰن، وهي أرض خِصْبة يزرعون فيها الأعمال الصالحة، ويغتنمون كل لحظة من أوقاتها في طاعة ربهم، لأنهم يعلمون أنها مرحلة انتقال وليست دار قرار، بل هي معبر وممر لآخرتهم وما هي إلا سحابة صيف تنقشع سريعاً وخيال طيفٍ ما استتم بالزيادة حتى أذن بالرحيل.

وأما عند الغافلين والعصاة والمستكبرين فهي غاية، ولذلك نجد أنها استعْملتهم وسخرتهم ولعب الشيطان بهم فزخرفها وزينها وجملها لهم، فعاشوا لها عبيداً ولشهواتها ولذاتها أذلاء صاغرين ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

بل قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ويصور ابن القيم الدنيا وطالبها في كتابه الفوائد:

«الدُنيا كامرأةٍ بغيّ لا تثبت مع زوجٍ إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها، فلا ترضى إلا بالدياثة.

ميّزت بين جمالها وفِعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تفي
حلفت لنا أن لا تخون عهودنا ... فكأنما حلفت لنا أن لا تفي

السير في طلبها سير في أرضٍ مُسْبعةٍ، والسباحة فيها سباحة في غدير التماسيح، المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها وأحزانها من أفراحها» [ص٤٦]

أختي المسلمة: اعلمي أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بنظرتين صحيحتين:

١ ـ نظرة في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها.

٢ ـ النظرة الثانية في الآخرة وإقبالها ومجيئها ودوامها وبقائها وشرف ما فيها... [الفوائد ص٩٤].

هذا ولقد حذر النبي ﷺ من فتنة النساء فقال: «**إن الدُنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدُنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» [رواه مسلم ح١٧/٥٤ ـ ٥٥، حم ١٩/٣، ٢٠].

ولقد نبه الله تعالى الخلق على خطورة الافتتان بالزوجة والأولاد والمال في مواضع عدة أختار لكم منها الآتي:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

وقال عزَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

وقال عزَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧].

فيا أيتها النساء اتقين الله في أنفسكن والتزمن بالآداب الشرعية في أخلاقكن ومعاملاتكن ولباسكُن، واتقي الله في زوجك وأولادك وأهلك، فأنت راعيةٌ ومسؤولة عن رعيتك، ولا تكونين وبالاً على زوجك أو قيداً في عنقه لا حيلة له إلى الخلاص منك فتشقيا ويشقى الأولاد، واعلمي أن الله رقيبٌ عليك ولا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، واحذري أن تكوني من الخاسراتِ اللاتي خسرن الدنيا والآخرة.

قال تعالى في سورة المنافقون: ٩: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾.

فيا أختي لنفرض أنك تملكين قصور الدنيا وكل ما تشتهينه فهل ستأخذي منه معك في القبر شيئاً؟؟

أذكرك بقول الحسن البصري رحمه الله تعالى حيث كان كثيراً ما يقول: «فضح الموت الدُنيا، فلم يترك فيها لذي لُبِ فرحاً».

وقيل للإسكندر المقدوني: ما سرور الدُنيا؟

قال: الرضا بما رُزقت منها، قِيل فما غمُها؟ قال الحرص عليها.

وقال آخر:

العيش ساعات تمر ... وخطوب أيامٍ تكرُ
اقنع بعيشك ترضهُ ... واترك هواك تعيش حرُ
فلَرُب حَتفٌ ساقه ... ذهبٌ وياقوت ودرُ

ولنتذكر جميعاً قول رسول الله ﷺ عن الدُنيا: «قال: **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**» [رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح].

أختي المسلمة إياك والتشبه بالكافرات فإنه الذل والمهانة والسقوط.

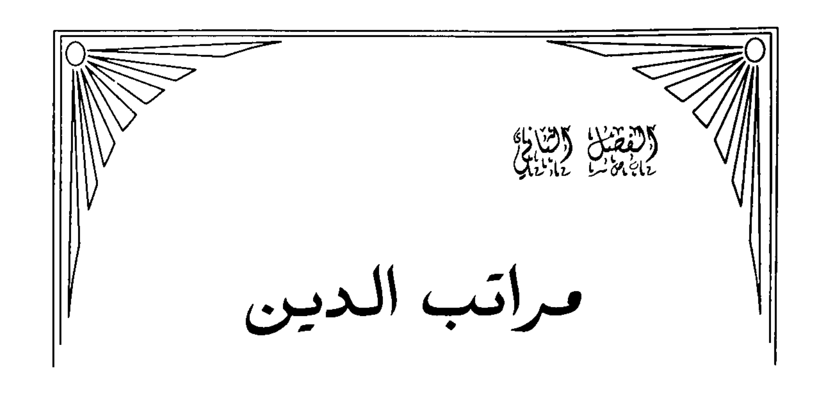
۞ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التشبهُ في الظاهر يورث الحب في الباطن» «ومن تشبه بقومٍ حُشر معهم»، فمن تشبه باليهود حشر معهم ومن تشبه بالنصارى حشر معهم... إلخ».

ويقول أبو نُعيم في الحلية: «ما أُتيتْ أمةٌ قط إلا من قبل نسائهم» [ج٦/٧٦].

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخُذري أن رسول الله ﷺ قال: كان

في بني إسرائيل امرأةٌ قصيرة فصنعت رجلين من خشب (الكعب العالي) فكانت تسير بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتماً من ذهب وحَشتْ تحت فصِّهِ أطيب الطيب المسك، فكانت إذا مرَّت بالمجلس حركتهُ فنفخ ريحهُ» [الحديث رقم ١٠٩٣٧].





مراتب الدين

۞ أركان الإسلام خمسة:

لما كانت العقيدة هي أساس الحياة - بل إنها الحياة - وهي الحكم على الإنسان بحياته أو مماته، حيث يقول رب العزة في ذلك: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كان لا بد لكل مسلم أن يُعنى بجانب العقيدة وبسبيل الحياة وسبب الوجود، ولا بد أن يلتمس النور ويسير على هدى فيه. فلا بد أن يعرف أركان الإسلام ويعرف الإيمان ويعرف الإحسان، ويعيش كل ركن ويحيا في ظلال الإيمان ويرفل في درجاته فيصل إلى الإحسان، ولا شك أن أصحاب النفوس العالية يتطلعون إلى كل منزلة تلو الأخرى حتى ينالوا رضى الرحمٰن.

أما من ألهتهم الأماني ومنتهم الدنيا وغرقوا في الدنايا، وكانت المادة هي منتهى أملهم، فانسلخوا شيئاً فشيئاً من عرى الدين، وتحللوا من مبادئه وأخلاقه ورضوا بالموت دون الحياة فتراهم رضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة وما هي إلا حياة بهيمية صِرْفة. صرفوا لها الغالي والنفيس فهم كالأنعام بل هم أضل.

لذا فإنني أتناول آية من كتاب الله تناولت الإيمان والإسلام والإحسان يقول تعالى ذكره في سورة البقرة (١٧٧): ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

كما أن الحديث المشهور في ذلك هو حديث جبريل والذي رواه الشيخان «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال: **«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»**، فقال: صدقت؛ فعجبنا يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، قال: فأخبرني عن الساعة قال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»** قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: **«أن تلد الأمة ربتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاءِ يتطاولون في البنيان»**.

قال: فمضى فلبثنا ملياً، فقال: **«يا عمر أتدري من السائل؟»**.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»** [رواه مسلم ج١ ص١٥٧].

مما سبق يتبين لنا أن نعلم أن العقيدة الصحيحة التي تحاربنا بسببها الأمم الكافرة الملحدة في جميع أقطاب الأرض هي أن نعتقد أن:

الركن الأول الإسلام:

وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله - وهو الانقياد التام لطاعته عزَّ وجلَّ في جميع أوامره ونواهيه التي تصلح لكل شؤون الحياة للأفراد والجماعات.

والإسلام ذلك الدين القيم له أركان خمسة لا يكون إلا بها جميعاً أول ركن الشهادتين، وهي تعني أن لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له في حكمه ولا ملكه، ولا ولاء إلا له سبحانه.

كما أن الشق الثاني منها وهي شهادة أن محمداً رسول الله تعني أنه يجب طاعته عليه الصلاة والسلام فيما أمر، وتصديقه بما جاء به وأخبر عنه، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

ولا تصلح عقيدة مسلم إلا بصلاح وتحقيق الشهادتين معاً، ولا تقبل منه واحدة دون الأخرى بأي حال من الأحوال.

وفضل الشهادة عظيم وليس أدل على ذلك من شهادته سبحانه بذلك في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

وشهد بها جميع الأنبياء والرسل واعتقدها أهل اليمين في جميع الملل السالفة، فهي سفينة النجاة وطريق السعادة وهي منهج الدعوة إلى الله عند كل نبيّ ورسول إلى قومه وأمته.

يقول رب العزة عن أبينا إبراهيم مصوراً تلك المناظرة التي قامت بينه وبين قومه، وكيف كان قوياً عزيزاً بربه مع أنه واحدٌ وهم جماعة باطلة.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧، ٥٨].

ولا تزال المناظرة قوية منذ بدأت فهو يُهزأ بهم وبعقولهم الفارغة

يقول: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

ويجمع ذلك كله في قول الحق مخاطباً خليله سيد المرسلين فيقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ويأتي خطاب الله لنبيه موضحاً أن العقيدة الصحيحة واحدة، وأن دين الرسل واحد فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٤، ٨٥].

وهذا دليل على أن دين الرسُل والأنبياء واحد وعقيدتهم واحدة ودعوتهم أساسها واحد هو توحيد الله عزَّ وجلَّ الذي من أجله أرسل الله الرسل إلى قومهم وأممهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وهي الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وهي الفارقة بين الإيمان والكفر، وبين أهل السعادة وأهل الشقاء وهي القطب الذي تدور رحى الشريعة عليه، وهي خلاصة الرسالات ودعوة الأنبياء ومفتتح كلامهم، وهي مع ذلك كله كلمة التقوى التي ألزمها الله حزبه وأولياءه وحرم منها أعداءه وعلمها أولياءه.

فهذا كليم الله موسى يقول له رب العزة: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤].

وهذا خطابه سبحانه للعالمين حتى يرث الأرض ومن عليها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [آية الكرسي، البقرة/٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله تعالى.

«ومن سُنته ﷺ أن نلقن[1] موتانا شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله» ليكون ذلك آخر كلامهم من الدنيا ويستحب إسماعها للمولود في أذنه ليطرق التوحيد أذنيه قبل كل شيء وقد وردت بذلك الأحاديث:

وعن معاذٍ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**من كان آخر كلامِهِ لا إلٰه إلا الله وجبت له الجنة**» [أخرجه أحمد في مسنده/**٢١١١٠** مسند الأنصار، ولفظ أبي داود: دخل الجنة ـ كتاب الجنائز/**٢٧٠٩**].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لقنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله**» [أخرجه مسلم في كتاب الجنائز/**١٥٢٤**].

الركن الثاني الصلاة:

لقد اقترن الأمر بالصلاة كثيراً بإقامة الصلاة. فليس الأمر مجرد حركات نؤديها، ولكن المطلوب هو إقامة هذا الركن، لأنه مركز الإشعاع وجامعة الأركان، وهي ميدان المراقبة إذا صلحت صلح باقي العمل، ولقد تميزت عن باقي العبادات لأنها العبادة المطلوب أدائها يومياً خمس مرات، وهي الفريضة الوحيدة التي فرضت في السماء ليلة الإسراء والمعراج.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾، وقوله: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والآيات التي تحدثت عن الصلاة كثيرة جداً، وكذا الأحاديث وكلها

---

(١) نُلَقِّنَ موتانا: أي أن نقول لهم قولوا لا إلٰه إلا الله وهذا عند سكرات الموت.

تأمر بالمحافظة على أدائها في وقتها والقيام بها، كما يحب الله ويرضى حتى تؤتي ثمارها.

روى ابن مسعود أن رجلاً سأل النبي ﷺ: «أي الأعمال أفضل قال: **الصلاة لوقتها**» [أخرجه الشيخان].

إن ثمار الصلاة حين تؤدى كما ينبغي لها من خشوع وحضور قلب وخوف ورجاء وتدبر كثيرة منها:

١ - النهي عن الفحشاء والمنكر بكل صورهما ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

٢ - النهي عن الهلع والجزع والبخل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

نعم الدائمون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل لأن نفوسهم صفت من أكدار الحياة وذلك بتزودهم من نفحات الإيمان، لذلك تجدهم ينفقون ويتصدقون ويؤثرون على أنفسهم، لأنهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه رغم ما هم عليه من العبادة لأنهم متواضعون لله وعِزَتهم لا تتم إلا بذلهم وخضوعهم بين يدي الله عزَّ وجلَّ.

وهم يعلمون حدود الله فهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم، وهم أهل أمانة يحفظون العهد ويرعونه، وهم قائمون على الشهادة محافظون على الصلاة من إسباغ وضوء ومحافظة على الوقت يتدبرون ما يقولونه خاشعين يراقبون الله فيقيمون أركانها ويكملونها بالسنن، لذا فقد طهروا أنفسهم من الهلع والشح وسائر الأخلاق السيئة.

فحق لهم أن يناديهم ربهم مبشراً لهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٥].

---

(١) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فلنكن كهؤلاء أو نتشبه بهم:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

ولعلنا نلحظ أن الصلاة حقاً هي جماع أركان الإسلام كله.

❁ حيث يتحقق الركن الأول بالتشهد «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله».

❁ وإقامة الصلاة وأدائها في وقتها كما ينبغي، تحقيقٌ للركن الثاني الصلاة.

❁ والتوجه للكعبة المشرفة أينما كنا فيظل الشوق موصولاً بالبيت حيث قبلة المسلمين متشوقاً للطواف والزيارة والحج لا سيما إذا شرفت بذلك مرة أو مرات.

❁ الصيام يتحقق بالامتناع عن الأكل والشرب الذي يفسد الصلاة.

❁ الزكاة يتحق في زكاة وقتك وجسدك بتمام قيام الصلاة والوقوف بين يدي الله ترجو رحمته وتخشى عذابه.

فلْنتق الله في الصلاة ونؤديها بخشوع وخضوع عسى الله أن يتقبل، لأن أمر الكثير منا محزنٌ حقاً. إذ أن أداءهُ للصلاة لا يعدو أن يكون مجرد حركات سريعة تؤدى وكأنها تمارين رياضية اعتاد الكثير القيام بها، ويرحم الله السلف الصالح الذين ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

أما نحن فإذا مرت أمام أحدنا حشرة وهو يصلي لزاغ بصره معها يمْنَةً ويَسْرة حتى يدخلها جحرها فيخرج من الصلاة بدون صلاة وقد نسي أمام مَنْ يقف؟ ومنْ يناجي؟! أسأله عزَّ وجلَّ التوبة والعفو والمغفرة.

وحتى ندرك قيمة الصلاة في المسجد وأداءها في الجماعة وأثر ذلك على السلوك الاجتماعي للفرد والمجتمع نتدبر قول الحق ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩].

هذا نداء كريم من رب العالمين للمؤمنين لترك أعمال الدنيا والسعي إلى الصلاة في المسجد، حتى يتزودوا بطاقة إيمانية طيبة وكمية من النور والصفاء يضفي على ظاهرهم نور باطنهم فيخرجون بتلك الطاقة، فلا يغشون ولا يسبون ولا يكذبون ولا يطففون في الميزان، لأنهم نهوا عن ذلك كله مُنذ لحظة، فما زالت المواعظ تملأ أسماعهم وتقع من أنفسهم موقعاً مؤثراً. إن الجو من المسجد إلى البيع والعمل جو كله إيمان ونور وخوف من الله يتدفق من الداخل فيظهر على الظاهر مع الناس. إنها العلاقة بين العبادة والسلوك. إن التأثر يكون بمقدار حضور القلب ونظافة أجهزة الاستقبال عند كل مسلم، فكلما كان متدبراً لمعنى الآيات والأحاديث، وبقدر تعظيمه لله سبحانه وخضوعه بين يديه يكون الثواب وتحصيل الثمرة، وبقدر الانشغال والضياع للأركان تكون الخسارة وعدم الفائدة.

روى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكرُ الله فيها إلا قليلاً**».

نعم هؤلاء وصفهم الله قائلاً: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال لمن نقر في صلاته: «**أما إنك لو مِتَّ على هذا مِت على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً ﷺ**».

روى هذا المعنى ابن خزيمة في صحيحه مرفوعاً.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد لينصرف من صلاته، ولم يكتب له منها إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، إلا خُمسها، إلا سدسها، إلا سُبُعها. . . إلا عُشرُها**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**أسوأ الناس سرقة الذي يسرقُ في صلاته**» قالوا: يا رسول الله. . وكيف يسرق من الصلاة؟ قال: «**لا يتمُ ركوعها ولا سجودها**»، أو قال: «**لا يقيم صلبه في الركوع والسجود**» [رواه أحمد والحاكم عن أبي قتادة].

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وسجودها، خرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول حفظك الله كما حفظتني، ومن صلاها لغير وقتها ولم يسبغ لها وضوءها ولم يتم خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مُظلمة تقول: ضيّعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاءت لُفتْ كما يُلف الثوث الخَلِق ثم ضرب بها وجهه»** [رواه الطبراني في الأوسط].

يقول ابن تيمية رضي الله عنه في كتابه الفتاوى ج٢٢ ص٦٠٥ - ٦٠٦: قال سعد بن معاذ رضي الله عنه: في ثلاث خصال، لو كنت في سائر أحوالي أكون فيهن: كنت أنا أنا؛ إذا كنت في الصلاة لا أحدث نفسي بغير ما أنا فيه، وإذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لا يقع في قلبي ريبٌ أنه الحق، وإذا كنت في جنازة لم أحدث نفسي بغير ما تقول ويقال لها...

وكان مَسْلَمة بن بشار يصلي في المسجد فانهدم طائفة منه وقام الناس وهو في الصلاة لم يشعر بذلك لأنه يعيش بكيانه كله مع الصلاة.

وكان عبدالله بن الزبير رضي الله عنه يسجد، فأُتيَ بالمنجنيق فأخذ طائفة من ثوبه، وهو في الصلاة لا يرفع رأسه.

وقالوا لعامر بن عبدالقيس: أتحدث نفسك بشيء في الصلاة؟

فقال: أو شيءٌ أحبُ إليّ من الصلاة؟ أحدث به نفسي!!!

قالوا: إنا لنحدث أنفسنا في الصلاة، فقال: أبالجنةِ والحور ونحو ذلك؟ فقالوا: لا، ولكن بأهلينا وأموالنا، فقال: لأن تختلف الأسنُةُ فيّ أحب إليّ. وأمثلة ذلك كثيرة جداً.

والذي يعين على ذلك شيئان: قوة المقتضى وضعف الشاغل.

أما الأول: فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله ويفعله، ويتدبر من القراءة والذكر والدعاء، ويستحضر أنه مناجٍ لله تعالى كأنه يراه. فإن المصلي إذا كان قائماً فإنما يناجي ربه. والإحسانَ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ثم كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان.

ولله در فعل حاتم الأصم «وهو من الصالحين» حيث:

يروى عنه رضي الله عنه أنه: سُئِلَ عن صلاته فقال: «إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي. أظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحقيق. وأقرأ قراءة بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بخشوع...».

هذا حال الصالحين في الصلاة أصحاب القلوب الوجلة والدموع المنهمرة والذين قال الله فيهم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٩].

هذا وأما عن صلاة المرأة في المسجد إذا تيسر لها ذلك فلا بأس، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد كان رسول الله ﷺ يُصلي الفجر فيشهدُ معه نساءُ من المؤمناتِ متلفعاتٍ في مُروطهن، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفُهن أحد» [بخ٣/٤٨٣ رقم ٣٧٢].

قال ابن المنذر بعد أن حكى عن الجمهور أن الواجب على المرأة أن تصلي في درع وخمار: المراد بذلك تغطية بدنها ورأسها.

لما روى عن عطاء أنه قال: «تصلي في درع وخمار وإزار» ويجب على المرأة أن لا تتطيب عند خروجها للصلاة ولا تخرج بثياب زينة بل يخرجن تفلات.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد، إذا دخلت امرأة مُزَيّنة ترفل في زينة لها في المسجد. فقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس! انهوا نساءكم عن لُبس الزينة والتبختر في المسجد**

فإن بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبخترن في المساجد» [ابن ماجه في الفتن ج٢/١٣٢٦].

وروى أن أبا هريرة لقي امرأةً متطيبة تريد المسجد. فقال: يا أمةَ الجبار! أين تُرِيدينَ؟ قالت: المسجد. قال: وله تطيبتِ؟ قالت: نعم.

قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيما امرأة تطيبت، ثم خَرجت إلى المسجد، لم تُقبلْ لها صلاة، حتى تغتسل**» [بخ٢/١٣٢٦].

مما سبق يجب على المرأة التي تريد الصلاة في المسجد أن تدع الزينة والطيب بالكلية وأن تتقي الله حتى تُقبل صلاتها.

هذا وأنه من حق المسجد إذا أتيتهُ أن تصلي ركعتان وتسمى تحية المسجد.

عن أبي قتادة: «أعطوا المساجد حقها قيل له: وما حقها؟ قال: ركعتين قبل أن تجلس».

وقوله ﷺ: «**إذا دخل أحدُكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس**» [رواه البخاري ج٣/٥٣٧ رقم ٤٤٤].

وفي لفظ مسلم: «**فإذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يركع ركعتين**»، ويستحب لكل مصلٍ الفصل بين الفرض والنافلة بنحو كلام أو ذكر أو انتقال من مكان لآخر لما روي:

«أن رسول الله ﷺ صلى العصر فقام رجل يصلي فرآه عمر فقال له اجلس فإنما هلك أهل الكتاب أنه لم يكن لصلاتهم فصلٌ. فقال رسول الله ﷺ: **أحسن ابن الخطاب**» [رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح ج٢/٢٣٤ مجمع الزوائد].

ولفظ أحمد: «**لا يَصلُ صلاةً بصلاةٍ حتى تخرج أو تتكلم**» [حم/٩٥، ٩٩].

وقال جمهور السلف والخلف: يستحب الفصل بين الفرض والنافلة بالأذكار الواردة عقب الصلوات كالاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.

ويستحب لكل مُصلٍ أراد التنفل بعد الفرض الانتقال إلى موضع آخر يتطوع فيه لحديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يتقدم أو يتأخر أو عن يمينه أو عن شماله في الصلاة**» يعني في السبحة (التطوع) [أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والبيهقي].

وفائدة ذلك أن تكثر أماكن العبادة والشهود: «فإن المكان يشهد له يوم القيامة» [ذكر ذلك الدين الخالص ج٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠ للسبكي].

وهذا مصداق قول الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

ويستحب للمسلم أداء صلاة التطوع في البيت عنها في المسجد وذلك لقول النبي ﷺ: «**صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً**» [رواه الترمذي ج٢/٥٣١ رقم ٤٥٠ ورواه أحمد وأبي داود].

وقوله ﷺ: «**أفضل صلاتكم في بيوتكم إلا المكتوبة**» [رواه الترمذي ج٢/٥٣٠ رقم ٤٤٩].

وعن أبي أمامة قال صليت مع رسول الله ﷺ عشر سنين فكانت صلاته كل يوم عشر ركعات، ركعتين قبل الفجر وركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء. [رواه الطبراني، مجمع الزوائد ج٢/٢٣١].

وكان ﷺ يداوم على الوتر ويحث أصحابه عليه يقول ﷺ: «**إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن**» [رواه الترمذي ج٢/٥٣٦، ٤٥٢/٥٣٧].

وعن أبي هريرة قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أوتر قبل أن أنام» [ت٢/٥٤٠/٤٥٤].

وقوله ﷺ: «**صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة تُوتر له ما قد صلى**» [بخ٢/٤٧٧، رقم ٩٩٠].

وكان ﷺ يحبب في صلاة الضحى أصحابه وكان يصليها لقوله ﷺ: «**من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعةً بنى الله له قصراً في الجنة من ذهبٍ**» [ت٢/٥٨١، رقم ٤٧١].

وقوله ﷺ: «**عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ابنَ آدم اركع لي أربع ركعاتٍ من أول النهار أكفك آخرهُ**» [ت٢/٥٨٥، رقم ٤٧٣].

وعن قضاء الفائتة من الصلاة:

قوله ﷺ: «**من نسي صلاة فليصَل إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**» [بخ٢/٧٠، رقم ٥٩٧].

وتحت باب قضاء الصلوات الأولى فالأولى:

عن جابر: «قال جعل عمر يوم الخندق يسبُ كفارهم وقال: ما كِدتُ أصلِّي العصر حتى غربت، قال: فنزلنا بطحان فصلى بعدما غربت الشمس ثم صلى المغرب» [بخ٢/٧٣/٥٩٨].

والكثير من العامة يعتقدون إذا ناموا عن صلاة أو نسوها أن يصلوها مع وقتها في صلاة اليوم التالي أو يتركونها بالكلية، وهذا جهل فادح تقع فيه الكثيرات من النساء لانشغالهن بأعمال المنزل فنجدُ مثلاً أن المرأة تنام متعبة عن صلاة العشاء، وتتذكر بعد فجر اليوم التالي فلا تسارع بصلاتها، ولكن تؤجلها وتصليها مع صلاة عشاء اليوم التالي ظناً منها أن ذلك هو الصواب.

وهو عين الجهل والتكاسل عن الصلاة التي هي عماد الدين، والبعض الآخر يتركها بالكلية يظن أنها سقطت عنه، وذلك من تلبيس إبليس. وليس الأمر مقصوراً على النساء فإن الكثير من الرجال يتركون الصلاة بسبب العمل ويتكاسلون عن أدائها والعياذ بالله.

فنقول لهم حسبكم قول القائل:

خسر الذي ترك الصلاة وخابا	وأبى معاداً صالحاً ومآبا
إن كان يجحدها فحسبك أنه	أضحى بربك كافراً مرتابا
أو كان يتركها لنوم تكاسلٍ	غطى على وجه الصواب حجابا

وأخيراً هذه كلمة جامعة في فضل الصلاة.

يقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمي في كتاب معارج القبول ج٢/٤٩: «اعلم هدانا الله وإياك أن الصلاة قد اشتملت على جل أنواع العبادة من الاعتقاد بالقلب والانقياد والإخلاص والمحبة والخشوع والخضوع والمشاهدة والمراقبة والإقبال على الله عزَّ وجلَّ وإسلام الوجه له والصمود إليه والاطراح بين يديه.

وعلى أقوال اللسان وأعماله من الشهادتين وتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتقديس والتمجيد والتهليل والتكبير والأدعية، والتعوذ من الذنب إليه والإقرار بالنعم له وسائر أنواع الذكر، وعلى عمل الجوارح من الركوع والسجود والقيام والاعتدال والخفض والرفع وغير ذلك.

هذا مع ما تضمنته من الشرائط والفضائل منها الطهارة الحسية من الأحداث والأنجاس الحسيّة والمعنوية من الإشراك والفحشاء والمنكر وسائر الأرجاس، وإسباغ الوضوء على المكاره، ونقل الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وغير ذلك مما لم يجتمع في غيرها من العبادات.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

الصلاة والسجود يشفع لصاحبه يوم القيامة:

قال ﷺ في عصاة الموحدين: «**فيعرفونهم بآثار السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله النار أن تأكل أثر السجود**» [انتهى كلامه ص٥٦].

ملحوظة: بعض النساء يأتين المسجد بعد أن تصلي العصر في البيت

وذلك لحضور درس أو لتتعلم القرآن، فتجلس دون أن تصلي ركعتين تحية المسجد لأنها سمعت أن لا صلاة بعد العصر.

والصواب والسُنة أن تصلي تحية المسجد إذا حضرت في هذا الوقت لأنها صلاة لها سبب.

وكل نفلٍ له سببٌ فليس فيه نهيٌ.

وكذلك إذا أرادت أن تتنفل بعد أذان المغرب وقبل الفريضة فلها ذلك لقول الرسول ﷺ: «**بين كل أذانين صلاة**» والمقصود بالأذانين الأذان والإقامة والله تعالى أعلم.

الركن الثالث: الزكاة:

معنى الزكاة: لغة: «النماء والطهر والصلاح، وسميت كذلك لأنها سبب في نماء المال وتطهيره وإصلاحه ووقايته من الآفات» [المصباح المنير/٢٧٢].

وشرعاً: هي اسم لأخذ شيء مخصوص من مال مخصوص على أوصاف مخصوصة لطائفة مخصوصة!

وهي فرض على كل مسلم ومسلمة توفرت فيه شروط وجوبها، ويؤكد ذلك الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع لأهل العلم

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

يقول في موضع آخر: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

والمراد هنا أن أنفقوا عباد الله في سبيل الله لأن المال مال الله وهو مستخلفكم فيه، فادفعوا الزكاة وتصدقوا في وجوه البر وعمل الصالحات من

قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي تشيب من هوله الولدان، وعند ذلك لا يقبل منكم أي فدية حتى لو كان مال الدنيا بأسره.

جاءت الآيات كثيرة في كتاب الله تعالى تحض على الإنفاق مما رزق الله لتعالج قضية اجتماعية مهمة هي قضية الفقر والحاجة، فنجد الآيات تارة تحت عنوان إطعام المساكين والحض عليه، وأحياناً تحت عنوان الإنفاق مما رزق الله وتارة باسم أداء الحق للسائل والمحروم والمسكين وابن السبيل، وطوراً بعنوان إيتاء الزكاة، وكفالة اليتيم وغير ذلك.

نعم لقد عالج القرآن الكريم بالزكاة وما يندرج تحتها الحالة الاقتصادية ورفع مستوى الفرد والمجتمع والأمة بأسرِها فنجده: نظم الزكاة وفي المقابل حرم الربا.

وأوجب الكسب والعمل وعدم التراكل ومنع الترف والتلاعب بأقوات المجتمع. كما أوجد التراحم والتعاطف بين الناس وحرم أكل أموال الناس بالباطل ولا سيما مال اليتيم.

لا شك أن مجتمعاً يتحقق فيه ذلك التكافل الاجتماعي كما رسمه القرآن حري به أن يسود ويتقدم. حري به أن يَسوده جو الود والتعاون على البر والتقوى والإيثار والإحساس بالغير. مجتمعٌ يسودهُ الأمن والاستقرار والحب والهدوء والرضا والقناعة، حيث لا تجدُ سارقاً ولا قاطع طريق ولا مختلساً من المال العام، حيث إن الجميع نال ماله من حق في مجتمعٍ متعاونٍ دستوره القرآن الذي هو منهج حياة.

أما المجتمعات الضالة التي لا تحكم بشرع الله فنراها غارقة في الديون الربوية، وفي المشاكل الاجتماعية يكثر الفقر والمجاعات وتموت أمم بأكملها لأنها لا تجد لقمة العيش، بينما تموت أمم من كثرة الشبع وأمراض السمنة، يكثر قطاع الطرق واللصوص والقتل والهرج والمرج، وتمتلىء الصحف بالفضائح والسبب يعود إلى تعطيل شرع الله وعدم العمل بكتابه. نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين وأن يقصم ظهور المعطلين لشرعه.

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب!!!!**» [رواه الجماعة].

فلنتق الله في أموالنا ونؤد زكاتها بمجرد حولان الحول عليها إذا بلغت النصاب، ولنكثر الصدقة ولانتقالها فعسى أن تكون عند الله كجبل أحد مصداق قول رسول الله ﷺ: «**إن الله يقبل صدقة أحدكم بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله أو فلوه حتى إن اللقمة لتصل عند الله مثل جبل أحد**» [حم٢/٤٧١].

وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

لقد كان الصالحون يكثرون من الصدقة والإنفاق ولا يُسَرُون لإقبال الدنيا لأنها فتنة، وكانوا يرضون منها بالقليل اليسير حتى لا تشغلهم عن ذكر الله.

كان عمر رضي الله عنه يقول: ألا أخبركم بما أَسْتحِلُ من مال الله عزَّ وجلَّ: حُلتان لشتائي وقيظي، وما يسعفني من الراحلة لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجلٍ من قريش، لست بأرفعكم ولا بأوضعكم، فوالله ما أدري أيحلُ ذلك لي أم لا؟؟؟

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم: قليل يكفيك! خير من كثير يطغيك.

وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تطيب الصدقة قبل أن تخرجها وتقول: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً».

وكان يأتيها مالٌ من بيت مال المسلمين هي وأمهات المؤمنين فيوزعنه

ولا يبقين لأنفسهن شيئاً، وأمثلة ذلك تفوق الحصر.

يقول ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**» [رواه الشيخان].

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرة[1]، فإذا شرجة[2] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان ـ للاسم الذي سمع في السحابة ـ فقال له يا عبدالله.. لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في الحساب الذي هذا ماؤه، اسق حديقة فلان.. لاسمك فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً وأرد فيها ثلثه**» [أخرجه مسلم].

هذا ويستحب للمسلم أن يتصدق من أفضل ماله وأوسطه ولا ينظر أخبثه فيتصدق به.

يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

وبالنسبة لزكاة الذهب والحلي عند النساء فإنني أذكر ذلك مبينة ما يقع فيها الكثير من النساء من عدم إخراج الزكاة، وذلك لحبهن للدنيا وشغلهن بزينتها وذهبها الذي قد يذهب بدين المرأة وعقلها..

يقول تعالى ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) الحَرة (أرض ذات حجارة سوداء).

(٢) شرجة (مسيل ماء).

والآية تشمل الحلي كما تشمل النقود والسبائك، فما لم تؤد الزكاة منها فهي كنز يكوى به صاحبه يوم القيامة.

ولما كانت السنة تحريم الذهب على الرجال وحِله للنساء لميلهن للزينة، جاءت الأحاديث التي تنظم ذلك في إطار الشرع.

١ ـ جاء تحت باب «الكراهية للنساء في إظهار الحلي والذهب» في سنن النسائي عن أخت حُذيفة قالت خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر النساء، أما لكُنَّ في الفضة ما تحلين، أما أنه ليس من امرأة تحلت ذهباً تظهرُهُ إلا عذبت به**» [رواه النسائي ج٨/١٥٦، ١٥٧].

٢ ـ ما أخرجه عبدالرزاق في مصنفه ج٤/٨٣، رقم ٧٠٥٢: «أن عائشة كانت تُحلى بنات أخيها بالذهب واللؤلؤ فلا تزكّيه، وكان حُليّهم يومئذٍ يسيراً».

٣ ـ وعن ابن مسعود قال: سألته امرأة عن حُليّ لها فيه زكاة؟ قال: إذا بلغ مائتي درهم فزكّيه، قالت: إن في حجري يتامى لي، أفأدفعه إليهم؟ قال: نعم. [المصنف ج٤/٨٣، رقم ٧٠٥٥، ٧٠٥٦، ٧٠٦٥].

مما سبق يتبين أنه لا بد من إخراج زكاة الذهب والفضة إذا بلغت النصاب سواء، أكانت المرأة تلبسهُ أو تحتفظ به في حقيبتها الكبيرة وتتزين به في الأعراس والمناسبات وكثر من النساء بلغ وزن ذهبهن كيلوات من الجرامات، ولم تزكيّه بحجة أنها تتزين به في المناسبات مع أن هذه الكمية التي تمتلكها، لو بيعت لكفت لسد حاجة دولة كالصومال وغيرها من الدول الفقيرة التي يقتلها الجوع!!!

وكثير من النساء يزكين بعض الذهب دون بعضه بحجة أن الذي في يديها وعُنقها وغير ذلك تتزين به مع أنه لو وُزن لكان أضعافاً مضاعفة للنصاب، وما هذا إلا لحبهن للدنيا وزخارفها وعدم إحساسهن بأخواتهن المسلمات. اللاتي يمتن جوعاً في كل مكان وبعضهن تقول إن أمهات المؤمنين كن لا يزكين ذهبهن.

وأقول لهن أن الرسول ﷺ كان يتعهدهن دائماً ويُحبب إليهن الزهد في الدنيا وحب الآخرة فإنهن قدوة.

ففي الحديث: «أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير ويقول إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا» [النسائي ج٨/١٥٦].

والأحاديث في ذلك كثيرة سأسردها في موضع آخر في الرد على من حرم الذهب مطلقاً.

كما أن ما كان عندهن شيءٌ يسير كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها، فإن هذا دون النصاب ولا زكاة فيه كما سبق في حديث. [مصنف عبدالرزاق ح٤/٨٣/٨٠٥٢].

ملحوظة هامة حول زكاة الذهب والفضة:

مقدار النصاب:

عن علي أن النبي ﷺ قال: «**ليس عليك شيء - يعني في الذهب - حتى يكون لك عشرون ديناراً، فإذا كانت لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نُصف دينار فما زاد فبحساب ذلك**».

«**وليس في مالٍ زكاةٌ حتى يحول عليه الحول**» [رواه أحمد وأبو داود والبيهقي وصححه البخاري].

والمقصود بالدينار هو الدينار الذهب.

والدينار الذهب يعادل = **٤,٢٥٠**جم.

أي أن عشرين ديناراً ذهباً = **٢٠**×$\frac{1}{4}$**٤** = $\frac{١٧\times٢٠}{٤}$ = **٨٥**جم

وعلى هذا يكون النصاب ما يعادل قيمة **٨٥** جرام ذهب بالعملة المحلية، فإذا قلنا مثلاً أن جرام الذهب = **٣,٢٥٠** ديناراً كويتياً.

يكون العشرون دينار = **٨٥**×**٣,٢٥٠** = **٢٧٦,٢٥٠** ديناراً.

وإذا كان مثلاً الجرام بالسعودية **٣٥** ريال = **٨٥×٣٥=٢٩٧٥** ريالاً.
وإذا كان مثلاً الجرام بمصر **٣٩** جنيه = **٨٥×٣٩=٣٣١٥** جنيهاً.

أي أن الذي يملك هذا المبلغ في أي بلد فما فوقه وحال عليه الحول فعليه الزكاة = ربع العشر.

وقال مالك في الموطأ: السُنة التي لا اختلاف فيها عندنا أن الزكاة تجب في عشرين ديناراً، كما تجب في مائتي درهم.

أما نصاب الفضة فهو مائتا درهم لحديث علي أن النبي ﷺ قال: «**قد عفوت لكم عن الخيل والرقيق، فهاتوا صدقة الرِّقه أي الفضة من كل أربعين درهماً درهمُ، وليس في تسعين ومائة شيء، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم**» [رواه أصحاب السنن وصححه البخاري].

والدرهم = **٢,٥** جم تقريباً، يعن **٢٠٠** درهم فضة = **٥٢٥**جم من الفضة تقريباً.

الركن الرابع: الصيام:

معنى الصيام: الإمساك عن الكلام وغيره وذلك لقوله لمريم الطاهرة: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦].

وشرعاً: الإمساك بنية عن شهوتي البطن والفرج، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ

عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥].

ولقول الرسول ﷺ في حديث جبريل المتقدم الذكر وحديث الرسول ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» [أخرجه الشيخان وأحمد].

مما سبق يتبين لنا أن الصيام كان مفروضاً على من كان قبلنا وهو مفروضٌ علينا حيث إنه أحد أركان الإسلام الخمسة.

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره (المنار): «وقد ثبت الصوم على أهل الملل السابقة فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضهُ علينا كما فرضهُ على الذين من قبلنا إشعاراً بوحدة الدين في أصوله ومقصده وتأكيداً لأمر هذه الفريضة وترغيباً فيها» انتهى كلامه.

هذا والصوم واجب بإجماع أهل العلم على كل مسلم عاقل وبالغ وصحيح ومقيم وعلى كل مسلمة طاهرة من حيض أو نفاس وعاقلة.

كما يجب الصوم عن كل حرام، وقول زور، وكذب وغيبة ونميمة بجانب الصوم عن الأكل والشرب حتى نجني ثمرة الصوم المرجوة، حيث أنه عبادة تغرس في نفس المسلم والمسلمة الحقيقيين التقوى. من أجل ذلك توجب علينا الاهتمام به.

يقول جلَّ وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

ولقد اختص الله الصائمين ببابٍ في الجنة لا يدخل منه سواهم:

يقول رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال أين الصائمون فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلِق فلم يدخُلْ منه أحدُ**» [أخرجه البخاري].

وفي الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي به**» ذلك لأن الصوم شعيرة من شعائر الإسلام تتسم بمجاهدة النفس وتقويمها بالصبر على الشهوات المادية والنفسية، ولما كان الصوم مُسبباً بعض الإجهاد للمرضى والنساء الحوامل والرُضع رخصْ لهم في الفطر مع الفدية وإن عجزن عن القضاء عجزاً دائماً أو القضاء بعد زوال المانع.

وروى البخاري بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله كلُ عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنةُ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أوَ قاتلهُ فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفسُ محمدٍ بيده لخلوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فَرِحَ، وإذا لقيَ ربهُ فرح بصومه**».

قال ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: «إذا خافتا (أي الحامل والمرضع) على أنفسهما، أو ولدهما أفطرتا وعليها الفدية، وبه قال بعض الأئمة إلا أبا حنيفة قال عليهما القضاء.

وكلنا يعلم أن الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، وهذا من رحمة الله وحكمته سبحانه، ولما اختص سبحانه وتعالى به شهر الصوم. كما أن من أفطر رمضان بغير عذر لم يقضه صيام الدهر كله، ومن مات وعليه صوم صام عنه وليّهُ لحديث رسول الله ﷺ: «**من مات وعليه صيام فليصم عنهُ وليهُ**» [أخرجه البخاري].

ولحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ قال: «**نعم!**» قال: «**فَدَيْنُ الله أحق أن يُقضىٰ**» [أخرجه البخاري].

لا شك أن هذا مما للشهر الكريم من فضل:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل شهرُ رمضانَ فُتحت أبوابُ السماء وغُلقَتْ أبوابُ جهنم، وسُلْسِلتِ الشَّيَاطِينُ**» [أخرجه البخاري].

وإن من خصوصيات شهر رمضان أنه شهر القرآن والصيام والقيام وفيه ليلة هي خير من ألف شهر يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [سورة القدر].

وليلة القدر خير من ألف شهر وهي تلتمس في العشر الأواخر من رمضان، وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر ويلتمسها فيهن وهي ليلة مبارك حتى مطلع الفجر، وليست كما يزعم العامة من الناس أنها مجرد لحظات قليلة تسع لدعوات ثلاثة فحسب فهذا زعمهم لضيق أفقهم. كما أن من البدع أن تُخص بدعوات معينة لا تتعداها كأن يقول أهل البدع: «اللهم إن كنت كتبتني عندك محروماً أو شقياً فامحو ذلك عني... إلخ» وهذا لم يرد عن أهل السنة، والوارد هو أنه عندما سألت السيدة عائشة رضي الله عنها ماذا تقول قال: لها النبيّ ﷺ قولي: «**اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفو عني**» ويستحب الدعاء والذكر وقراءة القرآن.

وخلاصة ما اختص الله به رمضان وما ينبغي علينا أن نتعلمه فيه من دروس أنه:

١ ـ يبدأ المسلمين بالفرح وينتهي معهم بالفرح يوم عيدهم وما أسرع أيامه.

٢ ـ صلاة التراويح في رمضان تُحيي في نفس المسلم حب الرسول والمداومة على سننه في رمضان وغير رمضان.

٣ ـ توطيد العلاقة بين المسلمين بعضهم بعضاً وإظهار القوة والتعاون

ونبذ الفرقة والعصبية، وذلك في تلبية الدعوة للإفطار وحضور الجماعات والتزاحم في التراويح والصبر فيها.

٤ ـ البذل والعطاء والتنافس في فعل الخيرات بين المسلمين من أعظم الدروس المستفادة في رمضان لمعرفتهم قيمة ذلك في هذا الشهر الذي فيه النافلة كالفريضة فيما سواه.

٥ ـ في العشر الأواخر تتسابق النفوس الكريمة في تحصيل أكبر قدر من الطاعة والرحمة فهم بين قائم وراكع وساجد، وقائم يتلو كتاب الله بخشوع ووجل وبين متعلم لأمور دينه حزين على ما فاتهً، وبين متصدق يُخْفي صدقته لا يعرف النوم إلى العيون سبيلاً، فالكل في عمل دؤوب يدعو ويستغفر.

دموعهم رحمة، وقلوبهم وجلة، أصواتهم منتحبة يدعون ربهم خوفاً وطمعاً:

«يا رب أعضاء السجود عتقتها من عبدك الجاني وأنت الواقي
والعتق يسري بالغنى يا ذا الغنى فامْنُن على الفاني بعتق الباقي»

ويصفهم ابن المبارك قائلاً:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوع!
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأرض في الدنيا هجوع!
ويبكون أحياناً كأنْ عجيجهم إذا نُوِّمَ الناسُ الحنينُ المرجعُ!
ومجلس ذكرٍ فيهمُ قد شهدتُه وأعينُهم من رهبة الله تدمع!!!

نراهم يودعون رمضان وداع عزيز على القلوب.. وداع ضيفٍ لا يُملُ يدعون ربهم «اللهم اجعل العام كله رمضان» واجعلنا من عتقائه يا رحمٰن...

٦ ـ ويوم الجائزة ـ يوم عيد ـ المسلمين يفرحون ويسارعون بإخراج زكاة الفطر قبل صلاة العيد، وذلك يعني أن الصدقة والبذل والطاعة لم

تنتهي بانتهاء رمضان، لأن من ذاق حلاوة الطاعة داوم عليها، وفي التهليل والتكبر والتسبيح في أيام العيد يعني استمرار الطاعة لمن ذاق حلاوة الإيمان.

كما أن المداومة على النوافل في رمضان تهيىء العبد للاستمرار لأن من ذاق حلاوة صلاة التراويح والقيام لا يدعها بعد رمضان وكيف يتركها وهو يعلم أن النوافل تجبر ما ينقص من صلاة الفريضة، وما يعْرِضُ لها من تقصير أو سهو ونحو ذلك؟

ولكن على النقيض تماماً فإننا نرى أناساً يعدون مسلمين، ولكننا لا نراهم إلا في رمضان نعم إنهم الرمضانيون.. يظهرون في رمضان فقط ويذهبون معه، وإذا جاؤوا إلى المساجد في رمضان نراهم يؤذون عباد الله بالتأفف من طول الصلاة وبكثرة الحركات في الصلاة، وآه مما تفعله النساء من وضع كميات الطيب، بل الزينة الكاملة ونسيت بين يديَّ مَنْ تقف؟؟

وإذا جلسن بين الترويحتين أخذن في الغمز واللمز والغيبة والنميمة. فبئس القوم الذين لا يعرفون الله إلا في رمضان، وما رمضان بالنسبة لهم إلا موسم أكلٍ وشُرب وملذات وسهر حتى الفجر أمام أجهزة البث والقنوات الفضائية التي تنشر الرذيلة وتدعوا إلى الفحشاء والمنكر، وحدث ولا حرج عن العُري والمجون والألفاظ البذيئة العارية عن الحياءة التي من شأنها تحطيم الأخلاق ومحاربة العفة والفضيلة.

إنها الحرب الإعلاميةُ الشرسة والتي يقوم عليها فئة من اليهود.. وما عسى اليهود أن يفعلوا؟؟

إنهم يريدون إخراج المسلم من دينه بالكلية في غير رمضان، ومن الإسلام في رمضان بالذات نعم يعمل القائمون على الإعلام كل الوسائل الشيطانية حتى تُبعدَ المشاهد عن الله في هذا الشهر بدلاً من أن يذوق حلاوة الإيمان في رمضان، فإنه يخرج من رمضان بذنوبٍ لا حصر لها، هم حريصون على أن لا يقوم أحدٌ لصلاة المغرب ولا العشاء، بل طوال

النهار. حريصون على أن لا يفتح واحد من المسلمين كتاب الله مع أن الشهر شهر القرآن والرحمة والتوبة.

يقول أحد اليهود: كأس وغانية.. تعمل في الأمة المحمدية ما لم يعمله المدفع والدبابة فأغرقوهم في اللهو.

فمتى يفيق الرمضانيون وعُباد التلفاز ذلكم الجهاز الذي هيمن عليه اليهود وأعوانهم ـ لعنة الله عليهم ـ مع أن هذا الجهاز من السهل جداً أن يخدم الإسلام.

فهل يفيق أهل الإسلام.. هل يعود الشباب بقوته وحيويته إلى الله نسأل الله ذلك وهنيئاً لعباد الله الذين قال فيهم:

عباد بن زياد التيمي:

فتيةٌ يُعرف التخشع فيهموا ... كلهم أحكم القرآن غُلاماً
قد برى جلده التهجد حتى ... عاد جلداً مصفراً وعظاماً
تتجافى عن الفراش من الخوف ... إذا الجاهلون باتو نياماً
بأنينٍ وعَبْرةٍ ونحيبٍ ... ويظلون بالنهار صياماً
يقرؤون القرآن لا ريب فيه ... ويبيتون سجداً وقياماً!!

هذا وقد ثبت أن الصوم له فوائد ووظائف علاجية حيث ينقى الجسد من السموم المتراكمة ويريح المعدة من جهد عام كاملٍ وعمل دؤوب، وهو تهذيب للنفس وتعليم للصبر والحِلم والإحساسُ بالفقير والمحتاج، وكان ﷺ يحب صوم النوافل كصوم ثلاثة أيام من كل شهر هجري، وتسمى الأيام القمرية (يوم ١٣ ـ ١٥) الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، وصوم التاسع والعاشر من محرم، وصوم تسعة أيامٍ من أول ذي الحجة لغير الحاج «الذي يؤدي الفريضة» ولله در القائل:

جاء الصوم فجاء الخير أجمعهُ ... ترتيل قرآن وذكر وتحميد وتسبيحُ
فالنفس تدأب في قول وفي عملٍ ... صوم النهار وبالليل التراويحُ

وأُذكِرُ بفضل العمرة في رمضان.

حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار **«ما منعك أن تحجُيّن معنا؟»** قالت: كان لنا ناضحُ فَرَكِبَهُ أبو فلان وابنه (لزوجها وابنها) وترك ناضحاً ننضح عليه، قال: **«فإذا كان رمضان اعتمري فيه، فإن عُمرةً في رمضان تعدل حجة»** أو نحواً مما قال» [أخرجهُ البخاري ـ اللؤلؤ والمرجان ج٢/٥٢].

فاللهم اجعل العام كله رمضان كي نسعد بالذل بين يديك وتغسل الذنوب بانسكاب العبرات وتنقى الصدور من الأدران والأحقاد، وندعوك متضرعين خاشعين فإن الدعاء مخ العبادة «اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار»، ولله در القائل: «لمن يجهل سر الدعاء»!!!

أتهزأُ بالدعاءِ وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهام الليل نافذة ولكن ... لها أمدٌ وللأمدِ انقضاءُ
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذَ القضاءُ

الركن الخامس والأخير «الحج»:

يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

البيت هو الكعبة المشرفة التي تتمركز في قلب الكرة الأرضية لتجمع عندها شتات القلوب البشرية فيُألِفُها الحب والتعاون والإسلام الخالص لله تعالى، فيصبحوا قوة إيمانية متحركة حول هدف واحد يعبدون إلٰهاً واحداً هو رب هذا البيت العتيق.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وفي الحديث المشهور الذي رواه الشيخان:

«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمد

رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا أيها الناس.. إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا**» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**» [رواه مسلم].

وعن ابن شماسة رضي الله عنه قال: حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً، وقال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت رسول الله عليه السلام، قلت يا رسول الله: ابسط يمينك لأبايعك، فبسط يده فقبضت يدي، فقال: «**ما لك يا عمرو**»؟ قال: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟ قال: أن يُغْفَر لي، قال: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**» [رواه ابن خزيمة في صحيحه].

إن الحج مؤتمر كبير منظم يتسم بالعدالة والمساواة وينبذ الفُرقة والطبقية والعنصرية.. فلا فرق بين غنى وفقير ورئيس ومرؤوس ومسلم عربي ومسلم أعجمي. وكيف يكون ذلك والعقيدة واحدة والهدف واحد واللباس واحد مُجَرَد من كل زينة. كل قد تجرد من حُلل الدنيا وارتدى ما يشبه الأكفان هكذا نبذ الدنيا وهكذا التوجه إلى الله ـ القلوب متعلقة بخالقها، الألسن تلهج بالتهليل والتكبير والتوحيد:

«لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك» إنها عالمية الرسالة وإعلان التوحيد على الدنيا قوة في الدين وصدق إلى الله في التوجه وتعاونٌ فريد وإيثار ورحمة وحسن خلق، حيث لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج.

إنه شعور يملء النفس بالسعادة الحقيقية. إنها لذة الطاعة، لا شيء من أمور الدنيا يشغل البال، وتتوالى أعمال الحج في نظام دقيق شعيرة تلو الأخرى، الذكرُ مستمر والدموع منهمرة والقلوب وجلة، تسأله العفو والعافية والسعادة في الدنيا والآخرة.

يتعارف المسلمون فيما بينهم وتقوي بينهم الروابط وتقوي آصرة الدين بينهم، فيصبحون قوة حقيقية لو توجهوا بعد الحج بهذه الطاقة الإيمانية الهائلة إلى الأقصى وبلاد المسلمين المحتلة لحرروها ولكسروا شوكة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

أليس الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

فهنيئاً لمن حج ورجع كما ولدته أمه نظيفاً باراً تقياً نقياً.

يقول ﷺ: «**العُمرة إلى العُمرة ـ كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءُ إلا الجنة**» [أخرجه البخاري/ كتاب العمرة].

يعود الحاج والمعتمر وقلبه عامر بالإيمان لأنه ذهب إلى الله وفي رحلة طاعة وليس ليقال عنه إنه حاج.

وحريٌ بمن كانت نيته خالصة لله أن يتحرى النفقة الحلال الطيبة، والزاد الحلال بعد أن يتزود بالتقوى والعلم النافع عن فريضة الحج.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا خرج الحاج بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك، زادُك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى: لبيك ناداه منادٍ لا لبيك ولا سعديك زادك حرام وحجك مأزور غير مبرور**» [أخرجه الطبراني في الأوسط].

ولكن للأسف نجد الكثير الكثير يذهب للحج لينال لقب الحاج وهذا اللقب يعني عنده أنه أصبح أقرب الصالحين إلى الله، ووضع عنه أي تكليف ومُحِيّ عنه كل وزر، فنجده ينتفخ عندما يناديه أحد يا حاج فلان ويغضب كل الغضبَ إذا قيل له يا أبا فلان، والمحزن في الأمر أننا نرى أمثلة ذلك كثيرة فمثلاً في عام ١٤٠١هـ.

ذهبت للحج مع والدي وزوجي وأمي وبعض أهلي، وكان يوم التروية يوم جمعة فدخل أهلي المسجد الحرام للصلاة، ومنعني عذرٌ منع من هي أفضل

مني من أمهات المؤمنين، وكم كانت الخطبة عظيمة فآنست حرماني من دخول المسجد، وكان الحر شديداً فطلبت شربة ماء من امرأة بجانبي فمنعتني فحمدت الله، وسكت وإذا بها تسب أم زوجها وزوجها، ثم سبت دينهم على مرأى ومسمع من الناس. فقلت في نفسي الحمد لله الذي لم يسقني من يد هذه العاقة، وبعد أقل من دقيقة إذا بسيدة أخرى ومعها ابنتها وابنها تجلس بجانبي وتفرغ قدحاً من اللبن تقول لي تفضلي بعد أن سلمت عليّ فشكرتها بحياء شديد، فإذا بها تلح قائلة: لن يشرب قبلك أحد، فشربت ودمعت عيني.

وقلت: الحمد لله الذي أبدلني خيراً من ماء هذه. وقلت لهم: جزاكم الله خيراً، وعندئذ تمنيت أن أسجد لله شكراً على هذه النعمة.

وفي العام التالي: سمع والدي امرأة تطوف حول البيت العتيق قائلة: بلغتها العامية: «يا وبور يا مولع طش الفحم» فقال لها: استغفري الله وتوبي إلى الله وقولي خيراً، وغير ذلك كثير.

كما أنني أرى كثيراً من أمثلة هؤلاء بالمسجد الحرام والنبوي الشريف جئن بملابس خفيفة جداً تشف جميع بدنهن، ولا تستحي الواحدة منهن ولا تجد عندها غيرة على نفسها وجسدها، كما أن الكثيرات منهن يعتقدن أن الحج لا يصلح إلا بثوب أبيض وطرحة بيضاء، وبعد الحج ترشها بماء زمزم وتحتفظ بها مخلدة عندها وسرعان ما تعود مثل هؤلاء إلى التبرج والزينة والعُري، فهل فقهت هذه وتلك معنى الحج، ومعنى الآيات في ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: ٢٩، ٣٠].

ونرى أخرى تتزمر من السعي وتتأفف وتكتفي بسعي شوطين فحسب،

مع أن السعي بينهما ركنٌ لا يصح الحج إلا به عند بعض الأئمة وواجب عند الباقي.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

هكذا تقرر الآية الكريمة أن الطواف بالصفا والمروة من شعائر الله، وإنما يقصد بالطواف بينهما التقرب إلى الله، وأعمال الحج كلها تجرد لله تعالى.

ويأتي أهم ركن في الحج وهو الوقوف بعرفة حيث إن من فاته عرفة فاته الحج، والوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة وحتى غروب شمس ذلك اليوم، وهو خير يوم طلعت عليه الشمس يجتمع الحجيج كلهم في عرفات الله يذكرون الله ويدعونه ويتضرعون إليه يسألونه التوبة وقبول الطاعات، الجميع مشتغل في تلاوة القرآن والابتهال إلى الله وسؤاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.. القلوب متعلقة بالله تتمنى طول الوقوف بين يديّه على هذه الحالة الحسنة، الكل يتمنى رحمة الله في هذا اليوم وصدق رسول الله حيث قال: «**الحج عرفة**» ويمتد الوقوف بعرفة إلى فجر يوم النحر.

ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

وتتوالى أعمال الحج في نظام جماعي ويفرح المسلمون بعيد الأضحى ونيل الجوائز، فمنهم من يطوف الإفاضة، ومنهم من يذبح هديه ويستعدون لرمي الجمرات وهم يتذكرون نبيهم «إبراهيم وما كان منه ومن ابنه إسماعيل» الذيّن تقبلا أمر الله بكل يقين ففداه الله بذبح عظيم ونجى الله إسماعيل، ويطردون الشيطان بتلك الجمرات يؤدون أركان الحج وسننه في امتثال وحب

وانقيادٍ وطاعة. يعلنون أنهُ ليس لك أيها الشيطان علينا سبيلٌ. اذهب من طريقنا إلى الله ـ مذموماً مدحوراً ـ، ويحلق الرجال وتُقصِّر النساء ويتحللون التحلل الأصغر وما زالت أيام التشريق أيام ذبح ورمي للجمرات الباقية، ومن رحمة الشارع الحكيم ومن أجل التيسير على المسلمين كان لمن أراد التعجل في يومين أن يتعجل، ومن أراد أن يتأخر فلا حرج عليه، ومن الملاحظات التي يجب الانتباه إليها:

١ ـ أنه لا يحل لامرأة أن تسافر للحج بدون محرم لقوله ﷺ: «**لا يحل لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حُرْمة**» «أي محرم» [رواه البخاري].

٢ ـ الكثير من المسلمين يجهلون من السنن الكثير، بل بعضهم يقول بكل أسف (مع أنه يعد من المثقفين) إن تقبيل الحجر الأسود واستلامه عمل من أعمال الوثنية!! نعوذ بالله من قوله هذا واعتقاده.

ومن حديث عمر رضي الله عنه، أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبلهُ، فقال: إني أعلمُ أنك حجر لا تضر ولا تنفعُ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يُقبلُك ما قبلتُك» [رواه البخاري ـ اللؤلؤ والمرجان ج٢/٥٦].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**قال: إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**» [رواه أبو داود والترمذي] ما يوضح أهمية قول النبي ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».

٣ ـ بعض المسلمين والمسلمات يكرهون ماء زمزم للأسف مع أنه أفضل أنواع المياه على سطح الأرض، وقد ثبت أنه يشفي بأمر الله من أمراض كثيرة قد يكون بعضها مستعصياً، وقد جربت ذلك بنفسي وقد شفيت تماماً من ألم شديد ألم بمفصل رجلي، وبعد تصوير الأشعة قررت الطبيبة أنني محتاجة لفترة علاج طويلة جداً، ولكن سرعان ما ذهب ذلك خلال موسم الحج بعد أن شربت بنية الشفاء وغسلت مكان الألم به.

وقال ﷺ: «**ماء زمزم لما شُرِبَ له**» رواه الحاكم في المستدرك ج١/٤٧٣ عن ابن عباس].

ويستحب الإكثار من شربه (التضلع منه) وكان ابن عباس يدعو أثناء شربه منه قائلاً: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً وشفاءاً من كل داء».

٤ ـ وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض والنفساء.

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خُفف عن الحائض» [ج٢ اللؤلؤ والمرجان ص٦٩].

٥ ـ يجوز الحج عن الغير الذي أقعده المرض والهرم ونحو ذلك، كما يجوز الحج عن الميت لحديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، قالت: يا رسول الله! إن فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: «**نعم**». [أخرجه البخاري ـ اللؤلؤ والمرجان ص٧٣ج].

وذلك بعد أن تحج عن نفسها من قبل ذلك.

٦ ـ أن تخصيص النساء بلبس زي معين ولون معين كالأبيض والأخضر من البدع، ولا أصل لذلك في الشرع، ولكن عليها أن تحرم في ثياب سابغة لا تشف ولا تخصيص للون معين.

٧ ـ أما عن لبس المرأة للنقاب والقفازين في الحج والعمرة، فإن ذلك مَنْهيٌّ عنه ولها أن تغطي وجهها بالبوشية (غطاء الوجه الكامل)، وذلك في حضرة الرجال وإذا لامست البوشية بشرة وجهها فلا شيء عليها، والنهي عن النقاب والقفاذين للمرأة المحرمة «لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين».

٨ ـ يَحْرُم على من دخل في الإحرام بحجة أو عمرة (قص الشعر وتقليم الأظافر ومس الطيب والصيد والخِطبة والنكاح ودواعيهما ـ كما أنه لا يجوز قطع الشجر الأخضر في الحرم سواء كنت محرماً أو غير محرم.

هذا ومن الأمور المحزنة والتي تضايق الحجاج والمعتمرين انتشار

المتسولين بكثرة في الحرم المكي، والنبوي لمن أراد الزيارة ووجودهم حول الكعبة وفي أروقة الحرم مما يؤذي المصلين والحجيج، وكم هم على خلق سيء يلحون على المسلم ليعطيهم ويضيعوا عليه لذة وجوده في هذا المكان الطاهر بإلحاحهم وبقذارة مظهرهم الذي يسيء للإسلام، ولا يراعون حرمة المسجد بأي حال من الأحوال، والعجيب أنهم يسبون من لم يعطهم سباً قذراً لا يصدر من محتاج متعففٍ أبداً.

أسأل الله أن يجنب الحرم شرهم وقذارتهم ورائحتهم المنفرة.

وسُئل رجل ألماني شرح الله صدره للإسلام.. ما الذي أعجبك في بلاد المسلمين؟

قال: مكة قلب الإسلام ومركز إشعاعه، والأزهر كم هو عظيم ولولا الشحاذون الكثيرون هنا وهناك، لما وجد أعداءُ الإسلام ما يشوهون به على هذا الدين العظيم.

والحقيقة أنني تضايقت عندما التفوا حولي في مكة، في منظر مشين وكذا في مصر. ولا بد أن تحارب هذه الظاهرة.

اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا، وحسن الخاتمة والتوبة النصوح لي ولأخواتي المسلمات، وإنها لمسؤولية الإعلام الذي يهدم أخلاق الناس في بلاد تدعي أنها مسلمة وتتفاخر بعدد مآذنها والتلفاز فيها لا ينقطع عن بث المنكرات والفجور ليل نهار، وإنه لمن المحزن أن نسمع رجلاً بعد الحج يقول: لقد اخترب بيتي وصرفت مصاريف كثيرة في حجة واحدة، مع أنني أحج مائة مرة للسيد البدوي ولا أتكلف ذلك.

إنها مسؤولية علماء الدين الذين قَصَّرَ بعضهم عن أداء واجبهم فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فهذا يُحِلُ الربا وشهادات الاستثمار، وذاك يحل الغناء والموسيقى، وذلك يقول الإيمان في القلب وليس الحجاب فرضاً، وهكذا طغت العلمانية والماسونية على أخلاق الناس، نسأل الله العافية وأدام الله الحرمين آمنين. آمين.

والناس بعد الحج صنفان كما صورت تلك الآيات التي أعقبت الآيات عن الحج في سورة البقرة.

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

وهكذا يكون حال الناس بعد الحج فريقٌ لم ينل من حجِّه عظةً ولا عِبْرة، ولم تتحرك همته لتغيير حاله، بل يظل همه الدُنيا.. والدُنيا فقط بكل ما فيها من كدر وألم ومنغصات. وليتهُ طلب حسنة الدُنيا بل اكتفى بتحصيل طلب الدُنيا فقط.

وفي الحديث الشريف: «**من كانت الدُنيا همهُ فرق الله عليه أمره وجعل فقرهُ بين عينيه، ولم يأته من الدُنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيتهُ جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتتهُ الدُنيا وهي راغمةٌ**» [أخرجه ابن ماجه في الزهد رقم ٤٠٩٥].

وأما الصِنْفُ الثاني فأولئك الموفقون الذين أحسنوا النيّة والقصد وأدوا مناسكهم، كما علمهم نبيهم ﷺ فدخلوا في روضة العبودية السليمة ووفقوا لحُسن الأداء والطلب والدعاء والذكر والعبادة، فجمعوا بين حسنة الدُنيا وحسنة الآخرة، ففازوا ورب الكعبة إن الإيمان إذا استقر في قلب العبد ظهر ذلك على عقله ولسانه وخُلقه وسلوكه وحركاته وسكناته، لأن فعل الإيمان بالقلوب عجيبٌ، ولهذا لا بد أن يجتمع الحبُ والخوف والرجاء كله معاً في العبد، فيعبد الله تعالى بذلك كله مجتمعاً ويكون ذلك علامة للعبد على قبول طاعته.

۞ مراتب الإيمان:

«تضم بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان...».

أركان الإيمان ستة

«أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره لأنه من عند الله تعالى».

۞ حقيقة الإيمان كما عرفه أهل السنة:

«تصديق بالجنان وعمل بالأركان...».

وقيل: «هو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب والعمل بالجوارح».

١ ـ الإيمان بالله:

هو أن تعتقد اعتقاداً جاذماً بأن الله ربُ كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه وحده المعبود بحق، وأن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له.

وأن كل العبادات من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وذل وخضوعٍ وخوف وحج وزكاة وما إلى ذلك لا ينبغي إلا لله عزَّ وجلَّ، وأنه سبحانه منزه عن كل نقص متصف بكل كمال.

إيمانٌ يتضمن توحيده في الربوبية فلا رب سواه فهو رب كل شيء ومليكه، ويتضمن توحيد ألوهيته سبحانه فلا إلٰه للكون سواه، فينبغي إخلاص العبادة لله وحده في ظاهرها وباطنها.

فلا يُقْصَدُ أحدٌ سواه بأي عملٍ تعبدي وهذا النوع يشمل جميع أنواع التوحيد. فيتضمن ذلك توحيده سبحانه في أسمائه وصفاته وفي ربوبيته سبحانه وتعالى.

والخلاصة هي أن نثبت له سبحانه ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله من نعوت الكمال وصفات التنزيه والتقديس لذاته القدسية من غير تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف.

يقول صاحب الواسطية رحمه الله تعالى: «ليس كذاته عزَّ وجلَّ ذات، ولا كاسمه اسم: ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ،

وجَلَّتْ الذات القدْسيّة أن يكون لها صفة حديثة، كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة أزلية، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة.

وقال سيد قطب رحمه الله تعالى: في تفسير الآية: «ليس كمثله شيء» والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالقُ الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه».

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، ولا يتجاوز القرآن والحديث».

وقال نُعيم بن حماد شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل».

ولقد أُثِر عن كثير من السلف الصالح أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله عزَّ وجلَّ: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وأما عن صفات الله تعالى فهي نوعان:

❁ صفات ذاتية: وهي التي لا تنفك عن الله سبحانه وتعالى كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم والمُلْك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة والحكمة.

فكل هذه صفات ذاتية ملازمة لذاته العُليا سبحانه ولا تنْفكُ عنه.

❁ وأما صفات الفعل فهي ما يتعلق بمشيئة الله وقدرته، كالاستواء والنزول والمجيء والعَجَبِ والضَحِكِ والرضى والحبِ والكرِه والسخطِ والفرح والغضب، والمكر والكيد[١] والمقت... إلخ.

---

(١) ذكر العلماء: أن هناك صفات كمال مقيد: وهذه الصفات لا يوصف بها الله إلا مقيداً مثل: المكر والخداع والاستهزاء والكيد وما شابه ذلك فلا تقول: إن الله من صفاته المكر أو... ولكن نقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤﴾ ونقول: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وتقول: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وهكذا يكون ذكر تلك الصفات وتعالى الله عما يصف الظالمون علواً كبيراً..

فالواجب علينا أن نثبت لله عزَّ وجلَّ هذين النوعين من الصفات على حسب المعنى الذي يليق بكمال الله تعالى. وهو المعنى الحقيقي لها دون تشبيه أو تعطيل أو تحريف أو تكيّيف.

ولله در الإمام الشافعي حيث قال رضي الله عنه في ذلك:

«آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ».

ولنعلم أن أسماء الله أَعلامٌ على الذات الإلٰهية كما أخبرنا ربنا بذلك في كتابه، وكما قال رسول الله في سنته عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وكان ﷺ يقول: **«اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء»** [أخرجه مسلم ج٨/٧٨ ـ ٧٩ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار].

ويقول شارحُ العقيدة الطحاوية: وأما إدخال «القديم» في أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام. وقد أنكر ذلك كثير السلف والخلف، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحُسنى التي تدلُ على خصوص ما يمدحُ به، وعليه فلا يكون القديم من الأسماء الحُسنى، وقد جاء الشرع باسمه تعالى الأول والآخر وهو أحسن من القديم، والعلم بذلك

مستقر في الفطرة[1].

ولهذا أخواتي ما ينبغي أن نحرف أسماء الله أو نلحد فيها أو نستبدل الأحسن بالحسن، لأن الله له الأسماء الحُسنى وليست الحسنة، وعلى ذلك فإن اسم النعيم خطأ فنجد رجلاً اسمه عبد المقصود، وعبد النعيم، وعبد المبدع، وعبد النور، وعبد الرشيد، وعبد الجادر... إلخ. وهذا لا يجوز، وعبد الونيس، وهناك أسماء مثل العبد الخالق، العبد الرازق... إلخ وهذا لا يجوز، وكذلك عبدالرضي وعبد النبي وعبد الرسول فمثلها مثل عبد المسيح وعبد السيد تماماً في عدم الجواز.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

وقول الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**» [رواه مسلم وغيره].

وقوله عزَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

وفي الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنكم كانوا على أتقي قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً،**

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته... ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المخيط إذا أُدخِلَ البحر» [رواه مسلم ج٨/١٧، حم ٥/١٦٠]

والخلاصة من ذلك: أن اسم الله الأعظم جمع معاني الأسماء كلها والصفات كلها، وأن كل اسم يدل على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم مشتق من مصدره، فالعليم من العلم والقدير من القدرة والسميع من السمع وهكذا، وهو سبحانه إله واحد لا شريك له ولا معين ولا صاحبة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١١٥.

ولا ولد له، فهو الغني بذاته عمن سواه، موجود بذاته من غير افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه. مستغن عن كل ما سواه، ومفتقر إليه كل ما عداه، قائم بنفسه على كل شيء - ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، وهو الذي استوى على عرشه كما قال وأراد.

وله الأولى والآخرة وله الحكم وإليه تُرجعون، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، يعلم السر وأخفى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

لا يؤوده حفظ جميع المخلوقات، وهو موجود الآن كما كان، وهو الفعال لما يريد ولا يكون إلا ما شاء وأراد، يُدْخِلُ مَنْ شاء في رحمته وجنته بتمام حكمته ورحمته لا بصالح الأعمال، كما يدخل من شاء النار بعدله وقدرته سبحانه وتعالى وهو الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ولله در القائل:

يا واحد في ملكه أنت الأحد ... ولقد علمت بأنك الفرد الصمد

لا أنت مولودٌ ولست بوالدٍ ... كلا ولا لك في الورى كفواً أحد

ومما تقدم يجب علينا أن نتفكر في عجائب صنع الله، ولا نفكر في ذات الله وكيفيتها فَنهلك مع الهالكين. ولقد نهانا الله ورسوله عن ذلك.

يقول تعالى ذِكْرهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

ولنعلم أن التوحيد الحق هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

يقول ابن تيمية في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص١٦٢:

ودين الله الذي هو الإسلام مبني على أصلين: على أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان رسوله، وهذان هما حقيقة قولنا: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فالإلٰه هو الذي تألهه القلوب عبادةً واستعانةً وتعظيماً ومحبةً وخوفاً ورجاءً وإجلالاً وإكراماً، والله سبحانه له حق لا يشاركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعي إلا الله ولا يخاف ولا يطيع إلا الله».

٢ ـ الإيمان بالملائكة:

يجب الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور خلقوا للعبادة والطاعة التامة لله سبحانه، ولهم صفات غير صفات الخلق، ولهم وظائف خاصة بهم. ولا يصح إيمان العبد ما لم يؤمن بهم تصديقاً للآيات والأحاديث الدالة على ذلك.

لقوله تعالى في سورة البقرة (٢٨٥): ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

ولحديث جبريل الشهير بحديث الإيمان حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وقد سبق ذكره في بداية الحديث عن الإسلام.

وصف الملائكة:

هم أجسام نورانية لا ذكور ولا إناث، لا يتزاوجون ولا يتناسلون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوطون ولا ينامون.

مطهرون عن الشهوات الحيوانية ومنزهون عن الآثام والخطايا، فلا يتصفون بشيء من صفات البشر التي اتصف بها بنو آدم.

وقال جمهور أهل الكلام من المسلمين: إنهم أجسام لطيفة أعطيت قدرة التشكيل بأشكال مختلفة، ومسكنها السماوات» [ج٦/٢٣٢ فتح الباري].

وقد رأى الصحابة جبريل عليه السلام على هيئة آدمي، وقد رآه

رسول الله ﷺ في حالته الملائكية، ولهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع.

يقول عزَّ شأنه في سورة فاطر آية (١): ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون وكلهم صالحون سواء ملائكة الرحمة أم العذاب أم الجنة أم النار، ولكل منهم وظيفة معينة، وأفضلهم جبريل أمين الوحي واسمه الروح القدس والروح الأمين والروح، ثم ميكائيل فإسرافيل، وهكذا والله أعلم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا...﴾ [النبأ: ٢٨].

قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وقال ﷺ: «**خُلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**» [أخرجه مسلم عن عائشة، وأحمد في مسنده].

وظائف الملائكة

أ ـ العبودية والطاعة الكاملة لله تعالى:

يقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

يقول سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠].

يقول سبحانه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧].

يقول سبحانه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦١].

ب ـ الوظائف الأخرى مثل:

١ ـ السفراء:

«كما في أول سورة فاطر»: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا...﴾.

٢ ـ الحفظة والكاتبين:

لقوله تعالى في سورة الانفطار (١٠، ١١): ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

وللحديث المتفق عليه، قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**» [رواه الشيخان].

٣ ـ ومنهم المؤيدون للمؤمنين في معاركهم ضد الباطل:

يقول تعالى في سورة فصلت [٣٠، ٣١]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٤ ـ ومنهم الذين يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم:

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

٥ ـ ومنهم حملة العرش:

لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

٦ ـ ومنهم الساجدون لله سبحانه:

لقوله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحُق لها أن تئط. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله» [رواه الترمذي].

٧ ـ ومنهم خزنة الجنة:

يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

٨ ـ ومنهم خزنة جهنم:

يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١].

٩ ـ ومنهم الصافات أقدامهم في الصلاة والزاجرات عن المعاصي بالإلهام ومنهم التاليات لكلام الله وذلك لقوله تعالى في سورة الصافات (١ ـ ٣):

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ...﴾.

١٠ ـ ومنهم المقسمات:

التي تتولى تقسيم أمور العباد من الأمطار والأرزاق... كما في سورة [الذاريات: ١ ـ ٤]: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ...﴾.

١١ ـ ومنهم المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات... إلخ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات: ١ ـ ٦].

وغير ذلك مما لا يعلم حالهم إلا الله سبحانه وتعالى.

أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان:

١ ـ البعد عن الوقوع في الأوهام والخرافات بما يعلمه من أحوال الملائكة وقدرتهم بأمر الله على تحريك الهواء وإنزال المطر وحدوث البرق والرعد والصواعق وجريان السحاب بعلمهم، وإيمانهم بما خص الله به الملائكة من تصريف أمور الخلائق.

فلقد وُكِلَ بالسحاب والمطر ملائكة، وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ووُكِلَ بالعبد ملائكة تحفظه وتحفظ ما يعمله وتحصيه وتكتبه، ووكل بالموت ملائكة وبالسؤال في القبر ملائكة، وبالأفلاك والشمس والقمر ملائكة، وبالنار وإيقادها وإعمارها ملائكة، والجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله سبحانه.

حدث معي ذات ليلة وقد خرج زوجي ليوصل أسرة كانت تزورنا في منطقة ليست بالبعيدة ـ وقد ترك باب البيت مفتوحاً خلفُه وذهبت أتوضأ لأصلي العشاء ـ وكان البيت في مكان متطرفٍ حوله حدائق وأشجار، فإذا بي أسمع صوتاً ينادي ـ يا عبدالله ـ يا عبدالله هو صوت زوجي، فقلت: تفضل الباب مفتوح ـ ثم انتبهت سريعاً وقلت ـ: إنني لم أسمع صوت السيارة ولم يكفِ الوقت لمجيء زوجي فركضت وأغلقت باب البيت، وحمدت الله تعالى وعلمت أنها تذكرة حتى لا أترك الباب مفتوحاً.

٢ ـ الاستقامة على أمر الله وطاعته لأن من يستشعر وجود الملائكة ـ جنود الله ـ معه ويؤمن بملازمتهم له وكتابتهم لأعماله وأقواله وشهادتهم عليه يستحي من الله وجنوده، فيراقب الله ويتقيه ويستقيم على سبيله.

٣ ـ الإيمان بالملائكة يبعث على الصبر والتحمل ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم اليأس حتى لو تخلى الناس عنه، لأنه يستيقن أن معه من هم أكثر عدداً وعُدة، وهم الملائكة الكرام البررة فيثبت أمام الباطل، وذلك لأنه أصبح أقوى سنداً وأكثر رفيقاً فيكون مطمئناً ومتوكلاً على الله.

۞ هذا ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة:

جبريل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي هو حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر (المطر) الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم والله تعالى أعلم.

وهم خلق كثير أطت السماوات بهم وحق لها ذلك ما فيها موضع أربع أصابع إلا، وملك قائم أو راكع أو ساجد لله سبحانه، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون. والقرآن مملوء بهم وصفاً وذكراً ورفع منزلتهم وحض على الإيمان بهم وكذا الأحاديث النبوية كثيرة في ذلك. يقول تعالى في سورة النساء (١٣٦):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته» [رواه مسلم في صحيحه].

٣ ـ الإيمان بالأنبياء والمرسلين

يجب الإيمان تفصيلاً بمن سماهم الله سبحانه في كتابه من الأنبياء

والمرسلين، وهم خمسة وعشرون. جاء ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

ويبقى سبعة وهم:

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وليس من ذكر فحسب كل من أرسل، ولكن هناك آخرين أعلم الله نبيه ببعضهم، والباقي تفرد الله بعلم إياهم لقوله تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٤، ١٦٥].

وهناك قول ضعيف يقول بأن عدد الأنبياء والمرسلين جميعاً هو ثلاث مائة وثلاثة عشرة، وهذا العدد هو نفس عدد الجنود الذين كانوا مع طالوت ونفس العدد، هو عدد جنود المسلمين في غزوة بدر، وهو عدد أصحاب المهدي آخر الزمان، والله وحده أعلم.

مراتب الرسل والأنبياء:

أفضلهم ألوا العزم وهم خمسة لقول ابن عباس وقتادة ومن وافقهما: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد» عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

ولقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

ولقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وجاءت الآيات كثيرة في الثناء على الحبيب ومزكيةً له ومنها:

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ وذلك تزكية لعقله ﷺ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ وذلك تزكيةً للسانه الطاهر عليه السلام.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وذلك تزكيةً لجليسه عليه السلام.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ وذلك لفؤاده عليه الصلاة والسلام.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وذلك تزكيةً لبصره عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ وذلك تزكيةً لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وذلك تزكيةً له كله ﷺ.

كما أن من إكرام الله له أن جعل طاعته طاعة لله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠].

جعله الله رحمة للعالمين وأرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً.

فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

كما أن الله جعله خاتم النبيين والمرسلين فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وفي ذلك يقول ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**فضلت على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون**» [وهذه رواية مسلم].

وقوله ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنةٍ من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» [متفق عليه واللفظ لمسلم].

وقال أيضاً: «**أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحي بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي**» [رواه مسلم ج١٥/١٠٤].

لكل هذا توجب علينا حبه أكثر من الدنيا وأنفسنا والناس جميعاً لقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**» [بخ١/٣٩، م٢/١٥ عن أنس بن مالك رضي الله عنه].

نعم أنت يا رسول الله أحب إلينا من كل ذلك ففيك صفوة آدم، وشجاعة نوح، وحلم إبراهيم، ولسان إسماعيل العربي الفصيح البليغ، ورضى إسحاق، وحكمة صالح، وبشرى يعقوب، وجمال يوسف، وصبر أيوب، وقوة موسى، وتسبيح يونس، وجهاد زكريا، ونعمة داود وهيبة

سليمان ووقار إلياس وزهد عيسى، وعلم الأولين والآخرين لأنك رحمةً للعالمين.

ونحن أمة الحبيب نؤمن بجميع الرسل والأنبياء ولا نفرق بين أحد منهم كما فعل اليهود والنصارى، لأن جميع المرسلين جاؤوا برسالة التوحيد والإسلام لله تعالى.

ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الواجب علينا اعتقاده في حق الرسل جميعاً

١ ـ أن خُلُقُهم الصدق في القول والعمل حتى لو كان أمراً عادياً:

فلقد بلغوا رسالات الله على أكمل وجه، فما تحكم فيهم هوى ولا رغبة، وذلك لأن الله تعالى كان في قلوبهم فوق كل بأسٍ ورهبةٍ، وهم معصومون من الكذب والخيانة وكتمان العلم والرسالة، ومعصومون من البلادة ومن المعاصي صغيرها وكبيرها. ولقد حلاهم الله بمكارم الأخلاق، فعقولهم ذكية، وقلوبهم نقية، وكلامهم حكمة، وحياتهم أسْوة وأجسامهم مبرأة من الأمراض الخبيثة، والأعراض المنفرة.

ولقد شهد الله تعالى لهم بأنهم بلغوا الرسالات وأدوا الأمانات ولم يخشو سواه.

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولقد شهد الله لهم بالصدق: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

٢ ـ الأمانة وهي العصمة:

كانت شعارهم وسمتهم على مدى العصور والأزمنة:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٦، ١٠٧].

وقالها هود وصالح ولوط وشعيب كلٌ لقومه.

ومن أجلها اختار عزيز مصر يوسف الصديق بن الصديق فيقول: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقالتها ابنة شعيب الحيّية الطاهرة في موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ولقد عرف الحبيب منذ نشأته بين أهله وعشيرته وفي قريش كلها بأنه الصادق الأمين فكان كذلك دائماً.

٣ ـ التبليغ وهي مهمة الرسل جميعاً أن يبلغوا الرسالات إلى الخلق:

لقد أرسل الله الرسل وأرسل إليهم الرسالات ليبلغوها إلى قومهم ويهدونهم بأذن الله ويخرجونهم من الظلمات إلى النور.. نور الرسالة والتوحيد لله.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

لقد بلغ كل رسولٍ رسالته كما أمره الله عزَّ وجلَّ:

فهذا نوح عليه السلام يقول: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٢].

وكذا هود: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨].

وهكذا خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغُمة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. نراه يقوم في حجة الوداع وقد أنزل الله

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ والآية دلالة على تمام أمر الله وكماله وتمام النعمة بالإسلام دين الحق، فيقول عليه الصلاة والسلام وهو على عرفات الله في خطابه الجامع في حجة الوداع... **ألا هل بلغت؟؟؟**

فأجابت الجموع المؤمنة الطاهرة: اللهم نعم... نعم بأبي أنت وأمي قد بلغت.

٤ ـ الفطانة والذكاء:

وهي ملَكَةٌ يقدر بها على إقامة الحجة على الخصم وإقناعه بالحق، لأن الله اختارهم على علم للنبوة والرسالة وتعليم الخلق وقيادة البشرية إلى النور والهدى قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

وقوله عزَّ من قائل في نبينا محمدٍ ﷺ: سورة الجمعة (٢): ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

كما أنه يستحيل في حق الأنبياء والمرسلين جميعاً وجود أضداد هذه الصفات الحميدة أو شيء منها. كما أن دعواهم واحدة وعقيدتهم واحدة ومنهجهم واحد مع تباين بعض الشرائع حسب وضع كل أمة وقد نسخ القرآن ذلك.

ويجوز في حقهم حيث أنهم أفضل البشر قاطبة اعتقاد أنهم:

١ ـ **كلهم رجال لقوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

٢ ـ أنهم يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويتناسلون ويعملون

ويتكسبون من عمل أيديهم ويسهون وينسون في غير ما أنزل الله إليهم وفي ذلك حكمة التشريع وهذا بأمر الله وقضائه.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقد نسي الحبيب في إحدى الصلوات فسلم بعد ركعتين فذكره الصحابة.

فقال: «**أنه لو حدث في الصلاة شيء أنبأتكم ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني**» [أخرجه السبعة إلا الترمذي/بخ١/٣٤١].

وعن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «**أربع من سنن المرسلين التعطر والنكاح والسواك والحياء**» [أخرجه أحمد والترمذي والبيهقي].

ولقد كان عَرَقُ النبيّ أطيب من ريح المسك، ولما لا وقد كان ﷺ قرآناً يمشي على الأرض.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما مسستُ حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت ريحاً قط - أو عرقاً - أطيب من ريح - أو عرق النبي ﷺ» [أخرجه البخاري ج٦/٥٦٦، م١٥/٨٦ نحوه].

فلنعلم ذلك جيداً حتى نستطيع الرد على أعداء الله وأعوانهم، فلقد جاءت بعض الدسائس والإسرائيليات بالكذب في حق هؤلاء الأنبياء الأطهار، كما أن وسائل الإعلام ما فتأت تبث سمومها لتشوه صور الأنبياء في مخيلة الناس والنشأ المسلم بصفة خاصة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فلقد تقولوا على الله ورسله بما هم منه براء.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم**».

والخلاصة أنه يجب علينا اعتقاد أن الأنبياء والمرسلين كلهم أهل كلمة واحدة هي الكلمة السواء التي أصلها ثابت، وفرعها في السماء فالتزم بها المؤمنون في كل زمان.

يقول تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وأما الشرائع فاختلفت في الأوامر والنواهي وفي الحلال والحرام.

يقول تعالى ذكره: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**نحنُ معاشرَ الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد**».

فالحمد لله أن خصنا بخاتم الرسُل وخاتم الرسالات. فإن القرآن دستور حياة، جمع الله فيه خير الرسالات السابقة ونسخها به.

هذا ولقد أمرنا الله بحب نبينا لأن حبه من حبه سبحانه فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

كما أمرنا سبحانه وتعالى بالصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

۞ يقول ابن تيمية:

«إن الله تعالى أوجب لنبيّه ﷺ على القلب واللسان والجوارح حقوقاً زائدة على مجرد التصديق بنبوته منها:

١ ـ أن يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم لقوله تعالى في سورة الأحزاب (٦): ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ...﴾.

٢ ـ أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كافة:

لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

٣ ـ عدم الكلام عنده إلا بإذنه وعدم رفع الصوت فوق صوته وعدم الجهر له كغيره:

لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢].

٤ ـ خصه الله بما يليق به فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

لقد نهى الله تعالى أن يقول أحدٌ من الناس: يا محمد، يا أبا القاسم، ولكن يقول يا رسول الله، ويا نبي الله وذلك تشريفاً له وتعظيماً لقدره ﷺ.

يقول ابن القيم وأستاذه ابن تيمية: لقد أكرمه الله سبحانه من بين أنبيائه ورسله فلم يدعه باسمه في القرآن، بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي المقابل نجد أنه عزَّ وجلَّ خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً فقال: «**يا آدم اسكن أنت وزوجك، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى، يا عيسى... إلخ**» أنه تعالى رفع ذكره فأوجب ذكره:

١ ـ في الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام حيث لا تصح إحداهما دون الأخرى. بل جعلتا قرينتين أبداً ما دامت السماوات والأرض.

٢ ـ في الأذان الذي هو شعار الإسلام ورمز علوه ودعوة للفلاح.

٣ ـ في الصلاة التي هي عماد الدين ـ في الإقامة والتشهدين.

٤ ـ لا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه عليه الصلاة والسلام عبد الله ورسوله.

يقول حسان ابن ثابت:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

٥ ـ جعله الله رحمة لأمته في حيّاته وبعد مماته وأمَنَةً لأمته:

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي حديث ابن مسعود: «قال: قال رسول الله ﷺ: «**حياتي خير لكم، تحدثون ويُحدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض عليَ أعمالكم، فما رأيت من خيرٍ حمدت الله عليه وما رأيت من شرٍ استغفرت الله لكم**» [رواه البزار ورجاله رجال الصحيح].

وقوله ﷺ: «**النجوم أمنة السماء (حفظة)، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنةُ لأصحابي، فإذا ذَهَبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمَنَةُ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**» [رواه مسلم رقم ٢٠٧، كتاب فضائل الصحابة].

٦ ـ كما أن من عظيم قدره ورفع ذكر ﷺ أن أقسم الله بحياته وببلده: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

قال ابن عباس فيما رواه البيهقي وابن أبي شيبة وابن جرير، ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنهم، عند ابن مردويه: «ما حلف الله تعالى بحياة أحدٍ إلا بحياة محمد ﷺ، قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾» [انظر الدر المنثور ج٤/١٠٣].

وأقسم الله ببلده فقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [سورة البلد].

٧ ـ وأقسم الله له فقال في سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

فجمع في ذلك القسم ودوام المعية والتأييد والنصرة والبشارة بالعطاء..

وقوله تعالى: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

وهذه شهادة من الله بأنه على الطريق المستقيم أبداً فلن يضره شيئاً بعدُ.

٨ ـ وأمر الله الأمة بالصلاة عليه والدعاء له لا سيما يوم الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ولقوله ﷺ: «**من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً**» [رواه مسلم].

وقوله: «**البخيل من ذكرت عنده ولم يصل عليّ**» [رواه الترمذي وقال حسن صحيح].

وقوله ﷺ: «**أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة، وأن أحداً لن يصلي عليّ إلا عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها**» قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**» [رواه ابن ماجه بإسناد جيد].

٩ ـ أسلم قرينة فلم يأمره إلا بخير كما أخبر ﷺ في ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكل به قرينهُ من الجن، قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال وإياي: إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**» [رواه مسلم عن عبدالله بن معسود رضي الله عنه].

هذا والكلام عن صفات الحبيب كثيرة وما خصهُ الله به، ولا يتسع

المجال لذكر ذلك كله، فاللهم صلي وسلم وبارك على محمدٍ، كما صليت وباركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد».

وأذكر رأي منصفين من الغرب في سيدنا محمد ﷺ:

يقول الفيلسوف الإنجليزي المشهور «برنارد شو»: «لقد كان دين محمدٍ موضع تقدير تام لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، وأنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهَضم لأطوار الحياة المختلفة، وأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية، وأن رجلاً كشاكلته إذا تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته».

ويقول العلامة «شبرل» عميد كلية الحقوق بجامعة (فيينا) في مؤتمر الحقوق **١٩٢٧**م: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجلٍ كمحمدٍ ﷺ إليها، إذ أنه برغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً من الزمان أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون، لو وصلنا إلى قمته بعد ألفيّ سنة»!!!

شهد الأنام بفضله حتى العِدا   والفضل ما شهدت به الأعداء

وصدق الله حيث يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

جاء النبيون بالآيات فانصرمت   وجئتنا بجديد غير منصرمِ
آياته كلما طال المدى جُدد   يزينهن جمال العتق والقدمِ

۞ مع كل ما ذكر من إعلاء الله قدر رسوله ﷺ فهو لم يخرج عن كونه بشر خصهُ الله برسالته ليخرج البشرية من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد. وحرص ﷺ كل الحرص على ترسيخ ذلك في ذهن أتباعه أنه بشر، وأنه لا يعدوا أن يكون عبداً لله فُضل بالرسالة، لم يستهوه أن يرى من المؤمنين به وبدعوته نوعاً من الإكبار لشخصه يسمو به عن منزلة

الإنسان، وبذلك كان وفياً لدينه ولكتاب ربه، وآيات ربه التي ينطق بعضها بقول الحق سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

ولقد كان ﷺ يكره حب الظهور لأن من خلقه التواضع واللين والرحمة. لقد كان يمسح على ظهر الطفل ويستمع للنساء الضعيفات، ويتسع مجلسهُ الشريف للفقراء قبل الأغنياء.

دخل عليه رجل يرجف خوفاً وَهَمَّ بالوقوع على قدميه الشريفتين ليقبلهما فقال له: رويدك يا هذا! إنما أنا بشر، أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد!!!

روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرتْ النصارى ابن مريم! فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**». قال ابن حجر: وسبب قوله ﷺ هذا ما وقع من معاذ بن جبل، فقد روى أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل أنه لما رجع من اليمن قال: يا رسول الله رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعضٍ، أفلا نسجد لك؟ فقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت**... لحديث».

وكثيراً ما كان ﷺ يكرر قوله: «**إنما أنا بشر**» كلما شعر بمبالغة المؤمنين في تعظيمه حتى لا يؤول الأمر بهم كما آل بالنصارى واليهود فما برحوا أن قالوا في عيسى: (المسيح ابن الله)، وقالت: (اليهود عزيرٌ ابن الله) وحاشا لله، فأكد عليه الصلاة والسلام أنه عبد الله ورسوله يعمل في حدود ذلك، فليس هناك مجالٌ إذن لدى المؤمنين أن يقعوا فيما وقع فيه النصارى وغيرهم.

وظل ﷺ يؤكد على أنه بشر وعبد لله ورسول نبي، حتى لا يأتي أحدٌ فيساويه بخالقه قدسيةً وتعظيماً، وكان يتلو قول الحق: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠].

هذه آية من الآيات التي حملها للناس كافة ضمن رسالته الغراء، أكد هذه العلاقة في حياته الشريفة وطلب أن يرعاها المسلمون بعده، حتى لا يكون مصيرهم مصير النصارى واليهود، الذين استحقوا لعنة الله بسبب ما حرفوا في دين الله مما يتعلق بمنزلة أنبيائهم.

وهكذا ظل معلم البشرية يؤدي الأمانة وينصح للأمة حتى تركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، نسأل الله سلامة الدين والموت على التوحيد.

٤ ـ الإيمان بالكتب:

يجب الإيمان بالكتب التي أنزلها الله سبحانه على رسله وبيّنها في كتابه العزيز، وأن لا نُنسِب إليه تبارك وتعالى غير ما نسب هو سبحانه منها لنفسه وهما:

١ ـ صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام:

لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

٢ ـ الزبور الذي أنزل على داوود عليه الصلاة والسلام:

لقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

٣ ـ التوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام:

لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ...﴾ [المائدة: ٤٤].

٤ ـ الإنجيل الذي نزل على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام:

لقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

٥ ـ القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ وهو خاتمها والمصدق لها والمهيمن عليها:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بها بما سمَّى الله تعالى منها في كتابه وهي سالفة الذكر، كما نؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى:

لقوله عزَّ من قائل: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

ويجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى، وتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته وذاته وصفاته وأسمائه، وأما ما نسب إليها مما يخالف ذلك، إنما هو من تحريف البشر وصنعهم.

وأما الإيمان بالقرآن فالإقرار به، واتباع ما فيه وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. والحقيقة أن الكتب التي نزلت قبل القرآن قد ضاعت جميع نسخها الأصلية، ولم يبق في أيدي أهلها إلا تراجمها المليئة بالشركيات والتحريف الذي هو من صنع البشر.

وقد شهد الله بذلك حيث قال عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

وفي الآية (٤١) من نفس السورة: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾.

قيل: حرفوه بالتبديل والتأويل.

۞ القرآن الكريم دستور حياة متكاملة:

لأنه رسالة عالمية شاملة تخاطب جميع البشر، ولم تختص بجنس دون آخر أو قوم دون قوم، أو أمة دون أخرى.

وهذه آيات تدل على عموم الرسالة وعالمية الدين الإسلامي:

يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ [المدثر: ٣٦].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

هكذا القرآن يخاطب الجميع وهو رسالة للجميع، للبشر كافة وللناس عامة.

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

يقول ﷺ عن كتاب الله: **«فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو**

الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ **من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل ومن دعى إليه هُدى إلى صراط مستقيم»** [أخرجه الترمذي] والصحيح أنه موقوف على سيدنا عليّ بن أبي طالب كما صرح بذلك كثير من أهل العلم.

وصدق رب العزة حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: ٥٤].

❁ **القرآن**: هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ المتعبدُ بتلاوته المعجز بأقصر سورة منه المتحدي به المبدْوء بسورة الحمد المختوم بسورة الناس، الموجود بين دفتيّ المصحف.

وهو القرآن، والفرقان، والذكر الحكيم، والتنزيل، والكتاب، والنور، والهُدى، والبيان وهو كلام الله سبحانه، والبلاغ.

١ - يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

٢ - يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

٣ - يقول تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: ٥٠].

٤ - يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

٥ - وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف].

٦ - وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ﴾ [التغابن: ٨].

هذا ويجب علينا تقديس كلام الله وتعظيمه والعلم به والعمل بما جاء فيه وعدم الاستخفاف به أو بأي شيء فيه، لأنه منهاج الحياة التي تكفل سبحانه وتعالى بحفظه حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

نعم هو منهاج الحياة لمن أراد الحياة، دستور في العقيدة والعبادة في الاقتصاد والسياسة في التربية والتعليم والسلوك والأخلاق والمعاملات، في السلم والحرب، في الطب والفلك والهندسة والتجارة والصناعة وغيرها منهاج للفرد وللأمة والمجتمع، بل للناس كافة في كل ما تحتاجه وتسأل عنه.. إنه كلام الحي وكلام الحي حي دائماً يُجيب عن كل ما يجول بالخاطر.

يقول القاضي عياض في الشفاء ص٣٢٥: «واعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحده أو حَرّفَ منه، ولو آية أو كَذّبَ به أو بشيء مما صُرح به فيه منْ حُكْم أو خبرٍ أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك أوشك في شيءٍ من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع».

يقول أحد علماء الغرب في القرآن:

❁ يقول الدكتور «موريس بوكاي» الفرنسي يصف القرآن: «إنه بمثابة ندوة علمية للعلماء، ومعجم لغة للغويين، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه، وكتاب عروض لمحب الشعر وتهذيب العواطف، ودائرة معارف للشرائع والقوانين. وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورة من سوره، في حسن المعاني وانسجام الألفاظ، ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكاً بهذا الكتاب، واقتباساً لآياته يزينون بها كلامهم ويبْنون عليها آراءهم، كلما ازدادوا رفعةً في القدر ونباهةً في الفكر».

❁ ويقول المؤرخ الإنجليزي الشهير «ولزآن»: «إن الديانة الحقة التي

وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الإسلامية، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات علمية، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع، فهو كتاب علمي، ديني، عملي، اجتماعي، تهذيبي، خُلقي، تاريخي، أكثر نظمهِ وقوانينه تستعمل في وقتنا الحالي وستبقى مستعملة حتى قيام الساعة» [الوصايا: ١٦٩ ـ ١٧١].

وصدق الله القائل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٩].

❁ والقرآن يُعلي شأن أهله في الدنيا والآخرة:

والمقصود بأهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصتهُ الذين يتلونه حق تلاوته ويعملون به، ويفقهون معانيه ويقفون عند حدوده ويتأدبون بآدابه وليس من اتخذه سلعة وشهرة.

هؤلاء يُجلُهم الله ويحبُهم ويدْنيهم ويقربهم ويخصهم بفضله لأنهم أهل الله وخاصتهُ.

عن أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**» [رواه مسلم].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويضعُ به آخرين**» [رواه مسلم].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كُنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» [رواه أبو داود والترمذي].

والقرآن سببٌ في رفعة أهله وإمامتهم وتقدمهم وإجلالهم.

قال ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط**» [رواه أبو داود في سننه].

وقال ﷺ : «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسُنةِ فإن كانوا في السُنة سواء، فأقدمهم في الهجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سِناً...**» [رواه مسلم].

وهذا الإكرام والإجلال والتقدير موصولٌ بحامل القرآن العامل به حتى بعد موته، وهذا من بركة القرآن على أهله لأنهم صانوه فصانهم وعظموه فَعَظُموا به.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ كان يجمعُ بين الرجلين من قتلى أُحد، ثم يقولُ أيهم أكثر أخذاً للقرآن، فإن أُشير إلى أحدهما قدمه في اللَّحد. [رواه البخاري].

ولقد فهم ذلك السلف والخلف فأكرموا حامل القرآن وأعلو قدره، وقد ظهر ذلك في تقديمهم له في إمامتهم وفي تعليمهم وفي القضاء بينهم وفي مجالسهم... فالله الله في أهل القرآن، جعلنا الله وإياكم من أهل القرآن وخاصته العاملين به التالين له حق تلاوته كي تزكوا نفوسنا وتهذب أخلاقنا وتنشرح للخير صدورنا... آمين.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر:

ويجب الإيمان باليوم الآخر وبالآيات والعلامات الصُغرى والكُبرى التي تسبقُه وأنه لا ريب آت، وموعده لا يعلمهُ إلا علام الغيوب.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولليوم الآخر أسماء كثيرة نذكر منها:

اليوم الآخر ـ الميعاد ـ يوم النشور ـ الساعة ـ القيامة ـ الدِّين، ويوم التلاقي، ويوم الخلود، يوم النفخ، والبعث والحشر، والحسرة، ويوم التغابن، ويوم الخروج، ويوم التناد، ويوم الفزع الأكبر، ويوم العرض،

ويوم الحساب، ويوم الفصل، واليوم المشهود، واليوم العقيم، ويوم الجمع، اليوم الموعود، يوم الزلزلة، الغاشية ـ الصاخة ـ الطامة الكبرى والحاقة، الواقعة، القارعة، الآزفة...

ولنقف مع بعض معاني هذه الأسماء وقفة تأمل!!!

الغاشية: أي التي تغشى الناس بأهوالها.

الحاقة: أي أن هذا اليوم حق لا مريّة فيه وهو واقع لا يرتاب فيه عاقل.

الطامة: الداهية التي تطم وتعلو على سائر الدواهي.

القارعة: وهي التي تقرع النفوس من شدة أهوال ذلك اليوم والتكرار هنا في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١ ـ ٣] لإدخال الرعب في النفوس وتخويفها بالله فترتدع عن المعاصي، عندما تتخيل أهوال ذلك اليوم.

الذي يجيب عزَّ وجلَّ عن التساؤل فيه فيقول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٤ ـ ٥] وهذا التصوير من بلاغة القرآن العظيم، حيث يكون الناس في تفرقهم وانتشارهم هنا وهناك كالفراش، وكيف لا وحالهم بين الفزع والحيّرة!!

۞ قال الإمام الرازي:

شبه الله تعالى الخلق وقت البعث هنا بالفراش المبثوث وفي موضع آخر بالجراد المنتشر، أما وجه التشبيه بالفراش فلأن الفراش إذا سار تفرق كل واحدة منه في جهة، وليس لجهة واحدة وفي ذلك دلالة على فزع الناس إذا بعثوا، وأما وجه الشبه بالجراد، فهو الكثرة التي عُرف بها الجراد.

ويقول الدكتور محمد هاشم: قال عزَّ وجلَّ يصور حالهم في ذلك اليوم: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

ولا تؤثر القيامة في الناس فحسب، بل في السماء بالانشقاق وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدك، وفي الكواكب بالانتشار وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار.

ويقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله عليه الصلاة والسلام ويخرجون منها غير واعين ولا حافظين، ولا متذكرين؟ ماذا ينتظرون! فهل ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ فتفجأهم وهم سادرون، غافلون».

نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا ونسأله تعالى أن يُثقل موازيننا ويكتب لنا العيشة الراضية... آمين.

* * *

علامات الساعة

أولاً: العلامات الصغرى:

جاء في الحديث الصحيح: «حديث جبريل عليه السلام أنه سأل الرسول ﷺ عن الساعة؟ فقال: **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**».

قال: فأخبرني عن أماراتها؟

قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العُراة العالة رعاءُ الشاء يتطاولون في البنيان**» [متفق عليه].

وهذا يدل على صدق نبوة الحبيب كما أن الحديث من إحدى معجزاته ﷺ.

❁ وقد رأينا هذا في زماننا حيث أصبح أهل البداوة والرعي أصحاب ثراء عريضٍ، وترف ظاهرٍ وقصورٍ عالية.

❁ والعلامة الأولى أن يكون السادة من أولاد السراري حيث تلد الجارية من سيدها فيصبحُ سيدها.

❁ كثرة المال وزيادته حتى يفيض، وظهور الفتن التي لا تُبقي على آصرة ولا قرابة ولا جوار.

❁ وقوع القتل وكثرته في الناس كما هو حاصل الآن.

❁ إسناد الأمور لغير أهلها، وذلك بعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهذا مشاهد وظاهر في واقعنا.

وكم من القُدرات والطاقات أهدرت، كما وضعت في غير موضعها.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة، وحتى يبعثُ دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهم ربُ المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل يقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه...»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟

فقال: **«إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة»** قال: وكيف إضاعتها؛ قال: **«إذا أُسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»** [بخ١١/٢٧٩].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا ويشرب الخمر، ويكثر النساء، ويقل الرجال، حتى ليكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد**»، أو كما قال ﷺ.

وهذا كله حدث وبكثرة نسأل الله العافية.

وقد انتشر الجهل ولا سيّما الجهل بالدين وبأمر الله وحكمه وشرعه وكتابه وسنة نبيّه، وانتشرت أقلام الباطل لا كَثَّر الله أصحابها...

ولله در علي ابن أبي طالب حيث قال:

عتبت على الدنيا لرفعة جاهلٍ وخفضٍ لذي علم فقالت خذ العُذرا

بنو الجهل أبنائي لهذا رفعتُهمْ وأهل التُقى أبناء ضَرتي الأخرى

أأترك أبنائي يموتون ضيعة وأرضع أبناءاً لضرتي الأخرى!!

ومن العلامات أيضاً ما جاء في الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول: يا مسلم: يا عبدالله هذا يهوديٌ خلفي فتعال فاقتلُه إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**» [م١٨/٤٤] هذه بعض العلامات لا كلها.

ثانياً: العلامات الكُبرى:

ووجوب الإيمان بالآيات العشر التي أخبر رسول الله ﷺ عنها والتي تسبق قيام الساعة...

١ ـ طلوع الشمس من المغرب، وهذه العلامة هي بداية التغيير الذي يحدث في نظام الكون.

٢ ـ ظهور الدابة التي تكلم الناس «خروج الدابة» وهو ثاني أمر عجيب يُحْدث.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

وفي الحديث عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً**» [رواه مسلم، وأبو داود ـ باب أمارات الساعة].

٣ ـ خروج المسيح الدجال.

أخرج الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الدجال يخرج وإن معه ماءاً وناراً. فأما الذي يراه الناسُ ماء فنارٌ تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماءٌ باردٌ عذبٌ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً، فإنه ماء عذبٌ طيب**» وذلك يكون فتنة للكافر وثبات للمؤمن.

و﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٤ ـ نزول عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ...﴾ [الزخرف: ٦١].

قال ابن كثير: آية الساعة خروج عيسى قبل يوم القيامة.

وقد دلت السُنة وأجمعت الأمة على خروج عيسى عليه السلام قبل القيامة، وأنه ينزل في آخر الزمان، قرب الساعة أثناء وجود الدجال، فيقتله، ويحكم بشريعة الإسلام، ويُحيي من شأنها ما تركه الناس، ثم يمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفن.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٩].

وفي الحديث المتفق عليه: قال ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»**.

٥ - ظهور يأجوج ومأجوج:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

٦ - الدخان.

٧ - **٩** - الخسوف الثلاثة.

١٠ - النار التي تخرج من اليَمنْ.

روى الإمام مسلم عن حذيفة ابن أسيد قال: اطلع علينا النبيّ ﷺ ونحن نتذاكر الساعة، فقال: **«ما تذاكرون»**؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: **«إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشرُ آياتٍ، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسّفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»**.

نسأل الله العو والعافية والسلامة من الفتن... وهذه العلامات العشر تسبق اليوم الآخر مباشرة، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولم يبق أحدٌ في الأرض يقول الله ...الله... فاللهم سلم.. سلم.



الركن السادس من أركان الإيمان

٦ ـ الإيمان بالقدر خيرهُ وشرهُ:

الإيمان بالقضاء والقدر من تمام الإيمان بالله عزَّ وجلَّ وصدق التوحيد، فالعبدُ يؤمن ويعتقد اعتقاداً جازماً أن الأمور كلها بيَد الله، وهو وحده مقدرها ومدبرها بعدله وحكمته..

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥].

وفي حديث جبريل المتقدم: «... **وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

وفي الحديث الصحيح قال ﷺ: «**قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**».

❁ **والإيمان بالقدر يشمل أربع مراتب ـ هي خلاصة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية:**

١ ـ الإيمان بعلم الله القديم وأنه عَلِمَ أعمالَ العباد قبل أن يعملوها، وذلك لأنه سبحانه خالق العباد وأفعالهم.

٢ ـ كتابةُ ذلك في اللوح المحفوظ.

٣ ـ مشيئة الله النافذة وقدرتهُ الشاملة.

٤ ـ إيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وكل ما سوه مخلوق.

والقضاءُ إذن هو إبراز الكائن إلى الوجود بقدرته تعالى.

فمثلاً: قضى الله عزَّ وجلَّ أن فلانة تتزوج فلاناً. وأن فلاناً يحدث له الحادث الفلاني في الوقت كذا، فهذه الأشياء بعد وقوعها وحدوثها نعلم أنها حدثت بقضاء الله وأنها سابقة في علمِه، أما نحن فلم نعرفها إلا بعد حصولها... وهكذا.

وقد جاءت كلمة القضاء في القرآن بمعاني عديدة، وقيل: هو معنى مشترك بين معان فيقال قضى بمعنى:

١ ـ خلق: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ...﴾.

٢ ـ أعْلمَ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ...﴾.

٣ ـ أمَرَ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٤ ـ أوفاه (أتَمهُ): ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ...﴾، ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا...﴾.

٥ ـ بمعنى أراد: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٦ ـ **بمعنى حَكَمَ**: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾.

والقدرُ: هو علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

۞ **وعرف بعضُ العلماء القضاء والقدر معاً بأنه**: «هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسُنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها».

وعرفهُ الدكتور كمال محمد عيسى في كتابه «سفينة النجاة»: بأنه علم الله وإرادته كما يظهران على صفحة الحياة اليومية للبشر.

وعقيدة القدر مبنيّة في حقيقتها على الإيمان بصفات الله العلى وأسمائه الحُسنى، التي منها العلمُ، القدرةُ، الإرادةُ، الحكمةُ، العدل... إلخ.

❁ **قال الإمام الطحاوي**: «وكل شيءٍ يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفُذ، ولا مشيئة للعباد إلا ما شاء الله، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن» [العقيدة الطحاوية/١٣٥].

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقِّب، ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عُقِد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، ولا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحدٍ يخلق فعله؟!

ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة.

والقدرُ الذي هو التقدير المطابق للعلم: يتضمنُ أصولاً عظيمة:

١ ـ أنه عزَّ وجلَّ عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفي ذلك رداً على من ينكره.

٢ ـ أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، أي صفاتها المختصة بها، فإن الله جعل لكل شيء قدراً.

٣ ـ أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، وهذا يدلُ بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم، فإذا كان يُعْلِمُ عباده بذلك فكيف لا يعلمهُ هو؟ كما تقول القدرية!!

٤ ـ أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله، محدث له بمشيئته وإرادته.

٥ ـ أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

قال الإمام الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً،

وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في محض الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً» [انتهى كلامه].

فنعوذ بالله من اعتقاد أهل الضلال والغفلة ونسأله صلاح العقيدة والنية والعمل..

۞ سؤال يُطْرحُ كثيراً: هل الإنسان مُسيّر أم مخيّر؟؟؟

لما كان القدر هو عبارة عن الخطة الربانية الأزلية كما سبق في علم الله وإرادته.

فإن الغيب مسجلٌ عند علام الغيوب في كتاب غيّبي لا يعلم حقيقتهُ وجميع ما به إلا الله، وقد سُطِرتْ فيه مصائر الكون أرضه وسمائه، إنْسِه وجِنُّه (وجانه)، من خيرٍ وشرٍ وسعادةٍ وشقاء، وثواب وعقاب، بل كل شيء، لأن علم الله أحاطَ بكل شيءٍ وحاشاه أن يخفى عليه شيء من أمر خلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾...﴾ [القمر: ٤٩].

ولقد ذكر لفظ القدر في القرآن الكريم عشر مرات، وهو يدل على أحداث الأرض والكون ووقائع التأريخ والزمن وكل ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض وبالجملة كل ما يحدث في هذه الأشياء فإنه يحدث بميزان الحكمة والعدل وقدره الله بمقدار ما تقتضيه رعاية الله لخلقه.

قال تعالى: ﴿... وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩].

والأمور التي يدور حولها الكلام في هذا الموضوع ثلاثة:

١ ـ أمرٌ لك: أنت فيه مُسيَّرٌ مثل إنزال المطر وإنبات الزرع واختلاف الثمر، واختلاف الجو حرارة واعتدالاً وبرداً... إلخ. فهذا كله من أجلك.

٢ ـ أمرٌ منك: وأنت فيه مُخيّر مثل اختيار طعامٍ دون آخر، واختيار سفر إلى طاعة أو معصية، أخذ الدواء أو عدمه...

٣ ـ أمرٌ عليك: وأنت فيه مُسيّر مثل طولك، لونك، جنسك، اسمك أمك وأبيك وإخوانك، فأنت لم تختر شيئاً من ذلك.

الإنسان مُسَيّرٌ ومُخيّرٌ:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨].

١ ـ ومما سبق يتبين أنه يجري على الإنسان أعمالٌ خارجة عن حدود إرادته، ليس له فيها أي اختيار مثل حياته وموته وطوله وقصرُه والمصائب التي تحُل به والابتلاءات التي تحدث له في حياته ولا مفر منها، ولا قبل له في تغييرها أو رفعها لكنها تمر بقدر الله وقضائه المرسوم، والذي سبق في علمه والإنسان في ذلك مُسيرٌ غير مُخيّر.

ولأن العدل من أسمائه سبحانه وصفاته فإنه لا يحاسب العبد على هذه الأمور، فلا يسأله لماذا مُت في اليوم الفلاني ولا لماذا ولدت في الساعة الفلانية، ولا لماذا هذا أبوك أو هذه أمك؟؟

أو لماذا أنت قصيرٌ أو طويل؟؟ إلى غير ذلك.

٢ ـ الأعمال التي يعملها الإنسان بكل إرادته من خير أو شر أو أكل أو شُرب أو قيامٍ أو قعودٍ... إلى غير ذلك.

والتي يقوم بها مُختاراً غير مُجْبرٍ والتي يتميز بفعلها عن البهائم التي لا تُميز، حيث تُساق إلى الذبح وهي لا تدري حتى ترى السكين، وهنا تشعر بالخطر.

إذن فأنت مُخيرٌ إذا مشيت للمعصية بإرادتك، ومُخيرٌ في اختيار الإيمان أو الكفر، وقد علمت أن للأولى الجنة والنعيم وللثانية النار والعذاب المهين، فلقد أوضح الله ورسوله لك طريق الحق وطريق الشر والباطل، وأعلماك نهاية السير في كلاهما وأنت بعدُ تختار.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

سبحان الله جميع المخلوقات تسجد طائعة غير مكرهة عدا الإنسان فكثيراً ما يعصي الله... لماذا؟

لأن الإنسان وحدهُ هو الذي يعمل بمحض إرادته الحُرة ومشيئته المختارة (والتي تقع تحت نطاق قدر الله وقضائه وعلمه السابق والأبدي).

ولو كان الإنسان مُسيّراً في هذه الأعمال غير مُخيّر فلماذا إذن: إرسال الرسل؟ وإنزال الكتب! ولما الجزاء والحساب، بل ولما الجنة والنار؟؟ وحاشا لله أن يخلق شيئاً عبثاً...

ومعنى ذلك أن مشيئة الإنسان بعد مشيئة الله عزَّ وجلَّ، بل هي تابعة لمشيئة الله عزَّ وجلَّ تبارك وتعالى.

لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بحالٍ من الأحوال.

ولهذا ربط الله الأسباب المسببات.

فمثلاً: قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾!!! يعني: الإيمان سبب مُسببٌ للهداية، فمن لم يؤمن بالله فلا سبيل له للهداية.

٢ ـ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وكذلك زيغهم عن الحق سبب في إزاغة الله لقلوبهم، وقد سبق في علم الله أنهم سيزيغون.

٣ ـ ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فالسعيُ سبب في الرزق

والمريض الذي يترك الدواء ولا يأخذه فيموت، أو المضطر لأكل الميتة فترك الأخذ بالعزيمة فمات فهما ممن «أهلك نفسه».

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾.

وهكذا نرى أن العبد يختارُ الفعل، وييسر الله طريقه دون جبرٍ أو إكراه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ٥ ـ ١١].

فهكذا رتب الله المسببات على الأسباب في كل شيء من أمور الدين وأمور الدنيا.

إن ترك العمل والدعاء نظراً للقدر السابق مُخالفٌ للكتاب والسُنة المطهرة فقد أمر الله بالعمل وعدم التواكل:

فقال: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقال لمريم البتول العابدة: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: ٢٥].

ولو شاء تعالى لأدناه لها فأكلت وهي جالسة لا سيما وهي نَفُسَاء، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ [غافر: ٦٠].

روى الشيخان عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة ببقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، وبيده مخصرة فجعل ينكت بها الأرض ثم قال: **«ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعدهُ من النار ومقعدهُ من الجنة»**، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: **«اعملوا فكلٌ مُيسّرٌ لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فيصير إلى عمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فيصير إلى عمل الشقاء»**، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧...﴾ الآيات [متفق عليه].

وقيل لرسول الله ﷺ: «**أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نترقى بها، وتُقي نتقي بها، هل تردُ من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله**».

هذا ودفع القدر بالقدر نوعان:

أ ـ دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابهُ ولم يقع بعدُ بأسباب أخرى من القدر تقابلهُ: فيمتنع وقوعه بإذن الله، كدفع العدو بالقتال، ودفع الحر والبرد ودفع الجوع بالطعام وهكذا.

ب ـ دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعهُ ويزيله مثل: دفع المرض بالتداوي ودفع الذنب وعقوبته بالندم والتوبة ودفع الإساءة بالإحسان، ودفع الابتلاء بالتضرع والدعاء وصدق التوجه إلى الله تعالى.

وكل ذلك يدل على تمام الإيمان بقدر الله عزَّ وجلَّ، أما العجزُ والكسل فليس من الإيمان، بل كرهه الرسول ﷺ، واستعاذ منه فقال: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل**» [رواه الترمذي].

وبعض الناس يجعل القدر مِشْجَباً يعلق عليه خيبة أمله، وضعف همته، وعجزه عن تحقيق غاياته، وما يصبو إليه في دنياه وآخرته، فلا يُحدث بعد الذنب توبة ولا بعد الفشل همة ونجاحاً.

۞ وخلاصة الكلام في ذلك كله:

١ ـ أن مشيئة الله غيب لا وسيلة لنا إليها.

٢ ـ أن علم الإنسان محدود فهو لا يعلم ما سيقع له في المستقبل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

٣ ـ أن سطور القدر غيبٌ مصونٌ ليس لنا الوصول إليه...

إنما الغيبُ كتابٌ صانه ... عن عيون الخلق ربُ العالمين
ليس يبدو منه للناس ... سوى صفحة الحاضرِ حيناً بعد حين

٤ ـ أن الله خلق البشر باستعداد تام للهُدى والضلال، ومنحهم العقل للترجيح بين الحق والضلال. وبث حولهم الآيات الكونية التي تدلهم على الهداية وأرسل الرسل، وأنزل الكتب وأوضح الشرائع وأظهر طريق الحق وطريق الضلالة، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

روي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**يكون في آخر الزمان قومٌ يعملون بالمعاصي، ثم يقولون: الله قدرها علينا، الرادُ عليهم يومئذٍ كالشاهر سيفهُ في سبيل الله**».

هذا وقد سُئل علي رضي الله عنه عن القدر فقال: طريقٌ مظلمٌ فلا تسلكوه.

ثم سئل ثانية: فقال: بحرٌ عظيمٌ فلا تلجوه.

ثم سُئل ثالثة: فقال: سرُ الله فلا تتكلفوه.

وقد سُئل جعفر الصادق عن القدر فقال: «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراد بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالُنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟؟؟».

وقال ابن القيم في مدارج السالكين: «ليس إسقاطُ الأسباب من التوحيد، بل القيام بها، واعتبارها وإنزالها في منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية» [ج٣/٤٩٥].

وللإيمان بالقضاء والقدر أثرٌ في عقيدة المسلم:

❁ هذا الأثر نجده في التربية الإيمانية التي تربى عليها الصحابة، فهي تتجلى في وصية النبيّ ﷺ لابن عباس رضي الله عنه مُنذ أن كان غلاماً فقال له: «**يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» [رواه الترمذي].

وقال: حسن صحيح، ورواه غيره.

❁ وهذا الحديث وتلكم الوصية لا بد وأن تكتب بماء الذهب لأنها وصية ممن لا ينطق عن الهوى.

سُئل سلمان الفارسي رضي الله عنه وأرضاه: ما قول الناس: «...حتى تؤمن بالقدر خيره وشره»؟؟

فقال: «حتى تؤمن بالقدر: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك...» [الشريعة للآجري ص٢٠٦].

نعم إنها العقيدة السليمة التي سكبتْ في قلوبهم السكينة وأفاضت على نفوسهم الطمأنينة، وربتهم على العزة، فارتاحت أعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين إلى البشرية، وقد استصغروا قوى الأرض جميعاً أمام إيمانهم العميق بقدر الله عزَّ وجلَّ.

مرتبة الإحسان والمراقبة

وهي مرتبةٌ عظيمة لا تتحقق للعبد إلا إذا حقق مرتبة الإسلام والإيمان قولاً ويقيناً وعملاً وسلوكاً، فراقب الله في كل عملٍ يعمله كبيراً كان أم صغيراً وأحسن النية والقصد فيه لله تعالى.

ولقد عرف النبيُّ الإحسان بأنه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧، ٢٢٠].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أوصني: قال: **«أعْبُد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى وإن شئت أنبأتك بما**

هو أملك بك من هذا كله... قال: هذا! وأشار بيده إلى لسانه» [رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد].

ومعنى أن تعبد الله كأنك تراه: أي تراقب الله سبحانه وتعالى في جميع أعمالك الدنيوية والأُخروية حتى يتحقق الإحسان، وتصل لهذه المرتبة التي عناها جبريل في سؤاله للنبيّ ﷺ أمام الصحابة ليعلمهم أمر دينهم.

ولا يصل إلى مرتبة الإحسان حقاً إلا كل صِدِّيقٍ.. صادق مع ربه، فإذا راقب العبد ربه في جميع أمور حياته كان ربانياً عارفاً بحق الله عليه وحق عباده أيضاً، فيسْعدُ في الدنيا والآخرة.

ومن كان هذا حالهُ كان نقي السريرة وأميناً رفيقاً حسن الخُلق والعشرة مأمون الجانب قد نأى بنفسه عن السقوط في الزلل ومهاوى الرذيلة، لأنه ارتفعت همته بمراقبته لمولاه عن ذلك كله... ومن كان مع الله كان الله معه.

قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ...﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث القدسي: يقول الله تعالى: **«أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكُرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُهُ في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتهُ في ملأٍ خيرٍ منهم، وإنْ اقتربَ إليّ شبراً اقتربتُ منه ذراعاً، وإن اقتربَ إليّ ذرعاً اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً»** [رواه الترمذي ج١٠/٦٤ رقم ٣٦٧٣].

فسر بعض أهل العلم هذا الحديث: قالوا إنما معناهُ يقولُ إذا تقرب إليّ العبدُ بطاعتي، وبما أمَرْتُ تُسارِعُ إليه مغفرتي ورحمتي.

وقال النووي: ومعناه من تقرب إلى بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق، والإعانة أو إن زاد زدتُ فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيتهُ

هرولة: أي صببتُ عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجهُ إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود.

فأسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن امتدحهم بذكر صفاتهم الطيبة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأهل الإحسان في الدنيا هم الذين يباهي بهم الله ملائكته، وقد حفهم النور من كل جانب في موكب الشرف والعزة.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

وهكذا عرفنا مراتب الدين الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان بشيء من الإيجاز، كما عرفنا مما مر بنا أنه لا يجب صرف أي عبادة من العبادات مثل الإسلام، والإيمان والإحسان، والدعاء والرجاء والخوف والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والتوكل والإنابة والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، والنذر والذبح وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس وغير ذلك إلا لله، فلا ينبغي أن يُصْرف شيءٌ منها لغير وجه الله تعالى: «الدليل على ذلك».

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

أسأل الله الإخلاص في القول والعمل والقصد.. آمين.

العلاقة بين الإسلام والإيمان وأنهما يزيدان وينقصان وعلاقة ذلك بالعمل الصالح:

ولتوضيح العلاقة بين الإسلام والإيمان وأنهما يزيدان وينقصان نقلتُ قول الإمام النووي في صحيح مسلم عن ذلك:

فقال: اسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات فإن كل ذلك استلام.

قال النووي فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان وأن كل مؤمنٍ مسلمٍ وليس كل مسلمٍ مؤمناً.

والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال الصالحة ونقصانها.

والإيمان قول وعمل يزيد وينقص والدليل على ذلك ما أورده البخاريُ من آيات قرآنية منها:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ..﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

﴿... وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

والآيات في ذلك كثيرة جداً لا مجال لحصرها هنا.

وإن قيل الإيمان في اللغة التصديق: فالجوابُ أن التصديق يكْمُلُ بالطاعات كلها فما ازداد المؤمن من أعمال البرّ كان إيمانهُ أكمل... وبهذا يزيد الإيمان وينقص بزيادة البرّ ونقصانه.

وبه قال جماعة أهل السُنة منهم: سفيْان الثوري ومالك بن أنس وعبيد الله بن عمر والأوزاعي ومعمر بن راشد وابن جريج وسفيان بن عُيينة.

وعند عبدالرزاق قال: إنهم يقولون الإيمان قولٌ وعملٌ يزيدُ وينقص وهو قول ابن مسعود وحذيفة والنخعيّ والحسن البصري وعطاء وطاوس ومجاهد.

والمعنى أن العبد لا يستحق المدح والولاية من المؤمنين إلا إذا أتى بالأمور الثلاثة هذه: «التصديق بالقلب والإقرارُ باللسان والعمل بالجوارح».

وقد استدلوا على ذلك بالأحاديث ومنها:

عن أبي هريرة أنه قال إن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبةُ معروضةٌ بعد**» [أخرجه مسلم ج٢/ كتاب الإيمان، ومثله ص٤١ ـ ٤٥].

وعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكم أكثر أهل النار**». فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تُكثرن اللعن وتكْفُرن العشير وما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين أغلب لذي لُبٍ منكنَّ**». قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟

قال: «**أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقْصانُ العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين**» [أخرجه مسلم/ كتاب الإيمان ـ باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات ج٢/٦٦].

والخلاصة أن الإسلام والإيمان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان يصح به إسلامه ولا من إسلامٍ يتحقق به إيمانه».

والإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، «فالعقيدة تَنفُذُ إلى العقل فتقْنِعُه، وإذا اقتنعَ العقلُ وتحركَ القلب، واتجهت الإرادة استجابت الجوارح، واندفعت للعمل».

وبذلك يكون العقل مؤمناً بالله والقلب خاضعاً مخبتاً لله، والإرادة متجهة لتنفيذ ما قضاه الله، والجوارح مُندفعةٌ للعمل بأوامر الله.

وصدق الحق حيث قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية [ج١/٢٠٨].

قال الثوري: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾ الآية. قال هذه أنواع البر كلها، وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنهُ لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرةٌ بين الله ورسله، وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء حتى خُتمت بأشرفها وهو القرآن المهيمنُ على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خيرٍ واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ... إلخ.

وقال القرطبيُ في تفسيرها كلاماً طيباً طويلاً اخترت منه:

قال علماؤنا: «هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام؛ لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار، والملائكة والكتب المنزلة وأنها حقٌ من عند الله ـ كما تقدم ـ والنبيّين وإنفاق المال فيّما يَعِنّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم، وتفقّد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل قيل المنقطع به، وقيل الضيف، ويدخل فيه طالب العلم الغريب، والسّؤالُ وفكّ الرقاب، والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد..» [ج١ ح٢/٢٢٥]:

نعم فهذه آية جامعة لكل خير وفضل وبِرٌ، ولهذا كان جزاء من جمع

هذه الصفات أن يكون من الصادقين في إيمانهم وممن وصفهم الله بالصدق والتقوى. نسأل الله صدق الإيمان والتقوى.

قال الشيخ محمد الغزالي في كتابه خُلقُ المسلم/١٠:

والحقيقة أن الأمر بالنسبة لزيادة الإيمان ونقصانه في غاية البساطة، بل من السهل أن يلحظ ذلك كلُ حصيفٍ للعقل نقيَّ الطوية. فمثلاً: الأخلاق حُسنُها وقوتها دليلٌ على زيادة إيمان المؤمن وسلامة إسلامه، كما أن سوءها دليل على الضد.

إذن فإن ضعف الخُلق وسوءها دليل على ضعف الإيمان، ولما لا «والإيمان قوة عاصمةٌ عن الدنايا، دافعة إلى المكرومات، ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى الخير ويُنفرهم من الشر أيّاً كان، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم.

وما أكثرُ ما يقول في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ... ءَامَنُواْ﴾، ثم يذكر بَعْدُ ـ ما يكلفهم به: ﴿... ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات].

فالنتيجة الحتمية للإيمان القوي الخُلق القوي، كما أن انهيار الخُلق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه. بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.

فالرجل والمرأة إذا تحلى كلٌ منهما عن الحياء!! فكيف يطلق عليه مؤمناً! وكذا الرجل والمرأة التي لا يأمن جار كل منهما بوائقه!! كيف يكون مؤمناً!!!

قال ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن!!**» قيل من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه!!**» [بخ].

والذي يستطيل في عِرض المسلمين ويلتمس لهم العثرات... كيف يكون مؤمناً؟ ولقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه يوماً: «**أتدرون من المفلِسْ؟**» قالوا: المفلسُ فيّنا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «**المفلسُ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وزكاة وصيامٍ**...

ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا. . . إلخ» [رواه مسلم] انتهى كلامه رحمه الله.

❁ والآن مع هذه الكلمة الأخيرة عن الإسلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ . . .﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . .﴾.

❁ وعن عائذ بن عمرو المزني عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام يَعلُو ولا يُعلى. . .**» [أخرجه الدارقطني في سننه، فتح الباري ج٣/٢٢].

وهذا دليلٌ على علوه على سائر الأديان وعلو أهله على أهل الأديان الأُخرى، ولا يزال يعلو ولا تزال قوافل المهتدين الداخلين فيه في زيادة وذلك في كل عصرٍ ومصرٍ.

والفضلُ لله أولاً وآخراً ثم للدعاة المخلصين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدين وإظهار هويته بيضاء نقية.

لقد جاء الإسلام والعالم كله يمضي على شريعة الغاب فالقوي يقتلُ الضعيف والمسلحُ يستعبدُ الأعزل، والحرب مُعترفٌ بها بدون قيدٍ أو شرط ولا فرق بين حربٍ جائزةٍ وأخرى جائرة، فكل من يستطيع أن يغلب أمة على أرضها أو يكرهُها على معتقداتها أقدم على ذلك بلا تورع أو حرج.

وليت الأمرُ ينتهي إلى ذلك، بل إنه يسْتَرِقُ رجالها ونساءها، فأما الرجال فللعمل في الأحراش والغابات وقطع الصخور، وأما النساء فسبايا وخُدام في البيوت وخدائن للفراش، ولطالما عمت البشرية ظُلمةٌ شديدة كالحة حتى أشرقت شمسُ الإسلام فعز مقام الإنسانية وشرف قدر الإسلام، فلم يَعُد لتلك الشرعة الظالمة وجودٌ في الحياة.

وعم نور الإسلام فأعلن أن العلائق بين الأفراد والأمم والشعوب التعارف لا التناكر. . والتعاون لا التخاذل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات].

ومن ثمَّ تواصلت الإنسانية على دروب المرحمة والإنسانية وأصبح للإنسان كرامة هي له شعارٌ خالدٌ تسري في جنبات الحياة فتتأثر القلوب بمشاعر الحب والسلام والإيلاف.

وقد استمع الناس لهذا النور الجديد ينبعث صافياً ذكياً عذباً لتنعم به البشرية، شرعاً مُلتزماً ونهجاً مُطبقاً وسلوكاً للأفراد والجماعات.

وكان ذلك في ذاته كسباً للبشرية وأيُّ كسبٍ، وما ذلك إلا لأنه المنهج الذي ينسجم مع الحق والواجب.

فليس من الحق أن تُنتهك حرمة الإنسان وخصائصهُ، فعَلاَ وارتفع شأن الإنسان وعزَّ بالإسلام الذي ردَّ عليه كرامته الضائعة وأمنه المفقود وإنسانيته المهددة، فاللهم لك الحمد على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، وهكذا ربى الإسلامُ عقل الفرد بالعلم، وروحه بالعقيدة والعبادة وجسده بالنظافة والرياضة، وبالتداوي ليشفى ويقوى ويَسْلَم.

وكذلك ربى نفسه بالتحلي بمكارم الأخلاق، كاحترام النفس وتعميق عنصر العزة والشجاعة والسخاء وإنكار الذات، وعلى الحلم والصدق والأمانة والتواضع والصبرُ والإيثار، كما ربى الإسلام الأُسرة ـ التي هي الخلية الأولى في بناء المجتمع المسلم ـ فحافظ على كيانها ومنع اختلاط أنسابها وحث على الزواج، وأمر الأهل بالصلاة والزكاة وتعليمهم ورعايتهم والاهتمام بجميع شؤونهم ووقايتهم من النار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

ثم هو الإسلام الذي ارتقى بالإنسان أيّما رُقي، وفتح أحضانهُ للعبيد والفقراء والمستضعفين، فأصبحوا به كواكب هداية وأبطال فداء باعوا أنفسهم لخالقهم فسكنوا أعلى درجات الجنان، وعَزّ بهم الإسلام وعزُّوا به، وامتدتْ دولة الإسلام من أطراف الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً. فسبحان الله كيف كان ذلك في أقل من قرنٍ من الزمان، ولكنه نَصرُ الله

وتأيده لأهل الحق ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وهو الإسلام الذي لاذ إلى حماه الغُرباء ونعم بالعيش تحت ظله الضُعفاء من أمثال بلال وصهيب وعمار وسلمان.

لقد عَزَّ بالإسلام كثير وذل بالبعد عنه كثير، فهذا سلمانُ الفارسي يفتخر بالإسلام فيقول:

أبـى الإسـلامُ لا أبـالـي سـواه إذا افـتـخـرُوا بـعـبـسٍ أو تـمـيـم

فما كان من الحبيب ﷺ إلا أن قلده وسام الشهرة والشرف.

فقال أمام الصحابة أجمعين: «**سلمانُ مِنا آل البيت**» وعلى النقيض نجد أن أشراف مكة وأصحاب الكلمة المسموعة، أصحاب النوادي الليلية لم ينفعهم شرفهم ونسبُهم، بل ماتوا على الضلال ميتة الخزي والذل أمثال أبو جهل والوليد بن المغيرة وأبو لهب وغيرهم.

وصدق الحق تبارك وتعالى: ﴿... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وصدق القائل: وكم من بعيد الدار نال مُراده... وكم من قريب الدار مات كئيباً.

إنه الإسلام الذي يجمع للمسلم الفضائل الإيمانية فإذا هو في النعْمة شاكرٌ وفي البلاء صابر وفي المعصية نادم تائب، وإذا هو في الأموال أمين وفي الأعراض شريف عفيف، وفي القول صادق والظاهر نظيف عفٌ كريم وفي الباطن مراقب لله رب العالمين.

يصف عليّ رضي الله عنه عباد الرحمٰن فيقول: «هُم أهل الفضائل منطقُهم الصواب، وملْبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضو أبصارهم عمّا حرم الله عليهم، ووَقْفُوا أسماعهم على العلم النافع لهم لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.

قال الله تعالى فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وهم المؤمنون حقاً بالله وبرسوله الذين نالوا المغفرة والرحمة لما سمعوا قوله تعالى مخاطباً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨].

فاللهم إنا نسألك الهُدى والتُقى والعفاف والغنى.

ألا وإن مِنْ خَصائص الإسلام أنه رسالة عالمية:

نعم لم يكن هذا التغيير الشامل ليحدث، إلا لأن الإسلام رسالة عالمية شاملة تخاطب جميع البشر وتلامس أحاسيسهم وتحترم مشاعرهم وتلبي فطرتهم، ولم تختص بجنسٍ دون جنس، أو قومٍ دون قوم أو أمة دون أخرى.

وهذه آيات تدل على عموم الرسالة وعالمية الدين الإسلامي:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

ولقد أكمل الله الدين وأتم النعمة وبلغ رسوله ﷺ فلا حجة بعد ذلك

لأحد، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، اللهم إني أسألك الهداية والتوفيق والثبات وحسن الخاتمة.

وتمت مهمة النبيّ ﷺ فبلغ وبشر وأنذر وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وكان ﷺ ولم يزل سراجاً مُنيراً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب ٤٥، ٤٦].

ولقد ربط الحق سبحانه طاعته بطاعة نبيّه، وأمر باتباع النبيّ ﷺ. فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أَبى**». قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» [رواه البخاري في كتاب الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله].

وعن العِرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله، كأنها موعظة مُودِع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً** ـ يعني تأمَّر عليكم ـ، **فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً... فعليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة**» [أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي وقال حسن صحيح، والبيهقي والحاكم، وابن ماجه].

قيل للإمام أحمد بن حنبل: من مات على الإسلام والسُنة، مات على خير، فقال الإمام أحمد: أُسكت بل مات على الخير كله.

وكان رحمه الله يقول: مَنْ ردَّ حديث رسول الله فهو على شفى هلكة.

وجاء في شرح العقيدة الطحاوية قول الشارح رحمه الله:

طريق أهل السُنة: أن لا يعدلوا عن النص الصحيح، ولا يعارضوه بمعقول، ولا قول فلان، كما أشار إليه الشيخ رحمه الله.

وكما قال البخاري رحمه الله: سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي رحمهُ الله فأتاه رجلٌ فسأله عن مسألةٍ، فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا كذا.

فقال رجلٌ للشافعي: ما تقول أنت؟؟

فقال: سُبحان الله؟ تراني في كنيسة؟ تراني في بيعة؟ تراني على وسطي زنار؟

أقول لك قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول، ما تقول أنت!!

فلنتق الله تعالى ونتقبل سُنة نبيّنا بالقبول والحب والطاعة والامتثال، لأنها المصدر الثاني للتشريع بعد المصدر الأول وهو القرآن، فالله الله في أهل القرآن والسُنة فهم أهل الفوز والنجاة، وأهل الاحترام والتقدير.

قال قتيبة رحمه الله: «مات سفيان الثوري ومات الورع، ومات الشافعي وماتت السُنن، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع، ثم قال: إن أحمد بن حنبل قام في الأمة مقام النبوة» [البداية والنهاية ج١٠/٣٣٥].

هذا ويحسن بنا أن نلمح لأهمية السُنة في توضيح ما أُجمل في القرآن حتى يتبين الأمر للجميع، ويذهب اللبسُ ويحصُلُ العلم والمعرفة لمن يغفل عن أهمية السُنة في دين الإسلام والسُنة من خصوصيات هذه الأُمة، وقد حفظها جيلٌ عن جيل.



إن السنة النبوية الشريفة تتولى بيان ما جاء في القرآن الكريم.

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وقد أخذ بيان السنة للقرآن الكريم أنواعاً متعددة، فهي تفصل مجملة وتقيد مطلقه، وتخصص عامه، وتوضح مشكله، وهي فوق ذلك تقدم للناس أحكاماً من قبل أن يسبق لها ذكر في القرآن الكريم.

والسنة واجبة الاتباع مثل القرآن الكريم، حيث إن القرآن والسنة مصدران تشريعان لا ينفصلان وهما متكاملان وبهما يتم شرع الله الحنيف.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾.

ومعلومٌ أن السنة بيانٌ للقرآن الكريم، وهاك أمثلة لذلك، كما أن الرسول ﷺ في ذلك يوحى إليه من ربه وصدق ربنا حيث قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

فمثلاً في تفصيل المجمل:

إن تفصيل السنة لما أجمل في القرآن الكريم يتمثل في الأحاديث النبوية الشريفة المروية الكثيرة التي فصلت أحكام الصلاة والزكاة والصوم، والحج والبيوع والمعاملات وغيرها مما جاء مجملاً في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

١ ـ لقد فرض الله الصلاة على المؤمنين وأمرهم بها في آيات منها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، وآيات كثيرة عن الصلاة، لكنها لا توضح أنها خمسة في اليوم والليلة، ولا أن كل صلاة عدد ركعاتها كذا. وكذا ليس في القرآن توضيح كيفية الصلاة (أي الركوع بصفة كذا والسجود كهيئة كذا).

بينما تكفَلَتْ السنة بتوضيح ذلك وبيانه عملياً فقال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» [رواه الشيخان].

وكذا الزكاة قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مع عدم تفصيل ذلك، ولا سيّما زكاة الذهب والفضة وزكاة الإبل والغنم والبقر، ومقدار العدد المأخوذ من كلٍ منها، بينما نجد توضيح ذلك في السنة.

وفي الحج نجد الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

لكن ليس في القرآن ما يوضح وقت الوقوف عرفة مثلاً والصلاة بها وبالمزدلفة ورمي الجمار وغير ذلك.

بينما نجد توضيح ذلك في السنة المطهرة، ولقد كان الحجُ درساً عملياً.

أيضاً قال ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**» فلقد بيّنتْ السُنة تفاصيل وفرعيات الأحكام المجملة في القرآن الكريم وهي كثيرة.

في العبادات ـ والأقضية والمعاملات وغيرها.

ولولا السنة لما عرفنا كيف نصلي ولا نزكي ولا نحج ولا كيف نتعامل فيّما بيننا.

توضيح السنة لتقييد المطلق: ومن أمثلة ذلك:

نجدُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾.

فهنا لم يخصص قطع اليد من موضع معينٍ، حيث كلمة اليد تطلق على الكف والساعد والمرفق والأصابع، كما أنها لم تحدد أن القطع ليد واحدة أو لليدين معاً.

فجاءت السنة المطهرة فقيدت ووضحت هذه الآية، وأن الذي يقطع هو الكف ويكون من الرسغ، وأن الذي يقطع يد واحدة.

وأما توضيح السنة لتخصيص العام:

فكلمة العام: هو ذلك اللفظُ الذي ينطبق على كثيرين، فتأتي السنة فتوضح أن المقصود هو بعض الأفراد وليس الكل.

ومثال ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾.

والآية عامة على جميع الآباء والأمهات الذين لهم أولاد يرثونهم، فجاءت السنة فخصصت الآباء والأمهات الذين يورثون بغير الأنبياء مصداقاً لقول الحبيب: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» [رواه أحمد وغيره].

ومن الأمثلة أيضاً ما رواه البخاري بسنده لعبدالله بن مسعود أنه قال لما نزلت: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» قلنا يا رسول الله: أيُّنا لا يظلم نفسه؟

قال ﷺ: **«ليس كما تقولون: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم: أي بشرك ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»**.

ومن هنا نجدُ أن السنة قد خصصت الظلم المذكور بالشرك، ولا يشمل كل أنواع الظلم.

والسنة توضح مُشكِلَ القرآن الكريم:

وذلك ببيان بعض معاني الكلمات التي تحتاج إلى توضيح، مثل بيان الخيط الأبيض والخيط الأسود الواردين في قول الحق: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾.

فبيّنت أنه بياض الصبح وسواد الليل وغير ذلك.

كثير مما يدلل بجلاء على منزلتها، كما أن من مهام السنة النبوية أيضاً تكملة الأحكام الشرعية.

فهناك أحاديث كثيرة اشتملت على أحكام شرعية سكت عنها القرآن، ولا سيما في مجال الآداب العامة وأبواب الحلال والحرام، وهذا النوع المسكوت عنه في القرآن واجب الاتباع من السنة.

فقد روى أبو داود عن معد بن يكرب أن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ألا إني قد أوتيت الكتاب ومثله معه**» وهذا دليل على أن السنة وحيٌ من عند الله عزَّ وجلَّ، إذن يجب العمل بها كما يجب العمل بالقرآن.

ويقول رسول الله ﷺ في نفس الحديث: «**إنما حرم رسول الله كما حرم الله**» مما يوجب الإذعان له والعمل به، وهكذا باقي الأحكام مثل تحريم لحوم الحمر الأهلية وكل ذي ناب.

فلقد بينت السنة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو بينها وبين خالتها حتى لو كانتا من الرضاعة لقوله: «**يحرم من الرضاعِ ما يحرمُ من النسب**».

هذا وقد وضحت السنة كيفية اللباس للرجل وللمرأة، وما يحل وما يحرم من ذلك كما علمنا ﷺ كل شيء.

والسنة بهذا كله بالغة الأهمية في حياة المسلمين عظيمة المنزلة. فقد بيَّن رسول الله لنا كل شيء وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد أمرنا عزَّ وجلَّ بالرجوع إلى رسول الله في كل شيء من أمور حياتنا: فقال عزَّ من قائل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

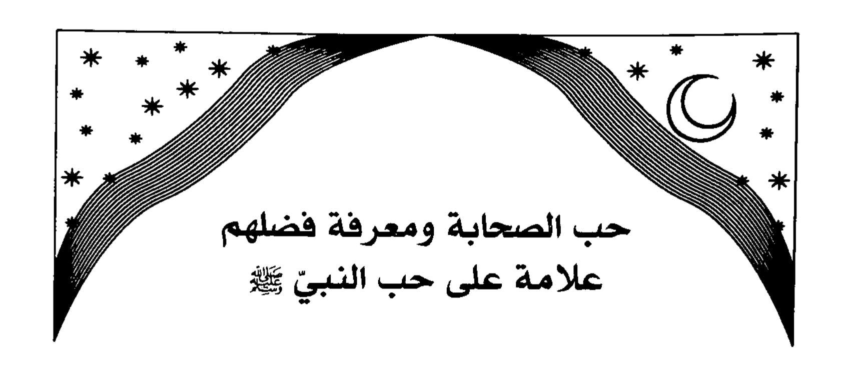
كما أمرنا رسول الله ﷺ بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء المهديين من بعده فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**».

أبعد ذلك كله نجد من يقول أو تقول ليس في كتاب الله كذا ولا كذا؟

أيها المسلمون والمسلمات أوصيكم ونفسي باتباع سنة رسول الله ففيها النجاة، ولا يُجيبُ رسول الله إلا مؤمن، ولا يتبعُه إلا كل مؤمنٍ تقيٌ، ولا يرغب عنه إلا هالك شقي. نسأل الله أن يجعلنا من اتباع رسول الله ومن أحبائه حيث ـ إنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥].

اللهم إني أُشهدك أني أحب نبيّك ﷺ حُباً عظيماً فلا تحرمني شفاعته.





حب الصحابة ومعرفة فضلهم علامة على حب النبيّ ﷺ

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد بيّن ﷺ فضل الصحابة وشهد بسبقهم وحذر من النيل منهم فقال: **«لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفهُ»** [رواه البخاري ج٢٥/٧ في فضائل الصحابة، مسلم ١٩٦٧/٤، حم١١/٣].

وفضل الصحابة لا يخفى على أحدٍ من المسلمين صغيراً كان أو كبيراً رجلاًكان أو امرأة، وحُبهم مستقر في قلوب المؤمنين ولا يبغضهم إلا منافق معلوم النفاق.

أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة [فتح الباري ح٢١/٧، رقم الحديث ٣٦٥٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: **«لو كُنتُ مُتخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **من أنفَق زوجين من شيءٍ مِنَ الأشياء في سبيل الله دُعي من أبواب ـ يعني الجنة ـ يا عبدالله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصَدَقة دُعي سن باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريان**».

فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدْعى من تلك الأبواب من ضرورة. وقال: هل يُدعى منها كُلها أحدٌ يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر» [فتح الباري ج٧/٢٣ رقم ٣٦٦٦].

وكلنا يعلم سبقه رضي الله عنه في الإسلام ومؤازرته للرسول بمالِهِ ونفسه، وقد صحبه في الهجرة إلى المدينة وجنّد نفسه وأهل بيته لخدمة الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد، وكيف لا وهو الصّديق أبو الصديقة.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: «صعد النبيُّ ﷺ أُحُداً ومعه أبو بكرٍ وعمر وعُثمانُ، فرجف بهم، فضربهُ برجله، وقال: أُثبت أُحدُ، فما عليك إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدان» [بخ ٧/٥١ رقم ٣٦٨٦].

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزةً مُنذُ أسلم عمر» [فتح الباري ج٧/٢١٥ رقم ٣٨٦٣].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنه لم يكن قبلي نبيٌ إلا قد أُعطي رفقاءَ نُجباء وزراء، وإني أُعطيتُ أربعة عشر: حمزة وجعفر وعليٌ وحسن وحُسين وأبو بكر وعمر والمقداد وعبدالله بن مسعود وأبو ذر وحُذيفة وسلمان وعمار وبلال**» [حم١/١٤٨].

وهذا الحديث لا يعني حصر الصحابة بتخصيص هؤلاء، ولكن كل الصحابة عُدول كرامٌ لهم فضل السبق والصُحبة والجهاد والهجرة والبيعة وما إلى ذلك، ولقد خصصت كتب السُنة في فضلهم ومناقبهم كُتُباً وأبواباً، فجزى الله علماء الحديث عنا خير الجزاء، وما ذكرته هو من باب التذكرة فحسب.

وأما عن فضل عُثمان رضي الله عنه فجميع أهل السُنة يحبونهُ ويجلونه ويعرفون له فضله، أما أهل الزيغ والضلال فلهم من الله ما يستحقون.

أخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة ـ باب مناقب عثمان بن عفان أبي عَمْرو القُرشي رضي الله عنه ـ وقال النبيُّ ﷺ: «**من يَحْفِرُ بئر رومة فله الجنة، فحفرها عُثمانُ**»، وقال: «**من جهز جيش العُسْرةِ فله الجنة، فجهزهُ عُثمان**» [فتح الباري ح٧/٦٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه: «أن النبيّ ﷺ دَخَل حائطاً وأمرني بحفظِ باب الحائطِ، فجاء رجلٌ يستأذنُ فقال: **ائذن له وبشرهُ بالجنة فإذا أبو بكر**، ثم جاء آخر يستأذنُ فقال: **ائذن له وبشرهُ بالجنةِ**، فإذا هو عُمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هُنيْهة ثم قال: **ائذن له وبشرهُ بالجنةِ على بلوى تُصيبهُ**، فإذا هو عثمان بن عفان» [فتح الباري ح٧/٦٥ رقم **٣٦٩٥**].

ولقد كان عُثمان رضي الله عنه معروفاً بالستر والحياء ومن مناقبه وفضائله جمع القرآن في مُصحف واحدٍ، ويكفيه الفخرُ أنه تزوج بابنتين لرسول الله ﷺ، ولذا كان يُلقب بذي النورين، حيث تزوج بالسيدة رُقية وبَعد موتها بأم كلثوم رضي الله عن الجميع، كما أنه كان من أوائل المهاجرين مع زوجته فاراً بدينه ـ مع أول قافلة للمهاجرين إلى الحبشة، وكانت معهم أم سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمة وآخرون، ومن أعماله في خلافته أيضاً أنه نظم أمور الدولة الإسلامية ومرافقها، واستمر الفتح الإسلامي في عهده على أحسن وجه، كما أنه أنشأ أول أسطول بحري للمسلمين حين غزوا قُبرص، وهو أول من شكل جهاز أمن «شُرط» وأمَّر عليهم أحد الصحابة، وأول من خصص مرتباً للمؤذنين بالمساجد. . . إلخ، فرضي الله عنه وأرضاه.

ألا وإن مناقب الأنصار وفضلهم لا يخفى على المسلم الواعي الفطن، حيث أهل المنعة والقوة والنصرة للرسول ﷺ وأصحابه، وأهل الإيثار والكرم، لما لا وقد فتحوا قلوبهم وديارهم ووطنهم للكلمة الطيبة ولمنْ جاء بها ليضعَ بالمدينة المنورة قواعد دولة الإسلام الأولى.

أخرجَ الترمذيُّ في كتابه الشمائل: «لما دخل رسول الله ﷺ المدينة أنارَ فيها كلُّ شيءٍ، ولما مات ﷺ أظلم فيها كل شيء».

ولقد امتدح رسول الله ﷺ الأنصار وأوجب حبهم فقال: «**لولا الهجرة لكُنتُ امرأً من الأنصار**» [أخرجه البخاري ج٧/ ٢٦٦ والترمذي ج١٠/ ٣٩٩].

وقال النبيُّ ﷺ في الأنصار: «**لا يحبُهم إلا مؤمنٌ ولا يُبْغضُهم إلا منافق، من أحبهم فأحبهُ الله، ومن أبغضُهم فأبغضهُ الله**» [ت١٠/ ٤٠١ رقم ٣٩٩١].

❁ ولقد مدحهم الله بإيثارهم إخوانهم المهاجرين:

فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «قَدم عبدُالرحمٰن بن عوف فآخى النبيُّ ﷺ بينهُ وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفهُ أهَلهُ وماله، فقال عبدالرحمٰن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلني على السوق، فربح شيئاً من أقطٍ وسمن، فرآهُ النبيُّ ﷺ بعد أيام وعليه وَضَرَ من صُفرةٍ فقال النبيُّ ﷺ: «**مهيَمْ يا عبدالرحمٰن؟**» قال: يا رسول الله، تزوجت امرأةً من الأنصار. قال: «**فما سُقتَ فيها؟**» فقال: وزن نواةٍ من ذهب، فقال النبي ﷺ: «**أَوْلِم ولو بشاة**» [رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ج٧/ ٣١٧ رقم ٣٩٣٧].

وقال الحق تبارك فيهم: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨، ٨٩].

وقال عزَّ شأنه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وهكذا نرى أن الله شهد للمهاجرين والأنصار مع النبيّ ﷺ، وكذا شهد لهم النبيّ ﷺ بالإيمان والفوز بالجنان والرضوان، ونحن نشهد بذلك ونسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرتهم مع النبيين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً...





حُب آل الحبيب ﷺ علامة على صدق الإيمان:

۞ قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

۞ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ذكر القُرطُبيُّ في تفسيره ما نصهُ: «شرف الله تعالى أزواج نبيّه ﷺ بأن جعلهن أمهات للمؤمنين، أي في وجوب التعظيم، والمبَّرة، والإجلال، وحُرمة النكاح على الرجال، فكان ذلك تكريماً لرسوله، وتشريفاً لهن».

والحكمة من حُرمة الزواج من نساء النبي ﷺ استدل العُلماء عليها من الآيات السابقة واستنبطوا الآتي:

١ ـ أن من فضل الله عليهن رضي الله عنهن أن وصلن إلى مرتبة عظيمة يصعبُ على أي منهن قبول النزول إلى مرتبة أقل فكان في تحريم الزواج بهن بعد رسول الله ﷺ تكريماً لهن وحفظاً لمكانتهن.

٢ ـ حرمة الزواج بهن لشرف منزلتهن بانتسابهن للرسول ﷺ، وأن ذلك من خصوصيات الحبيب ﷺ.

٣ ـ الآية الأولى تفيد بوضوح أن جميع نساء الرسول الكريم بمثابة

أمهات المؤمنين أجمعين، والمعروف أن الزواج بالأم حرام.

❁ شهادةُ الله لهن وشهادة رسوله الكريم بالفضل والأجر العظيم يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣].

فهذه شهادة الله لهن بالبراءة مما يُرْمون به من قِبل أعداء الله في كل زمان ومكان، ثم شهادة لهن بالإحصان والإيمان والغفلة عن كل قبيح وسوء.

❁ قال ابن جرير الطبري في تفسيره للآية: «إن الذين يرمون بالفاحشة المحصنات، يعني: العفيفات الغافلات عن الفواحش، المؤمنات بالله ورسوله، وما جاء به من عند الله. لُعنوا في الدُنيا والآخرة، وأُبعدوا عن رحمة الله في الدنيا والآخرة، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم وذلك عذاب جهنم» [ح٨/٨٢].

ثم يزكيهم الله ويبرأهم في شخص أم المؤمنين الصديقة بنت الصّديق فيقول: ﴿... وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

❁ قال الفخر الرازي في تفسيره للآية هذه: «لا أحد أطهر ولا أطيب من رسول الله ﷺ» وبه نقول جميعاً معشر الموحدين.

❁ وفي سورة الأحزاب يقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [٢٨ ـ ٢٩].

وهاتان الآيتان هما آيتا التخيير.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يُخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: **«إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى**

تستأمري أبويك» ـ وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقهِ ـ قالت: ثم قال: «**إن الله تعالى قال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ إلى تمام الآية»، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريدُ الله ورسوله والدار الآخرة».

وفي بعض الروايات عنها رضي الله عنها قالت: ثم فعل أزواجَ النبيّ ﷺ مثل ما فعلت.

وهكذا جمع الله لهن بذلك خير الدنيا وسعادة الآخرة.

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

كما جمع الله لهن وللمؤمنات كافة الخير والمغفرة في هذه الآية من نفس السورة فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره للآية: «إن المتذللين لله بالطاعة والمتذللات والمُصدِّقين والمصدِّقات رسول الله ﷺ، فيما آتاهم به من عند الله والقانتين والقانتات المطيعين لله والمطيعات له، فيّما أمرهم ونهاهم والصادقين الله فيّما عاهدوه عليه والصادقات فيه، والصابرين في البأساء والضراء على الثبات على دينه وحين البأس والصابرات، والخاشعةِ قلوبهم لله وَجَلاً منه ومن عقابه والخاشعات، والمؤدين حقوق الله من أموالهم والمؤديات، والصائمين شهر رمضان الذي فرض الله صومهُ والصائمات ذلك، والحافظين فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، والحافظات ذلك إلا على أزواجهن إن كن حرائر، أو من ملكهن إن كُنَّ إماء والذاكرات الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات كذلك، أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم وأجراً عظيماً، يعني ثواباً في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيماً وذلك الجنة» [ج٨/٨].

ومما جاء في سبب نزول الآية السالفة الذكر ما أخرجهُ النسائي في سُننه:

عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت للنبيّ ﷺ: يا نبيّ الله: ما لي أسمعُ الرجال يذكرون في القرآن والنساءُ لا يُذْكرن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ الآية.

ورواه ابن جرير عن مجاهد، وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «قال: قالت النساء للنبيّ ﷺ ما له ذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ الآية» [أخرجه ابن جرير].

وفي رواية أخرى: قال دخل نساء على نساء النبيّ ﷺ فقلن: قد ذكركن الله في القرآن ولم نذكر بشيء! أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ الآية.

ولقد حث رسول الله ﷺ وأوصى أُمته بأهله خيراً فقال: «**إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي**» [أخرجه مسلم وأحمد والنسائي والترمذي].

وفي رواية أخرى: «**كتاب الله وعِترتي وإنهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**».

۞ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى الكُبرى ج٣/١٥٤: «ومن أصول أهل السُنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «**أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهلي بيتي**»».

وقال للعباس عَمّهِ ـ وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم ـ فقال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**».

ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الدُنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة: أن هذه الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

لما نزلت أدار النبيُّ ﷺ كساءه على عليٍّ وفاطمةَ والحسن والحُسين رضي الله عنهم فقال: «**اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**».

وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي**» [رواه مسلم].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**» [رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة/ مناقب فاطمة].

وقوله ﷺ: «**فاطمةُ بضعةُ مني، فمن أغضبها أغضبني**» [أخرجه البخاري ج٧/١٣١ رقم ٣٧٦٧، فتح الباري].

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، إلا ابنيَ الخالة، عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا**» [أخرجه الإمام أحمد في مسنده].

وهكذا يتبيّن لنا فضل هذه الأُسرة الشريفة ومالها من المنزلة والمكانة وهم أهل بيت النبيّ ﷺ، كما أن أزواجه أهل بيته مما لا شك فيه لأن وشيجة المصاهرة تأتي بعد وشيجة النسب، فرضي الله عن الجميع.

وأما عن فضل زوجات النبيّ ﷺ وأمهات المؤمنين فإنه لا يخفى على كل مسلم مُنصِفٍ مخلصٍ في إيمانه مُخْلصٍ في اتباعه للنبي ﷺ.

١ ـ فضلُ السيدة خديجة:

أولى زوجات النبيّ وأم أولاده وأول من آمن به من النساء ـ صاحبة

العقل الثاقب - والفهم السليم، والخُلق الحسن والبلاغة العجيبة وصاحبة القلب الكبير.

أختي المسلمة:

استمعي لكلماتها الحانية الرقيقة العذبة التي واست بها زوجَها محمداً ﷺ عند بدء الوحي.

كما جاء في حديث البخاري الذي يرويه عن أم المؤمنين عائشة في قصة بدء الوحي: «... أن النبي ﷺ حينما رأى الملك رجع إلى أهله يرجُفُ فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروعُ فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحم وتحملُ الكَلَّ وتُكسبُ المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق...» [بخ في كتاب بدء الوحي حديث رقم ٣، مسلم في الإيمان ٢٣١].

ولهذا أرسل لها ربُ العزة السلام مع جبريل وبشرها ببيت في الجنة.

«أتى جبريل النبي ﷺ فقال: أقرىء خديجة مني السلام وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» [متفق عليه].

٢ - فضل عائشة رضي الله عنها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن جبريل يقرأ عليك السلام، فقلتُ: وعليه السلام ورحمة الله**» [أخرجه الترمذي (التحفة) ح١٠/٣٨٠ رقم ٣٩٦٩، فتح الباري ج٧/١٣٣].

وخطب عمار بن ياسر يوم الكوفة فقال: إني لأعلمُ أنها زوجتُه(١) في الدُنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوهُ أو أيّاها» [فتح الباري ج٧/١٣٣ رقم ٣٧٧٢].

---

(١) زوجته: أي زوجة النبي ﷺ.

وقد بلغت أم المؤمنين مبلغاً من العلم والفهم وحفظت عن رسول الله ﷺ، وروت عنه نحو ما يقارب ألفي حديث.

عن أبي موسى قال: «ما أشْكَلَ علينا أصحاب رسول الله ﷺ حَدِيثٌ قطُّ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عِندها منه عِلْماً» [الترمذي (التحفة) ح١٠/٣٨٠ رقم ٣٩٧٠].

والسيدة عائشة أم المؤمنين كان لها مكانة عند رسول الله ﷺ، وكذلك أبوها الصديق، وقد اختبرها الله وابتلاها عدة ابتلاءات ليرفع درجاتها، ويحصل لنا خيرٌ عقب هذه الابتلاءات مثل حادثة الإفك، وكيف برأها الله تعالى وجاءت الأحكام التي تنظم حياة المجتمع المسلم، وتحترم مشاعر الناس ويُصان عرضهم، وكذلك آية التيمم وخروجها في موقعة الجمل وغير ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها أنها استعارت قلادة من أسماء فهلكت، فأرسل رسولُ الله ﷺ ناساً من أصحابه في طلبها، فأدركتهم الصلاة، فصلوا بغير وضوءٍ، فلما أَتَوا النبيَّ ﷺ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمُّم، فقال أُسيدُ بن حُضير: جزاكِ اللَّهُ خيراً، فوالله ما نزل بك أمرٌ قطُّ إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل فيه للمسلمين بركة» [فتح الباري ح٧/١٣٣ ـ ١٣٤ رقم ٣٧٧٣].

ويُخطىء كثيرٌ من المسلمين والمسلمات في قصة خروج السيدة عائشة يوم الجمل، بل وقد تطلق بعض الأخوات ألفاظاً لا تليق إذا تكلمت عن هذا الموضوع، وإني لأخشى عليهن من الزلل والشطط وعليهن أن يتعلمن ويتأدبْن.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي رافع، أن رسول الله ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالبٍ: «**أنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ**... قال: أنا يا رسول الله؟ قال: **نعم**» قال: أنا؟ قال: «**نعم**»، قال: أنا أشقاهم يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكن إذا كان ذلك فأردُدْها إلى مأواها**» [ج١٠/ حديث رقم ٢٧٢٦٨ بترتيب عبدالله محمد الدويش].

ومن الحديث يتبين الآتي:

١ ـ أن الرسول ﷺ المؤيد بالوحي قد أعلمهُ الله بخروجها ولم يمنعها

من ذلك، لأنه لم يؤمر بذلك، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

٢ ـ أن خروجها لا بد حاصل، ولذلك أوصى علياً بأن يردُدها إلى بيّتها.

٣ ـ أن في خروجها وحصول هذا الابتلاء حكمة ودرساً، وهو كما قال عمّار بن ياسر في الحديث السابق: «ولكن الله ابتلاكم لتتبعوهُ أو إياها» [فتح الباري ح١٣٣/٧].

أي: تعلمون أنها زوجة النبيّ ﷺ وأنها بشر يُخطىء ويصيب، فلا تُفْتَنُوا بها حيث كانت بمثابة المرجع لكثير من الصحابة، وكثر من الناس يأتون إليها من كل حدبٍ وصوبٍ يسألونها، ويُفضلونها في الفُتيا على كثير من الصحابة فمتى لا يدخل الشيطان ويوسوس لهم بسوء كان ما حدث والكمال لله وحده والعصمة لرسوله ﷺ، اللّهم إن أحسنتُ فمنك وحدك، وإن قصرتُ أو أسأت فمن نفسي والشيطان.

أخرج الترمذي في سننه: عن عَمْرِو بن غالبٍ «أن رَجُلاً نال من عائشة رضي الله عنها عِندَ عَمَارِ بن ياسرٍ. قال: أُغْرِبْ مقبُوحاً، أتؤذي حَبيبةَ رسول الله ﷺ» [حديث حسن صحيح ح٣٨٤/١٠ رقم ٣٩٧٥].

اللهم إنا نبرءُ من قول الرافضة واعتقادهم الفاسد، وممن ينال من السيدة العفيفة الطاهرة الصابرة أم المؤمنين عائشة، ونشهد أنها الطيبة زوجة النبيِّ الطيب في الدُنيا والآخرة، ونسألك اللهم أن تجزيها وجميع أمهات المؤمنين عنا خير الجزاء.

٣ ـ فضل السيدة زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها وأرضاها:

ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين زوج النبيِّ ﷺ أنها قالت: قال رسول الله: **«أسرعُكن لحاقاً بي أطولكن يداً»** قالت: فكُن يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعملُ بيدها وتَصَدَّق» [م٨/١٦ ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضل أم المؤمنين زينب رضي الله عنها].

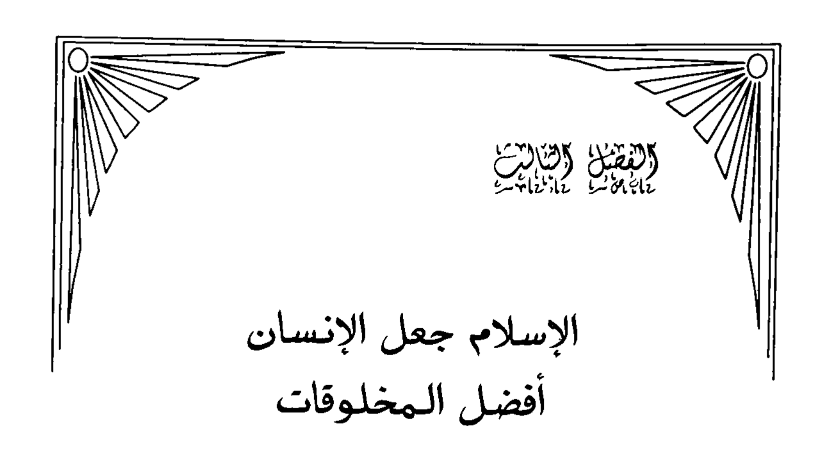
والحديث من معجزاته ﷺ حيث كانت رضي الله عنها أول من لحق به فماتت بعده وتلك منقبة لها.

ومن فضائلها رضي الله عنها: نزول آيات الحجاب صبيحة عُرسها بالنبي ﷺ وفي بيتها، وكان ذلك سنة خمسٍ للهجرة.

هذا وجميع أمهات المؤمنين وزوجات النبي أهل للفضل والبِّر والجنة، وهُن سيدات نساء الدُنيا وسيدات نساء الجنة فرضي الله عنهن أجمعين، وأسأل الله أن يجمعنا بهن غير خَزَايا ولا مفتونين.

ملحوظة: لقد تجرأ اليهود القردة والخنازير فأطلقوا على بعض الأحذية والنعول أسماء خدوجة، عيوشه، زنوبة: يريدون التنقص من أمهات المؤمنين، وجرى كثير من العوام خلفهم فلا يزالون يسمون النعول بهذه الأسماء، فالحذر الحذر بل بلغت بهم الوقاحة أن كتبوا لفظ الجلالة على مثل ذلك، أسأل الله أن يزيدهم قُبْحاً ومهانةً وذلة، ويهلكهم مثل عادٍ وثمود.





الفصل الثالث

الإسلام جعل الإنسان أفضل المخلوقات

إن الإنسان المسلم الذي ترعرعت فيه بذور العقيدة السليمة، وأتت ثمارها هو ذلك الإنسان الذي حمل الأمانة وكان خليفة الله في أرضه ليغمرها لا ليُفسِدَ فيها.. ولينشر الهدى لا ليتبع الشيطان والهوى.. ليقيم شرع الله ويرفض حُكم الجاهلية، ليكون وفيّ العهد مع الله ومع الناس.. وليكون ممن يصلون ما أمر الله به أن يوصل ولا يكون ممن يفسد في الأرض، فيُحسن إلى الناس ويبذل المعروف وينهى عن المنكر، فيحيا في خشية الله دائماً فيما يأتي ويذر - فهو مراقبٌ لله خائفٌ وجِلٌ من الله وحده، ثم هو في الطاعة صابرٌ على أمر الله وفي المصيبة صابرٌ على أقدار الله وعن المعصية صابرٌ يبتغي ما عند الله، وبالجملة فهو مع الله ولله محياه ومماته، ومن كانت هذه حالهُ عاش حميداً ومات سعيداً.

ومثل هذا قد عرف فضل الله عليه وتكريمه له بأن فَضَّلَهُ على سائر المخلوقات من حوله، بل إن الله سخرها جميعاً له وجعلها تحت تصرفه وإرادته، حسب منهج الله في ذلك حيث لا عُدوان ولا اعتداء.

لقد جعل الله تكريم الإنسان في شكله واعتداله وقوامه ونطقه ولباسه وفي مشيته ومطعمه وشرابه، بل في تعامله مع سائر أحواله، وميَّزهُ بالعقل

والفهم ليصون كرامته وإنسانيته فلا يحاكي الحيوانات والأنعام، ولا يكون إمعة يقلد أهل الزيغ والضلال في لباسهم أو كلامهم أو أكلهم وشُربهم، أو في شيء من سلوكهم وتصرفاتهم.

من مظاهر تكريم الله للإنسان أن شرع له اللباس والزينة، وقد جاءت النصوص بمشروعية اللباس بالكتاب والسُنة، وكذلك الإجماع وهاك أدلة كلٍ منها:

١ ـ الأدلة بالكتاب «من القرآن»:

لقد شرع الله اللباس للجنس الإنساني رجالاً ونساءاً فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٦ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

إن الإنسان الذي كرّمهُ الله تكريماً لا مثيل له في شخص أبيه آدم، فأسجد له الملائكة سجدة تكريمٍ وتحية هو الذي كُرِّم باللباس، وأمر به ليكون جمالاً وزينةً لظاهرة.

وأما عن الأدلة من السُنة:

قوله ﷺ: **«إياكم والتعري، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يُفضي الرجل إلى أهله»** [رواه الترمذي].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نُهيتُ أن أمشي عُرياناً»[١].

---

(١) الزواجر في اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيثمي، ج٢ الكبيرة/٧٤.

قوله ﷺ: «**لا ينظرُ الله إلى من جَرَّ ثوبهُ خُيلاء**» [أخرجهُ البخاري في فتح الباري ح١٠/٢٦٤ رقم ٥٧٨٣ ـ كتاب اللباس].

وأخرج مسلم وأبو داود من حديث المِسْور بن مخرمة قال «سقط ثوبي، فقال النبيُّ ﷺ: «**خُذ عليك ثوبك ولا تمشوا عُراةً**»».

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان أحب الثياب إلى النبيّ ﷺ: «**أن يلبَسَها الحبرة**» [فتح الباري بخ١٠/٢٨٧/٥٨١٣].

قال ابن بطّال: الحَبْرةُ: هي من برود اليمن تصنعُ من القطن وكانت أشرف الثياب عندهم.

وكان ﷺ يحب من الثياب البيض.

عن أبي ذر رضي الله عنه حدثه: أتيت النبيّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ وهو نائمٌ، ثم أتيتُه وقد استيقظ فقال: «**ما من عبدٍ قال لا إلٰه إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة...**» [رواه البخاري ـ فتح الباري ح١٠/٢٩٤/٥٨٢٧].

هذا ولا خلاف لدى جمهور العُلماء في مشروعية اللباس مطلقاً، ذكر القُرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا...﴾ الآية.

۞ قال كثيرٌ من العُلماء: هذه الآية دليلٌ على وجوب ستر العورة لأنه تعالى قال: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، ولا خلاف بين العُلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس. [ح٤/١٦٣، ١٦٤].

۞ وقال الشيخ عبدالرحمٰن بن سعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: خيرٌ من اللباس الحسي فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

أما اللباس الظاهري فغايتهُ أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان وليس وراء ذلك منه منفعة، ولباسُ الظاهر لا يضرهُ عدمهُ في كشف العورة عند الضرورة، أما عدم لباس التقوى فإنه يعني كشف عورته الباطنة وينالُ الخزي والفضيحة.

أختي المسلمة: هذا بالنسبة لمشروعية اللباس عامةً.

ولكن ماذا عن لباس المسلمة العفيفة؟

لأن الله اختص النساء بلباسٍ لا يَصْلحُ للرجال، كما أن لباس الرجال لا يَصْلُح للمرأة، فإذا بغى أحدهما على الآخر ولبس ملابسه حصل الفساد وانتشرت الرذائل، وحصل الخلل في جميع نواحي الحياة، ولهذا بين سبحانه وتعالى في كتابه آيات الحجاب الشرعي للمسلمة فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وأما عن مشروعية الحجاب الشرعي في السُنة فإن الأدلة على ذلك كثيرة نذكر منها:

١ ـ ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «يرحمُ الله نساء المهاجراتِ الأُوَل، لما أنزل اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مُروطهنَّ فاختمرن بها» [فتح الباري ح٨/٣٤٧ رقم ٤٧٥٨ ـ كتاب التفسير].

٢ ـ وعنها أيضاً: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أُزْرِهنَّ فشققنها من قِبل الحواشي فاختمرن بها» [بخ٨/٣٤٧/٤٧٥٩].

(مُروطهن): جمع مُرط وهو الإزار كما في الرواية الثانية (أُزرهنَّ).

(فاختمرن بها): أي غطيْن وجوههن.

وصفة ذلك أن تضع الخِمار على رأسها وترميّه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر وهو التقنعُ.

قال الفراء: لأنهم كانوا في الجاهلية تسدِلُ المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قُدامها، فأُمرن بالاستتار.

٣ ـ وعن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحنُ عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قُريش وفضلهن. فقالت عائشة رضي الله عنها: «إن لنساء قريشٍ لفضلاً وإني والله ما رأيتُ أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتابِ الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهنَّ امرأة إلا قامت إلا مُرطِها المرحلِ، فاعتجرن به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله في كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ مُعْتجراتٍ كأن على رؤوسهن الغِرْبان» [أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو داود ج٤/٦١ «كتاب اللباس»].

(والاعتجارُ): هو لفُ الخمار على الرأس مع تغطية الوجه.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بين الروايتين بأن نساء الأنصار بادرن إلى ذلك. [فتح الباري ح٨/٣٤٨].

٤ - عن دحية الكلبي: أُتي رسول الله ﷺ بقَبَاطِيَّ، فأعطاني منها قُبْطية، فقال: «**اصْدَعْهَا صَدْعين فاقطع أحدهُما قميصاً وأعْطِ الآخر امرأتك تختمرُ به**»، فلما أدبر قال: «**وأمر امرأتك أن تجعل تحتهُ ثوباً لا يصفُها**» [أخرجه أبو داود ج٤ /كتاب الباس ص٦٥ رقم ٤١١٦].

وروى أحمد في مسنده مثله عن أسامة بن زيد.

٥ - ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها - باب «ما يلبس المحرم من الثياب» قولها: «ولا تلثم المرأة، ولا تتبرقع، ولا تلبس ثوباً مصبوغاً بورس ولا زعفران» [ج٣ - كتاب الحج (فتح الباري)/ ٤٧٣].

٦ - ما رواه مالك في الموطأ عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين**» [ح١/٣٢٨].

والحديث يفهم منه أن النساء كُنَّ يلبسن النقاب والقفازين فنهاهُنَّ الرسول ﷺ عن ذلك حالة إحرامهم بالحج أو العُمرة.

٧ - ما رواه الدارقطني عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كُنا نكون مع رسول الله ﷺ ونحن مُحْرماتٍ، فيمرُ بنا الراكبُ فتسدلُ المرأة الثوب من فوق رأسها على وجهها» [ج٢/٢٩٥ حديث رقم ٢٦٣].

٨ - ما أخرجه أبو داود في كتاب المناسك (الحج) - باب في المحرمة تغطي وجهها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الرُّكبانُ يمرُّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ - محرماتٍ، فإذا حاذَوْا بنا سَدَلتْ إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزنا كشفناه» [ح٢/١٦٧ رقم ١٨٣٣].

ورواه ابن ماجة بلفظ: «**فإذا جاوزنا رفعناه**» [ح٢/٩٧٩ رقم ٢٩٣٥].

تحت باب «باب المحرمة تسدُل الثوب على وجهها» [وأخرج أحمد مثله].

وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن أسماء «باب إباحة تغطية المحرمة

وجهها من الرجال» بلفظ: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال وكنا نمتشطُ قبل ذلك» [ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين].

وهذه الأحاديث تدُل على كشف وجه المرأة حالة إحرامها إذا كانت بعيدة عن الرجال، أما إذا كان الرجال يرون النساء فإنهن يسدل الغطاء على وجوههن «وهو ما نسميه البوشية: وهو غطاء الوجه ويكون قطعة واحدة ينسدل من أعلى الرأس على الوجه»، وأما النقاب والبرقع فهو من محظورات الإحرام على المرأة المحرمة فلا تلبسهما.

٩ ـ ما جاء في قصة عائشة وهي تقص ما حدث رداً على كلام المنافقين في «قصة الإفك»:

فتقول رضي الله عنها: «فبينما أنا جالسة في منزلي (مكاني) غلبتني عيني فنمتُ حتى أصبحت، وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش فأدلج الصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، فعرفني حين رآني وكان يراني قبل أن يُضرب الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه[1] حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلتهُ فوطىء على يديها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدَما نزلوا مُوغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبيّ بن سلول. . . إلى آخر القصة» [أخرجه البخاري ـ فتح الباري ح٨/٣٠٦ ـ ٣٠٧ كتاب التفسير، سورة النور رقم ٤٧٥٠].

ويستفاد من الحديث أن النساء الحرائر وأمهات المؤمنين كُنَّ قبل نزول آيات الحجاب يُظهرن وجوههن وأيديهن، ولكن بعد فرض الحجاب وتغطية الوجه كان الحجبُ كاملاً ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

١٠ ـ ما رواه أبو داود في سُننِه: عن أم سلمةَ، قالت: كُنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتومٍ وذلك بعد أن أُمِرنا

(١) باسترجاعه (يعني قال إنا لله وإنا إليه راجعون).

بالحجاب، فقال النبيُّ ﷺ: «**احتجبا منه**» فقُلنا: يا رسول الله، أليس أعمى لا يُبْصرُنا ولا يعرفنا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**أفَعَمْيَاوان أنتما؟ ألسْتُما تُبْصِرانه**» [ج٤/٦٣ ـ ٦٤ رقم ٤١١٢، وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح].

١١ ـ جاءت امرأةُ إلى النبيِّ ﷺ يُقَالُ لها أم خلادٍ وهي مُنتقِبةٌ تسألُ عن ابنها، وهو مقتولٌ فقال لها: بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ جئت تسألين عن ابنك وأنت متقبة: فقالت إن أُرزأ ابني فلن أرزأ حيائي. فقال رسول الله ﷺ: «**ابنك له أجرُ شهيدَين**» قالت: ولم ذاك يا رسول الله، قال: «**لأنَّهُ قتلهُ أهل الكتاب**» [أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ج٣/٥ رقم ٢٤٨٨].

١٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لعن رسولُ الله ﷺ الرجلَ يلبسُ لِبْسة المرأة، والمرأة تلبسُ لبسة الرجل» [أخرجه أبو داود في كتاب اللباس ج٤/٦٠ رقم ٤٠٩٨ ـ باب لباس النساء].

وهذا الحديث يُعَدُ من معجزات النبيِّ ﷺ إذا أخبر عن أمرٍ يحدث في أيامنا هذه، والواقع خيرُ شاهدٍ، وقد عمت البلوى فلا تكاد تفرقَ بين الشاب والفتاة في قصة الشعر وحلقه، ولبس البنْطال الضيق ولبس الخاتم والسلسال في حلق الشاب، وجُرأة الفتاة في الكلام والتصرفات التي لا تليق إلا بالساقطات المنهزمات وحسبهم لعنُ رسولُ الله لهم.

۞ رأي عُلماء التفسير في هذا الموضوع:

۞ قال ابن كثير رحمه الله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العُلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً مستدلين بحديث رسول الله لما دخل عليه ابن أم مكتوم، فأمر عليه الصلاة والسلام أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما بالاحتجاب منه مع أنه أعمى لا يبصرُهُما.

ثم قال رحمه الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: المقانع يعملُ لها صفات ضاربات على صدورهن لتُواري ما تحتها من صدرها وترائبها،

ليُخالفنْ شعار نساء الجاهلية حيثُ كانت المرأة منهن تمرُ بين الرجال مسفحةً بصدرها لا يواريه شيء، ورُبما أظهرت عُنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأَمرَ الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن.

۞ ويقول الشيخ ابن سعدي رحمه الله ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحُليّ وجميعُ البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد منها قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: وهذا لكمال الاستتار، ويدلُ ذلك على أن الزينة التي يحرم ابداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا، ثم كرر النهي عن إبداء الزينة إلا لبعولتهن... إلخ.

۞ وقال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره للآية:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾ يقول تعالى ذكرهُ لنبيه - محمد ﷺ - وقل يا محمد للمؤمنات من أمتك يغضضن من أبصارهن عمّا يكره الله النظر إليه مما نهاكم عن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن أن يراها من لا يحل له رؤيتها بلبس ما يسترها عن أبصارهم.

وقال رحمهُ الله في تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية.

يقول تعالى ذكرهُ لنبيّه محمد ﷺ: يا أيها النبيُّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا هُنَّ خرجن من بيوتهن لحاجتهن فكشفنَّ شعورهن ووجوههن، ولكن ليدْنين عليهن من جلابيبهن لئلا يعرض لهن فاسقٌ إذا علم أنهن حرائر بأذى من قول.

۞ وقال النيسابوري في تفسيرها: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ يُرخِيْن عليهن يقال للمرأة إذا زل الثوبُ عن وجهها أُدني ثوبك على وجهك ومعنى التبعيض في قوله: ﴿مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أن يكون للمرأة جلابيب فتقتصر على واحدٍ منها، أو أُريد طرف من الجلباب الذي لها.

وكانت النساء في أول الإسلام على عادتهن في الجاهلية مبتذلاتٍ يبرزن في درعٍ وخمار من غير فصل بين الحُرة والأَمة فأمرن بلبس الأردية والملاحف وستر الرأس والوجوه (ذلك) الأدناءُ (أدنى) وأقرب إلى (أن يُعْرفن) أنهن حرائر أو أنهن لسن بزانياتٍ فإن التي سترت وجهها أولى بأن تستر عورتها.

۞ وقال النسفي في تفسيره: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ قال: «يُدنين» عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن ـ تُرْخى بعض جلبابها على وجهها تتقنع به» [ج٣/٢٣٩ ـ ٢٤٠].

۞ وقال الشيخ ابن سعدي رحمهُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ...﴾ تسمى هذه آية الحجاب، حيث أمر الله نبيّهُ أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ أن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن. ثم ذكر حكمة ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ دل على وجود الأذية إن لم يحتجبن، لأن المظنة بهن إن لم يحتجبن أنهن غير عفيفات فيتعرض لهن من في قلبه مرض، وربما استهان بهن وظن أنهن إماء من يريد الشر، فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

۞ وقال ابن الجوزي في تفسيره ـ زاد المسير ـ ح٦/٤٢٢: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يغطين رؤوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر، والمراد بالجلابيب: الأردية قاله ابن قُتيبة.

۞ وكذلك القاضي البيضاوي: في تفسيره:

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحِفهنَّ إذا برزن لحاجة.

وكذا تفسير الجلالين:

الجلاليب جمع جلباب وهي الملائة التي تشتمل بها المرأة، ثم أورد قول ابن عباس: «أُمِرَ نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة ليعلم أنهن حرائر» [ج٢ تفسير سورة الأحزاب].

مما سبق من الأدلة الواضحة من الكتاب السُنة وتفسير العلماء يتبين أن المرأة كلها عورة وأن الحجاب فرضٌ.

قال ﷺ: «**إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقربُ ما يكون بروحةِ ربها وهي في قعر بيتها**» [أخرجه الترمذي والبزار].

۞ والقاعدة الفقهية تقول: «إن ما نزل فيه نصٌ قرآنيٌ أو سُنة فقد بطل فيه الرأيُ والقياس».

أما ما لا نصَ فيه فقد اختلف فيه أهل العلم... والحجاب نزل فيه نصوصٌ قُرآنية كما سبق ونصُ الفرضية واضح «كما في أول سورة النور»: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

كما أن الآيات واضحة في سورة الأحزاب إضافة إلى الأدلة الواضحة والكثيرة من السُنة المطهرة، ومع ذلك فقد ذهب جمهور العلماء إلى أن وجه المرأة عورة.

۞ وهذا رأي الأئمة المجتهدين في هذه القضية:

أولاً: ذهب جمهور أهل العلم وعلى رأسهم الشافعي وأحمد ومالك إلى أن وجه المرأة عورة، وأن ستره واجبٌ، وأن كشفهُ حرام. مستدلين في ذلك بما ثبت عن الصحابة والسلف الصالح في الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وبأن معنى الآية: «أن المرأة تأمر بستر الوجه»، ولما ورد عن فعل الصحابيات وخروجهن ساتراتِ الوجه، سادلات النقاب وذلك عند خروجهن لحاجة.

ثانياً: أما فُقهاءُ الحنفية ومن ذهب مذهبهم فقد ذهبوا إلى أن الوجه والكفين ليسا بعورة وأن كشفهُ يجوز إذا لم يترتب على كشفه فتنة، أما إذا ترتب على ذلك فتنة فإن كشفهُ حرام سداً للذريعة وردعاً للمفسدة[1]. . .

❁ واستدلوا على ذلك بالآتي:

١ ـ ما رواه البخاري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الفضْلُ رديف رسول الله ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظرُ إليها وتنظر إليه، وجعل النبيُّ ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبُت على الراحلة، أفأحجُ عنه؟ قال: نعم، وذلك في حجة الوداع.

والحقيقة أن الحديث حُجة عليهم وليس حُجة لهم، لأن المرأة كانت مُحرمة، وقد عرفنا من الأحاديث السابقة أن إحرام المرأة كشف وجهها ويديها في الحج والعُمرة، وهذه الأحاديث تدُل على أن النساء تعودن لبس النقاب وستر الوجه ولبس القفازين عقب نزول آيات الحجاب، وقد نُهين عن ذلك في الإحرام، وإلا كيف ينهاهن النبيّ ﷺ عن أمرٍ لم يفعلنه!!

٢ ـ أما دليلهم في كشف الوجه والكفين فإنهم استدلوا أيضاً بحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ذات النطاقين.

والذي أخرجهُ أبو داود عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دُريك، عن عائشة رضي الله عنها، أن أسماء بنت أبي بكرٍ دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ، وقال: «**يا أسماءُ إن المرأة إذا بلغتِ المحيض لم تصلُح**

---

(١) تربية الأولاد ج١/١٩١ ـ ١٩٢، للشيخ عبدالله علوان.

أن يُرى منها إلا هذا وهذا» وأشار إلى وجهه وكفيه، قال أبو داود: هذا مُرسل، خالد بن دُريك لم يدْرك عائشة رضي الله عنها» [ح٤/٦٢/٤١٠٤].

أولاً هذا الحديث مُرسل (أي منقطع السَّند) كما أورد ذلك أبو داود، وقال ابن كثير ج**٢٨٣/٣** «في تفسير سورة النور» آية/**٣١**.

«قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو (أي حديث أسماء) مُرْسَل، خالد بن دُريك لم يدْرك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وبعض أهل العلم يحكمون على الحديث المرسل بالضعف، وإذا كان الحديث ضعيفاً لم يكن حُجة على الاستدلال».

كما أن الحديث من أول وهلة يشتمُ منه الضعف لمن عنده أدنى دراية بعلم الحديث وذلك للآتي:

أن علماء الجرح والتعديل ذكروا أن سعيد بن بشير «ضعيف»[(١)]، وأن الحديث منقطع السَّند بين خالد بن دُريك وعائشة فإنه لم يدركها ولم يسمع منها، والأمر الثالث «عنعنة» قتادة.

وهل يُعْقل أن تدخل أسماء رضي الله عنها وهي البالغة العاقلة التي تربت في بيت أبي بكر الصدِّيق، وكانت أكبر من عائشة بسنوات على النبيِّ بثيابٍ رقاق!! إن هذا الفعل لا يحدث من إحدانا فكيف بأسماء رضي الله عنها وأرضاها وهي المعروفة بالحياء والغيرة والإيمان!!

---

(١) قالوا عن سعيد بن بشير أنه ضعيف وليس بشيء.
قال أبو مسهر عنه: «وهو منكر الحديث».
وقال البخاري: يتكلمون في حفظه.
وقال عثمان عن ابن معين: ضعيف.
وقال عباس ـ عن ابن معين: ليس بشيء.
ميزان الاعتدال/ للذهبي ج١٢٨/٢.

وعلى هذا يتضح مما قاله الأئمة المجتهدون أن وجه المرأة عورة وأن ستره واجبٌ، وأن كشفهُ حرام، وحتى فُقهاء الحنفية الذين ذهبوا إلى الجواز بكشفه فإنهم قيدوه بأمن الفتنة.

وهل أحدٌ ينكر إشاعة الفساد والفتن في مجتمعاتنا اليوم لما شاع فيها من انتشار أجهزة الإعلام بجميع أنواعها وأساليبها من مسموعة ومرئية بعد أن أصبح العالم كله بمثابة قرية صغيرة!!

٣ ـ وذهب قومٌ آخرون إلى القول بأن المرأة إذا كانت جميلة الوجه وتخشى الفتنة، فيُحرم عليها كشف وجهها بل يجب عليها ستره.

وهذا أيضاً غير مقبول لأن مسألة الجمال نسبية تختلف فيها الأذواق فما تراه جميلاً قد يراه غيرك ليس كذلك والعكس فلا ينضبط الأمر وكما قالوا: «لكل ساقطة لاقطة»، لأن في ذلك ذريعة لأن تكشف كل جميلة بدعوى أنها ليست جميلة هروباً من أمر الله ورسوله واتباعاً للشيطان والهوى.

والإسلام جعل الأساس في الفرق بين الناس التقوى وكأنني بلسان كل مُخلصٍ يقول:

لا تأمنن على النساء ولو لأخ ... ما في الرجال على النساء أمينُ
إن الشقيق ولو تنزه جهدهُ ... لا بد أن بنظرةٍ سيخونُ

فيا من تبغين السعادة عليك بكتاب الله وسُنة رسوله تسعدي قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

وقال ﷺ: **«كلكم يدخُل الجنة إلا من شرد شرود البعير»** [أخرجه أحمد في مسنده حم٥/٢٥٨].

۞ ما معنى الحجاب وما هي صفتهُ:

۞ قال صاحبُ مختار الصِحاح: حجب: (الحجابُ) السِّتْر و(حجبهُ) منعه من الدخول.

(حجب) بينهما ـ حجباً: حال بينهما، وحجب الشيء: سَترهُ، حجب فلاناً: منعه من الدخول أو الميراث، وصار للأمير حاجباً: يحجُب الناس من الدخول. احتجب: استتر، والحجاب: الساتر وجمعُه حُجب.

۞ وقال صاحب المعجم الوسيط [ح١٥٦/١]: وسُميّ الحجاب الحاجز لأنه يفصل بين الصدر والبطن، والحجَّبُ: المنعُ.

وقد وردت كلمة حجابٍ في القرآن في عدة مواضع:

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾ [مريم: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ...﴾ [الأعراف: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وكُلها تفيد المنع والحجز والستر والحجبُ عن الرؤية.

وبهذا يكون الحجاب للمرأة المسلمة عبادة وفريضة ووقاية لها ومانعاً لها عن الانزلاق في المفاسد والفتن والرَذيلة، وهو سترٌ وحجبٌ لبدنها ووجهها عن الأجانب، والحجابُ الشرعي يساعدها على غض البصر وحفظ الفرج وصون الكرامة.

۞ صفات الحجاب الشرعي وشروطه:

لقد جمعت آيات الحجاب وصف لباس المرأة المسلمة، ثم وضحت السُنة ذلك كما أسلفنا الذكر بالأدلة من الكتاب والسُنة والإجماع، ولا بأس بذكر الصفات والشروط التي تنبغي أن تتوفر فيه:

١ ـ أن يشمل جميع بدن المرأة ولا يصفُه ويكون طويلاً سابغاً.

٢ ـ أن لا يكون شفافاً رقيقاً لنهي رسول الله عن ذلك: عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار، لم أرهُما بعدُ: نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مائلاتٌ مُميلات على رؤوسهن أمثال أسنمة البُخت المائلة، لا يرينَّ الجنَّة ولا يجدن ريحها، ورجالٌ معهم سياطٌ كأذناب البقر يضربون بها الناس**» [أخرجه أحمد ومسلم].

٣ ـ أن يكون كثيفاً ولا يصف لأن بعض أنواع القُماش يكون كثيفاً لا يشف، لكنه يصف كأن يكون من الحرير والجرسيه والألياف الصناعية مما يجعله يلتصق بالجسم فيصفُه، وهذا النوع يمكن استخدامُه في الخمار وجعل بطانه تحته من القطن، وذلك لما رواه ابن سعدٍ في الطبقات عن هشام بن عُروة أن المنذر بن الزبير قدم من العِراق فأرسل إلى أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بكسوة من ثيابٍ مَروِيّه وقهويَّه[1] رقاق عتاق ـ بعدما كُفَّ بصرها ـ فلمستها بيدها ثم قالت: أُف!! رُدوا عليه كسوته؟ فشق عليه ذلك: قال يا أمه: إنه لا يَشِف، قالت: إنها إن لم تكن تشِفُ فإنها تصفُ، فاشترى لها غيرها فقبلتها، وقالت: مثلُ هذا فاكْسُني».

٤ ـ أن لا يشبه لباس الكافرات ولا لباس الرجال لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «**أنه لعن المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء**» [أخرجه أبو داود ح٤/٦٠ كتاب اللباس].

٥ ـ أن لا يكون لباس شُهرة كأن تكون الفنانة الفُلانية ظهرت به، أو ارتدتهُ إحدى الكافرات في مناسبة مُعينة لأن «من تشبه بقومٍ فهو منهم».

٦ ـ أن لا يخضع للموضة وبيوت الأزياء الكافرة، لأنه مُحددٌ في آيات محكمات بيناتٍ واضحات وفي أحاديث صحيحة، وعلى ذلك فإن العباءة الضيقة المسماة «بالعباءة الفرنسية» لا تصلح لأنها تصف البدن كله، كما أن «الحجاب الموضة» كأن يكون عبارة عن أيشارب صغير يغطي بعض

---

(١) مروية وقهوية (نسبة إلى بلدة مرو، وقهو في بلاد خُراسان).

شعر الرأس، وكذلك اللفة المزينة والمزركشة، والبُونيه، والطاقية المزينة بظفيرتين كالعقال على الرأس لا تصلح، وإنما كل ذلك من الزينة المنهي عنها وكل ذلك لا يتم به الحجبُ.

٧ ـ أن لا يكون معطراً ولا هو زينة في نفسه ـ نرى كثير من الفتيات ارتدين هذه الأشياء، لأن الشيطان زين لهن أن شكلهن بها أحسن، فلهن أن يرتدين ما تشاء لكن هذا ليس من الحجاب في شيء وإنما هي تضلل نفسها.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ دخل عليها وهي تَخْتَمِرُ فقال: **«ليَّة لا ليتين»** قال أبو داود: معنى قوله: **«ليَّة لا ليتين»** يقول: لا تعتم مثل الرجل لا تكرره طاقاً أو طاقين. [أخرجه أبو داود ح٤/٦٤ رقم ٤١١٥].

٨ ـ ليس في الزي الشرعي بعد ذلك ما يُسمى «بالشرعي القصير»[١] ولا يوجد في ديننا «مِنى شرعي ومِكْرو شرعي ولا ميدي شرعي» وعلى هذا فإن ما يُسمى «بالشرعي القصير» والذي ترتديه الكثيرات من أهل الشام وهو عبارة عن «بالطو» يسمونه «تِرواك» مفتوحٌ من الأمام وله أزرار، ويصل إلى تحت الركبة بقليل أو فوق الكعبين بنحو شبر، ويكون ملوناً وغطاء الرأس عبارة عن إيشارب صغير فقط، والعجيب أنهن يستدللن بحديث مكذوب لم أسمعُه إلا منهن وهو أن أسماء دخلت على الرسول وهي تجر ثوبها فقال لها أقصري أقصري حتى بلغ منتصف الساق»، ووالله ما أدري لماذا تجنوا على أسماء هنا وهناك؟.

٩ ـ الصورة العامة للحجاب الشرعي أن يكون طويلاً واسعاً لا يصفُ ولا يشف ويكون عبارة عن الآتي:

---

(١) الشرعي القصير فكرة وليدة جماعة بسورية، وهؤلاء يغلب عليهن «التصوف» وتسمى هذه الجماعة بجماعة البيادر وبداية نشأتها كانت في أواخر السبعينيات ولا زال لهذه الجماعة أتباع مخلصات هنا وهناك!!

أ ـ جلباب طويل ساتر طويل الأكمام والذيل ويكون عادةً تحت العباءة.

ب ـ عباءة واسعة تشمل جميع البدن تلبس من أعلىْ الرأس إلى أسفل القدمين «ويسمى بالعباءة الخليجية».

جـ ـ غطاء الوجه يكون عبارة عن قماش خفيف يمكن من تحته الرؤية وعدم التعثر في الطريق، وفي نفس الوقت لا يشف عن لون بشرة الوجه وهو ينسدل من أعلى الرأس على الوجه والصدر ويسمى «بالبوشية».

د ـ تربط الرأس بمنديل تحت ذلك الغطاء ويكون مهمتُهُ تغطية الشعر كاملاً، فلا تبدو ذوائب الشعر ولا قرط الأذن.

هـ ـ ترتدي المسلمة العفيفة سروالاً طويلاً تحت الجلباب زيادة في الستر عند خروجها من بيتها لحاجة، فقد تكون هناك رياحٌ قوية ترفع ثياب المرأة رغماً عنها، أو تسقط على الأرض أو حتى عند رفع رجلها لتركب السيارة فلا ينكشف لها سترٌ.

يروى أن علياً رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ في سفرٍ فسقطت امرأة من دابة، فأعرض رسول الله ﷺ عنها بوجهه الشريف خشية أن تكون قد انكشفت، فقيل: إنها متسرولة. فقال ﷺ: **«اللهم اغفر للمتسرولات من أمتي»** [أخرجه البيهقي في الأدب والبزار، والحديث له طُرق أخرى تقوية، ولفظ سروال لفظ فارس].

وفي رواية أخرى لعليٍّ أيضاً: «وساق القصة.. حتى قال: فسقطت المرأة فأعرض عنها النبي ﷺ بوجهه، فقالوا: يا رسول الله إنها متسرولة: فقال: **«اللهم اغفر للمتسرولات من أُمتي، يا أيها الناس اتخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم، وحصّنوا بها نساءكم إذا خرجن»»** [أخرجه ابن عدي في الكامل، والعقيلي، والبزار والبيهقي في الأدب مطولاً].

و ـ أن تحرص المسلمة العفيفة على لبس القفازين في يديها وكذلك الجوربين الكثيفين في قدميها عند خروجها، وهذا النوع من اللباس الشرعي

مُريح جداً في اللبس والحركة، ويكثر ارتداؤه في الجزيرة العربية «دول الخليج» ولونه أسود.

١٠ ـ صورة أخرى مشابهة لسابقتها إلا أنها عبارة عن:

أ ـ جلباب واسع وفضفاض وطويل يسترُ جميع بدن المرأة، ويكون ذا ألوان واحدة لكنها ليست مُلفتة للنظر مثل «أسود، بني، أزرق ورصاصي ورمادي ودرجات البُنيّ».

ب ـ خمار واسع طويل يضرب من أعلى الرأس إلى منتصف جذع المرأة ينسدل من الأمام فيستر الصدر والنحر. ومن تحته غطاء الوجه ينسدل من الرأس فيغطي الوجه ويمتد حتى تحت الصدر طولاً وإلى الأذنين عرضاً.

جـ ـ لبس السروال (البنطلون) الواسع الطويل وكذلك الجوربين والقفازين. وهذا يكثر ارتداؤه في مصر وعمان وكثير من المسلمات في بقاع شتى يلبسنَهُ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحمُ الله نساء المهاجرات الأُول، لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن أكثف مُرُطِهِنَّ، فاختمرن بها» [أخرجه أبو داود في اللباس ح٤/٦١ رقم ٤١٠٢].

ملحوظة: بعض النساء لا تستطيع سدل غطاءٍ على وجهها لضعف بصرها، فهذه ترتدي النقاب وتحرص أن يكون فتحتي العينان قدر الحاجة.

ويدخل في ذلك البرقع ويجب أيضاً مراعاة ذلك فيه، أما ما تفعله النساء اليوم من اتساع البرقع حتى أنه لم يعد يغطي إلا جزءاً يسيراً من الوجه مع وضع أصباغ وطيب وزينة، فهذا مُخالف لهدي رسول الله ﷺ وسُنته وما كانت عليه الصحابيات.

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

«اللهم أعنا على طاعتك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

أختي المسلمة هل تريدين السعادة؟

إن السعادة كل السعادة في طاعة الله ورسوله والاقتداء بأمهات المؤمنين وبالصحابيات العفيفات الطاهرات اللاتي تعلمن وتربين في أعلى الجامعات ـ في جامعة الإيمان والعمل الصالح ـ التي وضع لها ربنا سبحانه وتعالى ونبيّهُ ﷺ مناهج الدراسة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أختي المسلمة أما تخشين على نفسك من سوء العاقبة، إن أنت تنكبت الطريق ولهثت وراء صُناع الموضة وبيوت الأزياء، وتخليت عن لباس العفاف ورفضت شرع الله، ولم تطيعي أمره وأطعتي أعداءه، هل تحبين أن يطردك رسول الله ﷺ من على الحوض يوم القيامة، وأنت أشد ما تكونين في حاجة إلى شربة ماء من يده فيقول لك سُحْقاً لقد بدلت وغيّرت من بعدي!!

استمعي أختي لهذه الكلمات من عارضة للأزياء وهي تقول: «إن بيوت الأزياء جعلت مني مجرد صنم متحرك مهمتُه العبث بالقلوب والعقول، فقد تعلمت كيف أكون باردةً قاسيةً مغرورة فارغة من الداخل، لا أكون سوى إطار يرتدي الملابس، فكنت جماداً يتحرك ويبتسم...

وتقول (فابيان): «وبينما أنا كذلك جاءتني لحظة الهداية عندما كنت في قمة الشُهرة، ولولا فضل الله عليّ ورحمته بي لضاعت حياتي في عالم

ينحدرُ فيه الإنسان ليصبح مُجرد حيوان كلُ همه إشباع رغباته وغرائزه بلا قيم ولا مبادىء».

(وفابيان) هي عارضة أزياء فرنسية ـ سابقاً ـ كانت في الثامنة والعشرين من عُمرها ـ أي في ريعان الشباب والجمال والرشاقة والشهرة ـ فتركت ذلك لله.

۞ ماذا أفرزت لنا بيوت الأزياء الكافرة:

١ ـ لقد أفرزت لنا صوراً من اللباس غريب على مجتمعنا وعاداتنا مخالفاً لشرع ربنا متنافياً مع سُنة نبينا ﷺ ومن هذه الصور:

أ ـ أن ترتدي الكثيرات من بناتنا ونسائنا القميص والبنطلون ضيقاً كان أم واسعاً فهذا تشبه بالرجال.

ب ـ ارتداءُ كثيرٍ من النساء والبنات «البدلة الرجالية» شكلاً ونظاماً حتى من نفس نوعية القماش الرجالي.

جـ ـ ارتداء الكثيرات للدراعات الطويلة الشفافة والمفتوحة من قِبل الركبة إلى أسفل مع ضيقها «وهذه من الكاسيات العاريات».

د ـ لبس التيير القصير وهو عبارة عن جاكيت ضيق وتنورة ضيقة قصيرة «ومفتوحة من الخلف، أو الجانبين».

هـ ـ لبس الملابس الفاضحة التي لا تستُر شيئاً من البدن فنرى الساقين والذراعين والصدر كل ذلك عارٍ تماماً «فكيف تدعي هذه أنها مسلمة؟».

كل هذا ملاحظ ومُشاهد وقد امتلأت الشوارع باللحم الرخيص.

ولله دَرُ القائل:

أصون عرضي بمالي لا أدنّسُهُ لا بارك الله بعد العرض في المال

۞ الحجاب أختي المسلمة صونٌ وكرامة وطُهر وعفة ونقاء وجمال وحياء ووقار وإيمان وثقة في النفس وعزة وإباء، ثم هو إيمان وتقوى وعبادة

وطاعة لله سبحانهُ وتعالى الذي أعطاك الشكل الحسن والهيئة الجميلة والصحة والقوام، وهو قادر على أن يسلبك إياها، فاحذري غضب الله وسخطه.

أختي المسلمة اسمعي هذا النداء:

كُنت دوماً يا فتاتي ... أنت رمز التضحيات
ترتدي جلباب طُهرِ ... لا كزيِّ العاريات
تختشي من هتك سترِ ... في حجاب المؤمنات
فاحذري شراً وبيلا ... يوم عرض الكائنات
حينما لا شيء يُغني ... غير فعل الصالحات
إنه القرآن نادى ... يا لتُغشَى الغافلات
من سعت للنار سعياً ... في دروبِ مظلمات
فارتدت ثوباً خطيئاً ... واقتدت بالكافرات
أين أنت اليوم يا من ... دأبُها دأبُ العُصاة
هل ترى أن لا مماتِ ... أم هروباً من ممات
جددي لله عهداً ... كي تفوزي بالنجاة[1]

والآن ماذا عن القواعد من النساء؟؟

قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٦٠].

والقواعد من النساء: هُنَّ العجائز الكبيرات في السن اللاتي يغلب عليهن القعود لضعفهن وكِبَرِ سنهن.

❁ يقول الشيخ عبدالرحمٰن بن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

---

(١) هذه أبيات من قصيدة نداء لأحدى طالبات جامعة القدس عام ١٤٠٠هـ.

«واللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ولا يطمعن في النكاح ولا يطمع فيهن، وذلك لكونهن عجائز لا تشتهي ولا تُشتهى فليس عليهن حرج وإثم في أن يضعن الثياب الظاهرة كالخمار، ونحوه الذي قال الله فيه للنساء ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فهؤلاء يجوز لهن كشف وجوههن لأمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفيُ الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما تُوهم منه جواز استعمالها لكل شيء دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مُظهرات للناس زينة من تجمل ثياب ظاهرة وتستر لوجهها، ومن ضرب الأرض ليعلم ما تخفى من زينتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهي يفتن فيها ويوقع الناظر إليها في الحرج ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ والاستعفاف طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج وترك لما يخشى منه الفتنة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيّات والمقاصد، فليحذرن من كل قولٍ وقصد فاسدٍ يعلمن أن الله يجازي على ذلك» [ج٢/٢١٨].

وهكذا المرأة في الإسلام شابة كانت أم عجوزاً فإنها تلقى الاهتمام والمحافظة، فأي دينٍ سما بالمرأة كالإسلام، ولهذا أعد الأعداء العُدة لتدمير المرأة بكل الوسائل وإجبارها على نزع جلباب العفة وبرقع الحياء لتصبح دُمية في أيديهم، فيفعلوا بها ما يشاؤون لأن في تدمير المرأة تدميراً للمجتمع بأسره.

۞ لماذا كلُ هذا العداء للحجاب؟

والحقيقة أنها حرب سافرة وليس مجرد عداء، وذلك لأنهم يعلمون أن الحجاب فرض وعبادة وطاعة وقُربة، والمرأة المسلمة إذا تمسكت به أخرجت أجيالاً مسلمة قوية تدين بدين الحق وترفض الباطل بكل صوره وأشكاله، وأن المجتمعات تصلح بصلاح أفرادها وصلاح أخلاقهم، وهم يريدون مجتمعاً منهاراً مُتحللاً من كل فضيلة وحياء وعفة.

فعمدوا إلى استعمال المرأة وشن الحرب على حيائها وحجابها، وأنتم تعلمون كما يعلمون أن المرأة هي نصف المجتمع ـ بل هي المجتمع ـ فهي

الأم والزوجة والجدة والخالة والعمة والأُخت والبنت، والأم تؤثر في النشأ سلباً أو إيجاباً، فإن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، والحال خيرُ شاهدٍ.

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها	أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساءَ	سوافر بين الرجال في الأسواق
في دورهن شؤونهن كثيرةٌ	كشئون رب السيف والمرزاق
ربوا البنات على الفضيلة	إنها في الموقفين خيرُ وفاق[1]

وهذه الحرب أُعلنت منذُ نزول آيات الحجاب، وليس أدل على ذلك من قصة الإفك التي قادها المنافق اليهودي في المدينة، لكنهم لم ينالوا مُرادهم لأن المؤمنين كانوا أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين رحماء بينهم.

ومن أقوال أعداء الإسلام في القرآن الكريم والكعبة والحجاب، قول اليهودي جلاستون رئيس وزراءِ انجلترا ـ في أواخر القرن الماضي ـ في مجلس العموم البريطاني ـ وقد أمسك بيده القذرة القرآن المجيد: «إن العقبة الكؤود أمام استقرارنا بمستعمراتنا في بلاد المسلمين هي شيئان لا بد من القضاء عليهما مهما كلفنا ذلك الأمر» أولهما هذا الكتاب، وسكت قليلاً ثم أشار إلى جهة الشرق، وقال وهذه الكعبة.

ثم قال: «ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون هي نفسها في أمان، ولن تستقيم حالة الشرق ما لم يُرفع الحجاب عن وجه المرأة ويُغطى به القرآن»!!

وكان كرومر يقول: جئت لأمحو ثلاثاً: القرآن ـ الكعبة ـ الأزهر.

ولما جاء نابليون على رأس الحملة الفرنسية على مصر عمل على نشر

---

(١) الأبيات لشوقي رحمه الله.

الفساد والرذيلة ومحاربة الحجاب، وأهل السُنة والجماعة وتخريب الأزهر وحرق الكتب وسرقة كنوز العلم بمكتباته، وفي المقابل شجع أهل البدع والموالد من الصوفية وكذلك أهل الطرب والموسيقى.

ولقد تربى على أيدي هؤلاء أناسٌ من بني جلدتنا، وكانوا يتكلمون بألسنتنا حتى إذا تعلموا على أيدي الغرب عادوا «عرب مستعجمة» وهم كثير ـ لا كثرهم الله.

من أبرز هؤلاء قاسم أمين ورفاعة الطهاوي ولطفي السيد، وعلى عبدالواحد، على شعراوي، وغيرهم.

ومن النساء صفية زغلول وهدى شعراوي ودرية شفيق وسهير القلماوي وأمينة السعيد وغيرهن من هنا وهناك، وقاسم أمين أول من قاد هذه الدعوة المسعورة في «كتابه تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» وقد نادى بالمرأة المصرية أن تجاري أُختها الأوروبية في كل شيء.

فكان من ثمار دعوته المُرَّة أمينة السعيد التي قالت مهاجمة الحجاب: «عجبتُ لفتيات مُثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهُنَّ علىٰ قيد الحياة».

وقبلها كانت «الزعيمة» هدى شعراوي[١] وصفية زغلول[٢]، وقد تسميّا بأسماء أزواجهن جرياً وراء النظام الفرنسي، وغيرهما من اللائي أحرقن الحجاب في ميدان الإسماعيلية والذي سُميَّ بعد ذلك ميدان التحرير[٣].

هؤلاء وتلك لا زالت سمومهم وحقدهم يبث ضدالحجاب وصاحبات الحجاب، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولقد رَدَّ شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم على هؤلاء في الإلياذة الإسلامية والتي نورد بعضاً من أبياتها:

(١) هدى شعراوي زوجة علي شعراوي.
(٢) صفية زغلول زوجة سعد زغلول.
(٣) كتاب الولاء والبراء /٤٠٤ ـ ٤٠٥ محمد سعيد سالم القحطاني.

أَغـركِ يـا أسـمـاءُ مـا ظـن قـاسـمُ!! أقـيـمـي وراء الـخِـدْر فـالـمـرءُ واهـمٌ
تـضـيـقـيـن ذَرْعـاً بـالـحـجـاب ومـا بـه سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعمُ
سلام على الأخلاق في الشرق كله إذا ما استُبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تـقـذف بـجيشك تـبـتـغي بـقـومـك والإسـلام مـا الله عـالـمُ
لـنـا فـي بـنـاء الأولـيـيـن بـقـيـة تـلـوذ بـهـا أعـراضُـنـا والـمـحـارمُ
أسـائِـلُ نـفـسـي إذ دلـفَـتْ تُـريـدهـا أأنـت مـن الـبـانـيـن أم أنـت هـادمُ
أتـأتـي الـثـنـايـا الـغُـرّ والـطُـرَرُ الـعُـلـى بما عجزت عنه اللحى والعمائمُ؟
فلا ارتـفـعـت سُـفـن الـجـواء بـصـاعـد إذا حـلَّـقـت فـوق الـنـسـور الـحـمـائـمُ
عـفـا الله عـن قـوم تـمـادت ظـنـونـهـم فـلا الـنـهـج مـأمـونٌ ولا الـرأيُ حـازمُ
ألا إن بـالإسـلام داءً مـخـامـراً وإن كـتـاب الله لـلـداء حـاسـمُ

وكان أحد القادة في بلدٍ إسلامي يسخرُ من الحجاب ويقول عنه أي الحجاب: أنه بمثابة الخيمة السوداء المتحركة.. إنها الرجعية.

وتسأل إحدى الصحفيات أحدهن بعد عودتها من بلاد الغرب التي تعلمت فيها:

ما هو أبرز حدث كان لك دور فيه في تلك الفترة إلى جانب التدريس؟

تقول: دوري تمثل في المساهمة بالتخلِّي عن العباءة والبوشية، كان والدي يمقت ارتداء العباءة وكان يردد دائماً ليس ستر المرأة بعباءتها، وكان دائماً يردد بأن خلف هذه القطعة السوداء يقبع الجهل والتخلف.

«تلك القطعة السوداء والتي قد يختفي وراءها المجرمون وأصحاب النوايا السيئة...» انتهى.

فبالله عليكم ماذا نقول عن هؤلاء الذين جعلوا من المنكرِ معروفاً، ونادوا إليه وجعلوا المعروف منكراً وحذروا منه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وعلى الرغم من هذه الحرب على الحجاب، إلا أننا نرى ولله الحمد انتشاره بين الأخوات المثقفات، ولا سيّما اللاتي يدرسن دراسة علمية وذلك في شتى بقاع المعمورة.

والحرب سجال بين أهل الحق وحزب الشيطان فنجد من يتبجحُ قائلاً: «ليس في القرآن الكريم آية واحدة تفرض الحجاب».

نقول له: «قول الحق»: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فما أكثر العرب المستعجمة الذين حذرنا منهم نبينا ﷺ وصحابته من بعده.

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا يُدركني زمانٌ ولا تدركوا زماناً - يعني الصحابة - لا يتبعُ فيه العليم ولا يُستحى فيه من الحليم قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب»** [حم/٣٤٠].

وقال عمر رضي الله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تتنزلُ عليهم» [رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي وإسناده صحيح].

أختي المسلمة هل انتبهت لما يُراد بك، إنهم يريدونك سلعة رخيصة والإسلام يريديك جوهرة ودُرة غالية.

أخرج البخاري عن سعد بن عُبادة: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربتهُ بالسيف غير مُصْفحٍ».

فقال النبيُّ ﷺ: **«أتعجبون من غيْرة سعد؟ لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ مني»**.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «تزوجني الزبير وما له من مالٍ ولا مملوكٍ... فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني، ثم قال: إخ إخ ليحملني خلفهُ فاستحييتُ أن أسير مع الرِّجال، وذكرت الزبير وغيرتهُ وكان أغيَر الناس ـ فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحيتُ فمضى...» [أخرجه البخاري].

ألا وإن من صور العداء للحجاب عداء بعض الآباء والأمهات للحجاب فيرفضون لبس بناتهم له مع أنهن بالغات بدعوى حتى يأتيها ابن الحلال؟ والذي يرضى بالمتبرجة لا يصون لهم عرضاً ولا كرامة.

وكذلك بعض الأزواج يرفضون الحجاب لزوجاتهم وهذا من المنكر والسوء والعياذ بالله، والعكس كذلك مصيبة وبلاء أن ترفض المرأة الحجاب ولا تغارُ على نفسها.

وحدث ولا حرج عما جناه الاختلاط لهم من مشاكل عديدة امتلأت بها الصحف والجرائد اليومية بسبب التساهل في ذلك.

ومما سبق يتبين أن العُري هو التردي في الجهل والنزول إلى مستوى البهيمية وعودة إلى الجالهية الأولى وعصر الإماء، وإعلان بأن هذا الجسد رخيصٌ وهو كلأ مُباح، أما ترى إلى الحلوى المكشوفة بالشارع كيف يحطُ عليها الذباب فتأباها النفوس الشريفة العالية، وأن من يأكل منها يمرض لأنها ملوثة، وإذا كان هذا التلوث يذهب بجرعة من المضاد الحيوي فإن تلوث العقيدة لا يشفى أبداً إلا بتوبة صادقة.

ذكر ابن حجر في شرحه للبخاري: بخ١٠ /كتاب التفسير ـ تفسير سورة النور ـ قال: وكان سعيد بن أبي الحسن البصري يقول لأخيه الحسن البصري: «إن نساء العجم يكشفن صُدورهن ورؤوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾» [بخ١٠/٩].

وأخيراً أذكرك بقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨].

اللهم إنك عفوٌ غفور كريم تحب العفو فاعفو عنا وردنا إلى دينك رداً جميلاً.. آمين.

❁ وقفةُ مقارنة بين المجتمع أيام الرسول ﷺ وبين مجتمعاتنا العجيبة.

يجب أن نقرر بادىء ذي بدءٍ أن أحكام الحجاب ما أثمرت ثمرتها، وفعلت فعلها في المجتمع الإسلامي الأول، إلا لأنها كانت تُحرك أُناساً آمنوا بالله ربنا ورضوا بالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ورسولاً. وكفروا بجميع أرباب الأرض وطواغيتها.. وتمكن الإسلام من قلوبهم ففهموا مقاصده وغاياته، حتى غدت تصوراتهم ومعاييرهم ومقايسهم إسلاميةً محضة، فالأمر ما أمر الله ورسوله، والنهي ما نهى الله ورسولهُ فالمسلم يتلقى أمر ربه ورسوله ويتحرك به تواً، ويمضي في سبيله جاداً حاسماً لا يهمه ما عليه الكتلُ البشرية التائهة الضالة الذاهلة عن حقية وجودها ومصيرها.

فهذا الإيمان الأصيل الذي خالط بشاشة قلوب الرعيل الأول من المؤمنين هو الذي دفع النساء أنصاراً ومهاجرين أن يقُمن فور سماع قول ربهم: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ...﴾ الآية إلى مُروطهن فيشققنها ويعتجرن بها حتى جئن من صلاة الغداة وكأن على رؤوسهن الغربان.

ولذلك أثنت السيدة عائشة رضي الله عنها عليهن لسُرعة قبول الأمر وتطبيقه. فلم تتعلل إحداهن بذهاب الأناقة، ولم تتعلل أخرى بقسوة الجو وحر الجزيرة المجدبة، ولم تقع منهن كلمات العصرية ولا أدنى تأففٍ، وكانت أمهاتُنا، وكان الناس وكانت أيام خير وبركة، فالرجل رجلٌ في بيته على زوجه وأخته وأمه وعمته وخالته ومع بنته وكل ذي قرابته، كما كان

رجلاً خارج بيته ولم تتشدق واحدة منهن بما نسمعُه الآن، فليرحم الله أيام رسول الله ﷺ وأيام الصحابيات اللاتي ما لاذت إحداهن بالتحررية ولا الانطلاقية، ولا غيرها مما أملتهُ الشياطين إنسها وجنّها على أبناء هذا الزمان؟ يكفي أن هذا الأمر ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ نزل من عند الله من فوق سبع سماوات ليحرك هذا المجتمع المبارك إلى كل فضيلة وعفةٍ وحياء، ونحو رضي الله تعالى ويمقتُ ما عداه مقتاً كبيراً[1].

وإذا أردنا الآن أن نعيد التجربة نفسها فلا بد من تهيئة أسباب هذا النجاح في جهاز الإرسال «الدُعاة» وأجهزة الإعلام، وفي جهاز الاستقبال «المجتمع» كالآتي:

١ ـ تجنيد دُعاة وداعيات على مستوى ديني وعلمي وخُلقي وأهلٌ لما يقولون ليكونوا أُسوة حسنة ويحصل التأثر، لأن ما خرج من القلب يصلُ إلى القلب وما خرج من اللسان فحدُّه الآذان ـ يحتسبون الأجر والثواب عند الله ـ ويكفيهم قول الحق: «ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين».

ولحديث رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمر النعم**» [أخرجه البخاري].

وعلى الداعية التحلي بالصبر والحكمة وحُسن الخلق، لأن طريق الدعوة ليس سهلاً ولا مفروشاً بالورود.

قال الله لنبيّه مع أنه على خلقٍ عظيم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعليهم التعاون مع أجهزة الدولة للمشاركة في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وجميع وسائل التخاطب الحديثة، فإذا تم ذلك وظهرت هوية المسلم الحق في الإسلام حدث بذلك خير كثير.

وأنت أختي المسلمة احتسبي وقتك عند الله واقتطعي منه للدعوة

---

(١) من كُتيب المرأة المسلمة للشيخ الشعراوي طبعة ١٩٧٩م ـ ١٤٠٠هـ (بتصرف).

واذهبي إلى أخواتك في المسجد، في المدرسة في الجامعة وفي المستشفى - واطلبي الأجر - وكذلك في بيوتنا.

٢ - أن تكون هُناك وسائل إعلام إسلامية تكثف توعيتها للأسر والمجتمعات في تعليمهم أمور دينهم وحثهم على التمسك بها من خلال عُلماء عاملين أهل علم وفضيلة مخلصين مستخدمين أساليب الترغيب والترهيب في ذلك - كَما هو الحال في إذاعة القرآن الكريم السعودية والمصرية والكويتية وغيرها من الإذاعات، وكذلك التلفاز إن هو وظف لذلك.

٣ - وكذلك يجب أن يكون جهاز الاستقبال مُعافاً من العطب حتى يتفاعل مع إشارات الإرسال بطريقة مُرْضية، وأن يكون بالقوة الإيمانية والخُلقية التي تجعلهُ يستجيب للخير، وهذا يتطلب من الدُعاة التركيز على جانب العقيدة الصحيحة، وتصحيح الأخطاء التي يقع فيها كثير من الناس من الشِركيات والبدع والخُرافات، وتخويفهم من الله واليوم الآخر وحثهم على الأكل الحلال والكسب الطيب.

۞ ما هي حدود عورة المرأة في الصلاة وفيّما تصلي:

قال الخطابيُ[1]: واختلف الناس فيما يجب على المرأة الحرة أن تُغطى من بدنها إذا صلت.

فقال الشافعي والأوزاعي: تغطي جميع بدنها إلا وجهها وكفيّها، وروي ذلك عن ابن عباس وعطاء.

قال أبو بكر بن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام: كل شيءٍ من المرأة عورة حتى ظفرها.

وقال أحمد بن حنبل: تُصلي المرأة ولا يُرى منها شيء ولا ظفرُها.

---

(١) معالم السُنن لأبي سليمان الخطابي ج١/٣٢٤ - ٣٢٥.

«والمقصود لا يُرى منها شيء لأجنبيّ ـ فإذا كانت تصلي في مكان قَدْ يمرُّ به الرجال فلها أن تسدل نقابها على وجهها».

وقال مالك بن أنسٍ: إذا صلت المرأة وقد انكشف شعرها، أو صُدور قدميّها تُعيد ما دامت في الوقت.

مستدلين[1] بحديث أم سلمة رضي الله عنها عندما سألت رسول الله ﷺ عن طول الذيل «طول الثوب».

عن ابن عُمرَ قال قال رسول الله ﷺ: **«من جرَّ ثوبَهُ من الخُيلاء لم ينظر اللَّهُ إليه»، قالت أم سلمة: يا رسول الله فكيف تصنع النساءُ بذُيُولهن؟** قال: **«تُرخينهُ شبراً»**، قالت: إذاً تنكشفَ أقدامُهُنَّ، قال: **«تُرخينهُ ذراعاً لا تزدن عليه»** [أخرجه النسائي ح٨/٢٠٩ ـ باب ذيول النساء].

وحديث عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: **«لا يقبلُ الله صلاة حائضٍ إلا بخمار»** [رواه الخمسة إلا النسائي].

وحديث أم سلمة أنها سألت النبيَّ ﷺ: «أتصلي المرأة في درعٍ وخمار، وليس عليها إزار؟».

قال: **«إذا كان الدرع سابغاً يغطي ظهور قدميّها»** [أخرجه أبو داود ج١/١٧٣ حديث ٦٣٩ ـ ٦٤٠].

وهذا الحديث اختلف أهل العلم في وقفة ورفعة، فذهب جمهورهم على أنه موقوف على أم سلمة، وعلى فرض التسليم على أنه موقوف فإنه حُجة يعملُ به، حيث إن علماء الحديث نصوا على أن الحديث الموقوف إن كان مما لا مجال للرأي فيه والاجتهاد فله حكم الموقوف، ولا شك أن حديثنا هذا يوحى بذلك حيث أن مسألة اللباس في الصلاة مسألة شرعية ليست قائمة على الاجتهاد والنظر، بل هو تعبدٌ محضٌ، فكلام السيدة أم

---

(١) وفي المنتقى من أخبار المصطفى ج١/٢٧٣.

سلمة لا يتصور أنها تقوله من اجتهادها، بل الظاهر سماعها له من النبيِّ ﷺ وهي زوجه وأعلم الناس بأحواله.

وبهذا يكون الحديث في المحصلة مرفوعاً أَوْ لَهُ حُكم الرفع وعلى هذا يكون حُجة في المسألة وفاصلاً فيها... والله أعلم.

مما سبق يتبين أن عورة المرأة في الصلاة جسدها كله عدا الوجه والكفين، حيث لم يرد نص بسترهما، والمراد كشفها في الصلاة بحيث لا يراها أجنبيّ، أما في غير الصلاة فجميع بدن المرأة الحُرة عورة بالنسبة لأي أجنبيٍّ عنها، والله تعالى أعلم.

وهُناك بعض الحالات التي لا بأس للمرأة أن تكشف عن وجهها وكفيها فيها:

١ ـ في الصلاة كما تقدم إذا كانت تصلي بعيداً عن الرجال الأجانب.

٢ ـ في الحج والعُمرة إذا لم يكن هناك أيٌّ من الرجال ينظرون إليها، فإذا لم يتم لها ذلك فعليها سدل الخمار على وجهها، كما فعلت أمهات المؤمنين.

فعن صفيةَ بنت شيبة أنها قالت: «رأيت عائشة طافت بالبيت وهي منتقبة»[(١)] [أخرجه ابن سعد في طبقاته وقد سبق].

ولأن فصل الرجال عن النساء بالحج من الصعوبة بمكان فلزمها سدل الخمار، كما فعلت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين.

٣ ـ للمرأة كشف وجهها وكفيها أمام «الخاطب» إذا تقدم لها رجل مسلم ترتضيه لدينه وخلقه، فمن السُنة كشف وجهها وكفيها أمامه ليرى ذلك منها، مع الأخذ بالاعتبار الضوابط الشرعية لذلك.

---

(١) منتقبة: سادلة الخمار على وجهها.

٤ ـ عند الضرورة القصوى إذا أصابها مرض في وجهها أو أسنانها، وعدمت الطبيبة فلها أن تكشف للعلاج قدر الحاجة، ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسراً.

وأنصح نفسي وأخواتي بتقوى الله في السر والعلانية والتحلي بالحياء، فإنه السربال الذي لا يبلى.

وأذكركم بنموذج فريد في الحياء «ابنة شُعيب عليه السلام» قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥].

فانظروا معي كيف صارت هذه المرأة حياءاً يتحرك على الأرض يفيض إيماناً وخشية لله فاطر الأرض والسماوات.

❁ يقول الطبري وبه قال المفسرون: أي جاءت حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياءٍ وخجل قد سترت وجهها بثوبها.

قال عمر رضي الله عنه: لم تكن بسلفع من النساء وخَرَّاجة ولاّجة (الجريئة السليطة الجسور) قاله الجوهري.

وصدق الحبيب ﷺ حيّث قال: «**فإن الحياء من الإيمان**» [أخرجه أبو داود في الأدب ح٤/٢٥٢].

وقوله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة (الأولى) إذا لم تستح فافعل ما شئت**» [أخرجه أبو داود/ الأدب ح٤/٢٥٢].

فاللهم إنا نسألك الهُدى والتُقى والعفاف والغنى، وقولي أُخيّتي مع عائشة التيمورية مفتخرة بحجابك:

بيدي العفافُ أصون عِزَّ حجابي ... وبهمتي أسمو على أترابي

ما ضرّني أدبي وحُسنُ تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب

ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سَدْل الخمار بلمتي ونقابي

[تربية الأولاد ح١/٢٨٥].

۞ أفضلُ صفوف النساء آخرها وشرها أولها:

إذا كانت النساءُ تصلين خلف الرجال مباشرة بدون حاجز بينهما ـ كما كان الأمر في بداية الإسلام ـ وأيام الرسول ﷺ فإن المرأة تصلي في الصفوف المتأخرة فهذا أفضل لها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها**» [أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ـ باب في صف النساء ـ ح١/١٨١ رقم ٦٧٨].

أما إذا كانت النساء لهنَّ مُصلى خاص، كما يوجد الآن فإنها تتم الصف الأول فالأول من جهة اليمين حتى تكتمل الصفوف، وإذا كان الحاجز بين مكان الرجال والنساء مجرد حاجز من قماشٍ «ستارة»، وهي لا تحجب الصوت فعليهن أن يستأخرن مسافة، بحيث لا يسمع للمرأة صوت عند الرجال، وفي هذه الحالة الأفضلية للصفوف المتأخرة.

وعلى المرأة إذا خرجت للصلاة أن تلتزم الستر والعفاف، وأن لا تتطيب إذا خرجت من بيتها، وأن تتأدب بآداب المسجد فلا ترفع صوتها حتى يسمعُه الرجال.

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: «لقد كان رسول الله ﷺ يُصلى الفجر فيشهد معه نساءُ من المؤمناتِ متلفعاتٍ في مروطهن، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد» [أخرجه البخاري (فتح الباري) ج٢/٣٥١].

ألا وإن من الأخطاء التي تقع فيها المرأة عند خروجها للمسجد، إما بقصد أو عن جهل الآتي:

١ ـ خروجها متعطرة متطيبة وكذلك ملابسها قد بخرتها وطيبتها بدهن العود وغيره، وهذا منهي عنه للحديث الآتي: أن زينب امرأة ابن مسعودٍ قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً**» [أخرجه مسلم ج١/٣٢٨ رقم ٤٤٣ ـ ١٤٢].

٢ - سترها لوجهها بغطاءٍ خفيفٍ وقد صبغت وجهها بما يسمى بالمكياج الكامل وكأنها قد تزينت لزوجها، وهذا لا يجوز وفيه فتنة نسأل الله العفو والعافية، وقد يكون غطاء الوجه عبارة عن نقاب صغيرٍ يُظهر نصف الوجه وبداية الشعر من مقدمة الرأس ويظهر بياض الخدين وهذا لا يجوز.

٣ - البعض الآخر تأتي الواحدة بعباءة ضيقة وإيشارب والعباءة مفتوحة من الجانبين أو من الخلف أو من الأمام، وهي لا تلبس (الجوربين) (الدلاغات) فنراها إذا ركعت ارتفع ثوبها مقدار شبرٍ فوق كعبها، فإذا سجدت ظهر ساقها كله إلى فخذها وهذا لا يجوز.

٤ - بعض النساء تصلي في قميص وبنطلون وعلى رأسها إيشارب «منديل صغير» يغطي شعرها أو بعض شعرها وتكون فتحة صدرها مكشوفة، وهذا اللباس كما مَرَّ بنا هو لباس الرجال أو هو تشبه بهم، وقد نهى ﷺ عن ذلك والبنطلون «الجنز» أو الواسع لا يسترُ من عورة بل يجسد العورة، وهذا لا يجوز فاتقي الله أختي المسلمة وانظري إلى من وقفت ومن تناجيه فاستحي من الله، وإذا كنت ترغبيّن عن لبس الحجاب الشرعي فقد رغبتْ فيه نساءٌ أوربيّات بعد هدايتهن للإسلام، وأعرف منهن أمريكية وكندية وروسية وفلبينية وهولندية وكلهن شعُرن بالغبطة والسرور معه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساءُ بعده لمنعهن المسجد كما مُنِعَهُ نساءُ بني إسرائيل» [أخرجه الشيخان[١] وأحمد وأبو داود والبيهقي] فماذا عسانا نقول عما نرى الآن!!

كيف تسجدُ المرأة؟

يستحب للمرأة ضمُ بعضها إلى بعضٍ في الصلاة لأنه أسْتَرُ لها وذلك لحديث يزيد بن أبي حبيب: أن النبيَّ ﷺ: **«مَرَّ على امرأتين تُصليان فقال: إذا سجدتُما فضحا بعض اللحم إلى الأرض فإن المرأة في ذلك ليست**

---

(١) م٣٢٩/٢، فتح الباري (ج٢٤٩/٢).

كالرجل» [أخرجه أبو داود في المراسيل][1].

أي إذا سجدت المرأة فلتلصق بطنها بفخذيها ولا تفرج بين إبطيّها، ولتضُم بعضها إلى بعضٍ دون أن تفترش ذراعيها للنهي عن ذلك[2].

لأن ذلك أسْتر لها فيستحبُ لها ذلك، ولأنها إذا سجدت كسجود الرجل ظهر من عورتها وبدنها الكثير، كما نرى اليوم من بعض النساء.

٥ ـ بعض النساء تستهين برمي العلكة والمناديل الورقية بعد استعمالها وغير ذلك في المسجد، وقد نهى ﷺ عن ذلك.

عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: قال: **«البُزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»** [م١/٣٩٠ رقم ٥٥٢].

❁ وأخرج البخاري في كتاب الصلاة «إن المؤمن إذا كان في الصلاة فإنما يناجي ربه، فلا يبزقن بين يديه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره تحت قدمه» [فتح الباري ح١/٥٠٧].

❁ إذا كُنَّ جماعة فكيف يُصلِّين؟

إذا كانت النساء مجتمعاتٍ في مكانٍ عند إحداهن ـ لدرسٍ ـ أو موعظةٍ ـ أو لحاجةٍ فأذن لصلاة ما مكتوبة فليصلين جماعة حيث كانت الصحابيّات يفعلن ذلك، وفي جماعة النساء تقف المرأة التي تصلي بهن وسطهن في الصف الأول ولا تتقدمهن كالرجال.

أخرج الدارقطني والبيهقي وعبدالرزاق في مُصنفه بسندٍ صحيح عن رائطة الحنفية «أنها قالت أمّتنا عائشة رضي الله عنها فقامت بيننا في الصلاة المكتوبة» [الدارقطني ح١/١٥٥].

وعن إبراهيم النخعي: «أن عائشة كانت تؤم النساء في رمضان تطوعاً

---

(١) هذا الحديث وإن كان فيه ضعف فلم يرد ما يعارضُه.

(٢) الدين الخالص ج٢/٢٤٦.

وتقوم في وسط الصف» [أخرجه أبو يوسف ومحمد في كتاب الآثار/٤١ رقم ٢١٢].

عن حُجَيرة بنتُ حُصَنٍ: «أمتنا أم سلمة في صلاة العصر فقامت بيننا» [أخرجه الدارقطني ح١/١٥٥، والبيهقي وابن أبي شيبة وعبدالرزاق والشافعي في مسنده بسند صحيح].

وعن ليلى بنت مالك عن أم ورقة الأنصارية أن النبيّ ﷺ كان يقول: «**انطلقوا بنا إلى الشهيدة فنزورها، وأمر أن يُؤذن لها ويُقام وتُؤمَّ أهل دارها في الفرائض**» [أخرجه أبو داود ح١/١٦١ ـ ١٦٢ رقم ٥٩١ ـ ٥٩٢، والحاكم في مستدركه ح١/٢٠٣، والبيهقي[1] في السنن الكبرى].

وهذه الروايات تدلُ على استحباب إمامة المرأة للنساء فحسب، وذلك في الفرائضِ وأن تقف وسطهن ولا تتقدمهن، ويجوز للمرأة الخروج للمسجد لحضور الصلاة وحضور مجالس العلم والذكر، وإن كان صلاتُهن في قعر بيوتهن أفضل، إلا أننا نوصيهن بحضور دروس العلم والفقه، وكذلك الصلاة أو بعض الصلوات على أن يخرجن متسترات بكامل حجابهن غير متطيبات ولا مُتجملات ولا مُتزيناتٍ في لباسهن أو أنفسهن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرُجْن وهن تفلات**» [أخرجه أبو داود وأحمد والبيهقي والدارمي بسند جيد].

فاللهم اهدنا لأحسن الأقوال والأفعال، وأصلح نياتنا وأصلح دُنْيانا التي فيها معاشنا وآخرتنا التي فيها معادنا، والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، وصلى الله على نبينا وحبيبنا محمد وآله وسلم.

---

(١) البيهقي في السُنن الكبرى ج٣، ص١٣٠ ـ ١٣١، «باب إثبات إمامة المرأة»، باب «المرأة تؤم النساء فتقوم وسطهن».

وفي الختام:

أقول ـ بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ـ وكذا الصلاة والسلام التامين على نبينا محمد وآله وصحبه ـ بعد أن انتهينا من جولتنا الأولى في أروقة النفس المسلمة من خلال مراسم التكريم الإلهي لها، ومناهج البناء والتربية والرعاية والتقويم التي وضعها من أجلها، وعَرْضِنا السريع والميسَّر لبعض هذه المناهج أقول ولا يزال الحديث موصولاً ـ إن شاء الله تعالى ـ من أجل تكملة هذه السلسلة المباركة التي ابتدأناها بهذا الجزء، والذي نسأل الله عزَّ وجلَّ ـ أن يعمم به النفع ويجعله في موازين أعمالنا يوم نلقاه، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أختكم في الله/ أم عبدالله عاطف
الكويت في ٨ ربيع ثاني ١٤٢٢ هـ
٢٠٠١/٦/٢٩م



قائمة المراجع

١ - **القرآن الكريم**.

٢ - **اجتهاد الرسول ﷺ**: عبدالجليل عيسى.

٣ - **اقتضاء الصراط المستقيم**: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٤ - **الإيمان**: لابن منده، **تحقيق**: د.علي الفقيهي.

٥ - **البداية والنهاية**: لابن كثير.

٦ - **التبيان في أقسام القرآن**: لابن القيم.

٧ - **تربية الأولاد في الإسلام**: عبدالله علوان.

٨ - **تفسير آيات الأحكام**: للشيخ محمد علي الصابوني.

٩ - **تفسير البيضاوي**.

١٠ - **تفسير الجلالين**: للمحلي والسيوطي.

١١ - **تفسير القرآن العظيم**: لابن كثير.

١٢ - **تفسير المنار**: لمحمد رشيد رضا.

١٣ - **تفسير النسفي**.

١٤ - **التوسل والوسيلة**: لابن تيمية.

١٥ - **تيسير العزيز الحميد**: سلمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب.

١٦ - **تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان**: للشيخ عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي.

١٧ - **الجامع لأحكام القرآن**: للإمام أبي عبدالله القرطبيُّ.

١٨ - **جامع البيان في تفسير القرآن**: للإمام ابن جرير الطبري.

١٩ - **الجامع الصحيح للبخاري**.

٢٠ - **خُلق المسلم**: للشيخ محمد الغزالي.
٢١ - **الدين الخالص**: الشيخ محمود خطاب السُبكي.
٢٢ - **رياض الصالحين**: لأبي زكريا النووي.
٢٣ - **زاد المسير**: لابن الجوزي.
٢٤ - **سُنن الترمذي**.
٢٥ - **سُنن الدارقطني**.
٢٦ - **سنن الدارمي**.
٢٧ - **سنن أبي داود السجستاني**.
٢٨ - **سنن أبي داود الطيالسي**.
٢٩ - **السُنن الكبرى للبيهقي**.
٣٠ - **سنن ابن ماجه**.
٣١ - **سنن النسائي**.
٣٢ - **الشفاء**: للقاضي عياض.
٣٣ - **شرح ابن بطال على البخاري**.
٣٤ - **شرح العقيدة الطحاوية**: لابن أبي العز.
٣٥ - **شرح العقيدة الواسطية**: د. صالح الفوزان.
٣٦ - **صحيح ابن حبان**.
٣٧ - **صحيح ابن خزيمة**.
٣٨ - **صحيح مسلم**.
٣٩ - **ظلال القرآن**: للشيخ سيد قطب.
٤٠ - **العبودية**: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٤١ - **عظيم قدره ورفعه مكانته عند ربه**: خليل إبراهيم مُلا خاطر.
٤٢ - **العقيدة الإسلامية «سفينة النجاة»**: د. كمال محمد عيسى.
٤٣ - **الفتاوى الكُبرى**: لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٤٤ - **فتح الباري**: للحافظ ابن حجر.
٤٥ - **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**: الشيخ عبدالرحمٰن بن حسن آل الشيخ.
٤٦ - **فقه السُنة**: للشيخ سيد سابق.
٤٧ - **الفوائد**: لابن القيم.
٤٨ - **القاموس المحيط**: للفيروز - آبادي.

٤٩ - **الكاشف**: لأبي القاسم الزمخشري.

٥٠ - **الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**: عبدالعزيز محمد السلمان.

٥١ - **اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية**: د. محمد عبدالعزيز عمرو.

٥٢ - **الله يتجلى في عصر العلم**: ترجمة د. الدمرداش سرحان.

٥٣ - **مختار الصحاح**: للرازي.

٥٤ - **مختصر العلو للعلي الغفار**: شمس الدين الذهبي.

٥٥ - **مختصر قيام الليل**: للمروزي.

٥٦ - **مدارج الساكين**: لابن القيّم.

٥٧ - **المرأة بين الفقه والقانون**: د. مصطفى السباعي.

٥٨ - **المرأة في التصور الإسلامي**: عبدالعال الجبري.

٥٩ - **المرأة المسلمة**: الشيخ الشعراوي.

٦٠ - **مستدرك الحاكم**.

٦١ - **مُسند الإمام أحمد بن حنبل**.

٦٢ - **معارج القبول**: الحكمي.

٦٣ - **معالم السُنن**: للخطابي.

٦٤ - **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، القاهرة.

٦٥ - **المغني**: لابن قدامة.

٦٦ - **مفتاح دار السعادة**: لابن القيّم.

٦٧ - **المنتقى من أخبار المصطفى**: لمجد الدين أبي البركات ابن تيمية.

٦٨ - **المنهل العذب المورود**: مخمود خطاب السُبكي.

٦٩ - **موطأ مالك**.

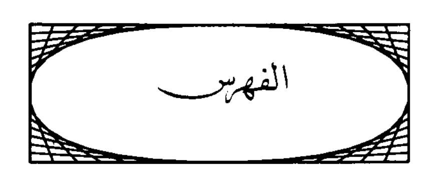
٧٠ - **ميزان الاعتدال**: للذهبي.

٧١ - **النووي على مسلم**.

٧٢ - **وصايا الرسول ﷺ**: الشيخ طه عفيفي.

٧٣ - **الولاء والبراء**: سعيد القحطاني.





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

